مهدي المخزومي

الخليل بن أحمد الفراهيدي

أعماله ومنهجه



دار الرائد العربي

بيروت - لبنان

مهدي المخزومي

الخليل بن أحمد الفراهيدي

أعماله ومنهجه





ساعدت وزارة المعارف على نشره

مطبعة الزهراء — بغداد

١٩٦٠

مقـــدمة

هذا بحث حاولت فيه استجلاء غوامض مر عليها تاريخ الحياة العقليــة مرورا خاطفا ، تتصل بحياة شخصية من ألمع الشخصيات العلمية ، وأقواها أثرا فى تاريخ العراق العربى الاسلامى ، وأغزرها نتاجا ، وأدقها فكرا ، وأعمقها عقلا ، وأكثرها تجردا لطلب العلم والابداع فى جوانبــه المختلفــة ، وموضــوعاته المتعددة • تلك هى شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدى ، الرجل الذى وهب نفسه لخدمة العلم ، وصرف همه الى طلبه ، والذى كسب به أصحـــابه المال والجـاه ، وهـو فى خُصّ لا يُشْعَرُ به ، كما كان تلميــذه النضر بن شُميْل يقول •

عزفت نفس الخليل عن كل ما يتصل بالجاه والسلطان ، وعافت كــل مباهج الحياة التى كانت الغاية للطامحين فى تلك الحقبة من الزمان ، وحالت دون أن يسخّر ذلك القلب الكبير ، والعقل المبدع لخدمة وال ، أو يستنزف فى تملق خليفة ، وانصرفت الى تثبيت قواعد راسخة لحياة أمتنا العقليّــة ، والى الابداع فى كل ما كانت تصبو اليه حياة فتيّة هى حياة أمتنا الصاعدة المتطلعة الى الاسهام فى النهوض بالحضارة الانسانية ، ودفعها الى طريق تطـــورها وازدهارها •

وآب الخليل بعد عمر حافل بالاعمال الجليلة على رأس الطليعــــة التى مهدت للانسانية طريق التطور العظيم ، وعاد رائدا مجربا يجوب آفاق العلم المجهولة ، ليضع للاجيال ركائز ينبنى عليها تطورها ، وينصب فى متاهاتهــا منائر تهديها فى سبيلها الوعر الطويل •

لقد تناول الخليل كل ما عرفته البيئة البصرية من ثقافات ، فقوّمها وتعهدها ، وأحسن تربيتها ، وأبدع فى أعمال علمية أخرى لم تخطر على بال معاصر له مع أن من بين معاصريه علماء ومبدعين يعسر تعدادهم • وقد كان ابداعه أسرع من أن يدركه زمن ، فلم يتسع وقته لتسجيل كل ما كان ينطوى عليه من أفكار ، فكان يملّه على تلاميذه ، وكان تلاميذه يكتبون ، وكانوا له أوفياء حقا ، نقلوا عنه نقلا أمينا ، وفى مقدمة هؤلاء سيبويه الذى اقترن اسمه باسم أستاذه ، ونال من الشهرة مالم ينله دارس نابه ، عاصره أو تأخر عنه •

ان الالمام بأعمال الخليل غاية ليس من اليسير تحقيقها ، وان دراسة أعماله لتحتاج الى أكثر من متخصص واحد • يضاف الى ذلك أن كثيرا من آرائه وأقواله كانت قد تفرقت فى بطون الكتب ، وذهب بها تقادم العهد ، ولم يتيسر للدارس أن يقف عليها ، ولم يكن التدوين اذ ذاك من السعة بحيث يسجل كل شيء •

ولا يكفى كتاب سيبويه فى الالمام بكل آرائه ، أو الاحاطة بكل أقواله ، فلم يكن الخليل فى هذا الكتاب الا نحويا ، وليس الخليل نحويا حسب ، ولكنه لغوى ، ودارس أصوات ، وعروضىّ ، وهو فى كل هذا مبدع أو مخترع ، وهو فى كلها مرجع للخائضين فيها والحائمين حولها • فلابد لدارس أعمال الخليل أن يلمّ بكل ذلك ، وهو هدف بعيد ، ومطلب صعب ، وكتبنا القديمة تتعب من يحاول دراستها ، وأمّات مراجعنا مخطوطات ملؤها التصحيف والتحريف ، لم يكتب لها أن تحقق وأن تطبع •

ولابد لدارس أعمال الخليل من أن يضع نصب عينيه كل ذلك ، ولابد له من أن يقضى وقتا طويلا فى تلقّط ما يتصل بالخليل فى ثنايا الصفحات ، من كتب لا مطبوعة ولا مفهرسة ، ومن خلال نصوص يعوزها كثير من التمحيص والتحقيق •

وقد نبهنى أستاذى ابراهيم مصطفى ساعة وافق على الاشراف على اعداء هذه الرسالة – الى وعورة الطريق وصعوبة الموضوع ، ولكنى كنت تواقا الى أن أكون أول والج ، ويكفى الدارس أن يهيىء للدارسين من بعده أعرض الخطوط التى ترسم للخليل صورة ، وأن يكفّر المحدثون من بعده عن سيئات التاريخ تجاه مفخرة من مفاخر التاريخ .

وأنا مع اعترافى ، كما قلت فى خاتمة هذه الرسالة ، بأنى لم أستطع الوصول الى كل ماله صلة بأعمال هذا الرجل ، قد بذلت فى سبيل ذلك جهدى وطاقتى ، وأبت بصورة له ان لم تكن مكتملة فانّها معبرة ، تحمل الخطوط الرئيسة التى تقوم عليها .

واذ أعددت هذه الرسالة للطبع لم أشأ أن أغير فيها شيئا ، وحاولت أن تبقى كما أعدّت ، وكما نوقشت ، الا تصحيحات طفيفة لابد منها ، لاقامة عبارة ، أو اتمام جملة . أما التبويب ، وأما الفصول ، وأما الموضوعات فهى هى كما أخرجت قبل عشر سنوات ، وقد جدّ لى بعدها ما يعدل موضوعا ، يزيد عليه أو ينقص منه ، وما يوجه فكرة توجيها آخر ، ولكنى أرجأت كل ذلك الى فرصة أخرى .

وما أنس لا أنس ما أفدت من توجيهات أساتذة لى كرام على نفسى ، أذكر من بينهم أستاذين أشرفا اشرافا فعليا على اخراج الرسالة ، هما الاستاذ ابراهيم مصطفى والأستاذ أمين الخولى ، وقد حبيانى من التوجيهات ما يسرّ لى اعداد هذه الرسالة ، وأستاذا كنت أختلف اليه ، ثم أشرف على اعداد رسالة الدكتوراه «مدرسة الكوفة» وهو الأستاذ مصطفى السقا .

فاليهم أوجه شكرى وتقديرى .

٢٠/٢/١٩٦٠ ، مهدى المخزومى

تمهيـــد

(١)

العراق قبل الفتح الاسلامى

شهد وادى الرافدين حضارات قديمة تركت آثارها فى نفوس أهـــل الوادى فاذا تركنا ذكر الحضارات المتوغلة فى التاريخ كحضارة بابل وآشور فلابد أن نعرض لدولة السلوقيين اليونانية التى استمرت بالعراق ما يقارب ثلاثة قرون ، ولدولة الفرس ومنها ما تقدم دولة السلوقيين ومنها ما تأخر عنها٠

كانت مدينة اصطخر فى اقليم فارس مركزا للدولة الفارسية قبل فتح الاسكندر وكان العراق اذ ذاك خاضعا للفرس ٠ وكان آخر ملوك الفرس قبل فتح الاسكندر دارا بن دارا الذى ناجزه الاسكندر وقتله ٠

ثم نشأت بعد موت الاسكندر ممالك صغيرة حكمها ملوك الطوائف الذين دام عهدهم ستين ومائتى سنة كما يقول الدنيورى ٠ (١)

وفى هذه الاثناء تأسست دولة السلوقيين ، أسسها سلوقيوس أحد قواد الاسكندر ، وأخذت هذه الدولة تتسع فى عهد ملوك الطوائف وعلى حسابهم حتى دان لها العراق ، وبنى سلوقيوس مؤسس هذه الدولة مدينة سلوقيـة على دجلة بازاء المدينة القديمة التى كانت تسمى اكتزيفون ووردت على ألسنة المؤرخين العرب باسم طيسفون وهى المدائن ، وأصبحت سلوقية عاصمـــة السلوقيين الذين دام حكمهم مايقارب ثلاثة قرون ٠

وكانت اللغة اليونانية فى عهد الاسكندر ، وفى عهد هذه الدولة هـــى اللغة الرسمية لهذه البلاد كما عرفت فيها حضارة اليـــونان وثقافتهـم ، ولم

(١) الاخبار الطوال ص ٤٥ ٠

يقتصر أثر اليونان على العراق وحده بل تسرب الى بلاد الفرس أيضا ، وظلت الثقافة اليونانية دائرة فى هذه الاقطار بضعة قرون (٢) •

ثم كان أن قامت الدولة الرومانية فى الشرق واعتنق أباطرتها المسيحية وتعصبوا لها واضطهدوا الوثنيين من فلاسفة اليونان وبعض الطوائف التى لاتدين بمذهب الدولة الرسمى حتى اضطروهم الى الهجرة فهاجـروا الى الشرق ، الى الجزيرة والى بلاد فارس ووجدوا من أكاسرة الفرس ترحيبا وتكريما فأسسوا فى هذه البلاد مراكز ثقافية ، وكان الفرس يشجعون هذه المدارس ويؤسسون على غرارها مدارس أخرى تدرس فيها الثقافة اليونانية كما حدث فى مدينة «جنديسابور» فقد أسسها سابور بن أردشير وأسكن فيها أسرى الروم وبعض الفرس وتأسست فيها مدرسة كان يقوم بالعمل فيها يونان وسريان •

ثم انتهى حكم اليونان فى هذه الربوع بظهور الدولة الساسانية على يد مؤسسها أردشير بن بابكان •

نشأ أردشير فى مدينة اصطخر واستطاع أن يخضــع لحكمه ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون الاقاليم المحيطة باقليم فارس وأن يكوّن من مجموعها دولة كبيرة أعاد بها ملك فارس الى ماكان عليه قبل مقتل دارا مـن اتساع ونفوذ • فاتجه الى الشرق حتى استولى على بلاد الجبل التى كان يحكمها الاشغانيون • والى الشمال حتى استولى عـلى الجزيرة وشـارف الدولة الرومانية ، والى الجنوب حتى غزا البحرين واخضعها لملكه وبنى فيها مدينـة الخط ، والى الغرب حتى أخضع بلاد السواد وبنى هنا وهناك مدنا كثيرة زعم البستانى أنها ثمان منها مدينة بهرسير مقـابل المدائن ، ومدينـة فيروزاباد ، ومدينة بهمن أردشير •

---

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ٢٩ •

وقد زعم الدنيورى أنه اختط المدائن حين عسكر بموضعها فى أثناء غزوه العراق [٣] ولم أجد ما يؤيد زعمه فان اسمها الاول وهو اكتزيفون قديم ، ولكن لايبعد أن يكون أردشير قد وسعها واتخذها عاصمة لملكه بعدما استشار الاطباء والمنجمين فاكدوا له «أنه ليس فى المملكة بلد أصح ولا أعدل من تلك البقعة وما قرب منها من اقليم بابل [٤] .



كان الوادى ــ ولايزال ــ خصبا غنيا ، وكان مطعما للمستغلين والمستثمرين وكان العرب يقصدون الى مراعيه الخصبة ، لذلك كان منذ الزمن القديم منزلا للقبائل العربية من معدّ وغيرهم ، وكانت قبائل اياد بن نزار منتشرة فى السهل المحاذى لبلاد العرب فى المساحة الواسعة بين الجزيرة ومنطقة البصرة[٥] ، ثم أخذت الهجرات تتعاقب ، ومنها هجرة اليمانيين من لخم وغسان ، وكانت بداية هذه الهجرات فى عهد ملوك الطوائف .

ولما عاد الحكم الفارسى من جديد ، وعادت الامبراطورية الفارسية الى ما كانت عليه من اتساع رقعة وامتداد نفوذ كان العراق أحد الأقاليم التى خضعت للدولة الفارسية الجديدة ، وقد شاءت سياسة الفرس أن تنشىء على الحدود الغربية دولة عربية خاضعة لنفوذها فكانت دولة المناذرة الذين كانوا من لخم ، وقد قامت هذه الدولة على الفرات جنوب المدينة التى مصّرت بعد الفتح الاسلامى وهى الكوفة ، وظلت قائمة تحت حماية الدولة الفارسية يقدم ملوكها لملوك الفرس جرايات سنوية ، ويدفعون عن الامبراطورية غارات العدو ويشدون أزرها ضد خصومهم الرومان الى أن جاء عهد سابور الملقب بذى الاكتاف ، فقد أخذ هذا يتحرش بالعرب الذين كانوا يمالئون الروم فى

---

(٣) الاخبار الطوال ص ٤٦ .

(٤) تاريخ اليعقوبى جـ١ ص ٢٠٠ (طبع أوروبة) .

(٥) تاريخ اليعقوبى جـ١ ص ٢٣٦ (طبع أوروبة) .

الجزيرة وجنوبى الشام وكانوا قد ساعدوا الروم عليه فهزموه وأوقعوا بجيشه، وظل يحقد على العرب جميعا •

ثم عادت العلاقات بين العرب والفرس ولكن سلطان الفرس على العرب أصبح أوضح من ذى قبل فقد كان الملك الفارسى يتحكم فى تعيين الملوك ، كان يولى من يشاء ويعزل من يشاء وكان من نتائج هذا التحكم وذلك الحقد المتبادل أن تألبت القبائل عليه ملتفة حول هانىء بن مسعود زعيم شيبان ، واصطدمت بالفرس فى موقعة (ذى قار) وكانت الغلبة فيها للعرب ، وكان هذا «أول يوم ظفرت فيه العرب بالعجم» ، والفضل فيه يعود الى بنى شيبان الذين خرجوا على ارادة الفرس ومنعوا سلاح النعمان عن كسرى •

وبنو شيبان هم الذين سهّلوا مهمة العرب فى فتح العراق وفارس بعدما عجموا عود الفرس وجربوا القتال معهم ، فقد طلب المثنى بن حارثة الشيبانى الى أبى بكر أن ينجده لمحاربة الفرس الذين أصبحوا فى ذلك العهد فى حال من الانحلال بحيث لايصبرون على الضربات القوية يسددها لهم خصوم أقوياء فقد أدركهم الضعف ودب فى حكمهم الفساد فما كانت موقعة القادسية بزعامة سعد بن أبى وقاص حتى أخذت أركان الامبراطورية تتهاوى الى أن زالت من الوجود •

ومهما يكن من شىء فان نشوء حضارات البابليين والآشوريين فى هذه البلاد ، ووفود حضارات أخرى يونانية وفارسية وعربية كان مما ترك آثارا عظيمة فى تكوين عقل أهل العراق ودينهم وعاداتهم ، وكان العرب يسكنون الوادى ويشاركون فى هذه الآثار •

فلما فتح العرب المسلمون العراق كان لهم اخوان من العرب سبقوا الفتح واستوطنوا البلاد من قبل وكانوا لهم عدة وسندا فى مواقعهم ضد الفرس •

وكان من جموع الفاتحين العرب ومن هؤلاء وأولئك أمّة أسست حضارة العراق الاسلامية •

(٢)
البصرة

آنا لانعرف بلدا أقرب من بحر ، وحضرا من بدو ، وريفا من فلاة ، وملاحا من جمال وقانص وحش من صائد سمك ، ونجدا من غور من البصرة فهي واسطة الارض وغوصة البحر ومغيض الاقطار وقلب الدنيا·

«البلدان»

لقد تم فتح المنطقة الجنوبية من بلاد السواد على يد خالد بن الوليد الذى لم يجتز هذه المنطقة الا ّ بعد أن احتلّ الخريبة التى كانت ثغرا من ثغور الفرس وترك عليها سويد بن قطبة ٠

وأمر عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص الذى كان يدير الحركات الحربية فى المنطقة الوسطى أن يرسل عتبة بن غزوان أحد المهاجرين من ذوى المكانة بين المسلمين مع جماعة من المقاتلين الى منطقة البصرة ، يهدف فى ذلك الى خطة حربية قويمة هى شدّ أزر العرب هنا وتجميد بعض الجيوش التى خيف أن يستفيد منها الفرس لمقاتلة سعد ، وقال له :«حطّ قيروانك بالكوفة وابعث بعتبة بن غزوان الى أرض الهند» ٠

ذهب عتبة بن غزوان الى منطقة البصرة مع بضع مئات من الجنود وأصبح عتبة هو المرجع المسئول ، واستقرت الأمور وهدأت الحال فى الجنوب فلم يبق الا ّ أن يدبّر عتبة اسكان من كان معه ٠

وقد وجد العرب فى منطقة البصرة مستقرا عامرا فقد كانت آهلة قبلهم ، وكان فيها بعض القرى والمسالح الفارسية لاتزال قائمة كالخريبة والزابوقة ، والدقاقة ، والأبلّة ، فاستقر الرأى على أن يختط عتبة هناك لأصحابه خططا

تكون لهم مستقرا ومقاما ، وكان لابد أن يستشير الخليفة فى ذلك فلعل له رأيا آخر يهتدى به ، فأرسل الى عمر يستأذنه فى اتخاذ منطقة البصرة معسكرا لجنوده ومستقرا لأسرهم وقد وصفها كما كانت تبدو له وصفا ملائما لما كان يبتغيه عمر فى تشييد الأمصار ، فقد كان يشترط فيه أن تكون فى موضع لايفصلها عن العاصمة الاسلامية فاصل طبيعى قد يكون عقبة تحول دون الاتصال بها اذا أصبحت مهددة بالتطويق من جانب الأعداء .

وقد أذن عمر لعتبة أن يختط نواة هذا المصر الذى سيكون من أهم الأمصار الإسلامية والذى كان له مزايا هامة من الناحية العسكرية والتجارية والثقافية ، وقد حطّ المسلمون رحالهم فى هذه المنطقة على أنقاض قرية فارسية كانت ثغرا من ثغور الفرس وهى الخريبة .



ولهذه المنطقة أهمية تجارية عظيمة لأنها نقطة اتصال الشرق بالغرب والشمال بالجنوب ، ولأنها ملتقى الخطوط التجارية المنحدرة من الجبال الشرقية التى هى حدّ طبيعى بين العراق وايران ، والخطوط التجارية الآتية من بوادى نجد ، وهى موقع يتوسط المواصلات النهرية الآتية من دجلة والفرات والمواصلات البحرية التى تصل هذه المنطقة بالهند وبموانىء الخليج .

هذه الشبكة من خطوط المواصلات جعلت للبصرة أهمية عظيمة كانت قد لفتت اليها أنظار الفاتحين وجعلت منها مركزا تجاريا مهما كان له شأن فى سرعة استقرار الحضارة العربية والتقائها بالحضارات الأجنبية الأخرى .

ولعل وقوع البصرة فى هذه الشبكة من الخطوط التجارية وطرق القوافل يؤيد من ذهب الى أن اصل الاسم فارسى وهو «بس راه» ومعناه «الطرق الكثيرة» (١) ، ولم يكن العرب بادىء الامر يعرفون هذا الاسم كما

---

(١) معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٣ .

يفهم من الأمر الذى بعث به عمر بن الخطاب الى سعد بن أبى وقاص : «أن حطّ قيروانك بالكوفة وابعث بعتبة بن غزوان الى أرض الهند» [٢] .

ولقد لفت تمصيرها وموقعها الجغرافى ومركزها التجارى أنظار الناس اليها ، فبدأت الهجرات تتوالى عليها ، وكان الجنود الذين تركهم خالد بن الوليد بعد فتح هذه المنطقة من أوائل المهاجرين اليها . ثم جاءت الموجة الثانية من الجند بقيادة عتبة بن غزوان ، وكان عدد الجنود الذين جاءوا معه ثمانى مائة [٣] وقد اصطحبوا معهم عائلاتهم ، وكان العرب الذين يغزون يحملون معهم نساءهم واطفالهم كأنّهم كانوا يقصدون الى الاستيطان حيث يصل بهم الغزو .

ثم أخذ الناس من الحجاز وغيره يتوافدون على البصرة شيئا فشيئا حتى كان عدد من هاجر اليها كبيرا بحيث لم يمض على تأسيسها خمسون عاما حتى كان عدد نفوسها ثلاث مائة ألف نسمة [٤] .

وأخذت أعاريب بنى تميم تتوافد على البصرة بعد تأسيسها لأنها أصبحت سوقا تجارية مهمة بحكم كونها ملتقى للخطوط التجارية ، وكانت منازلهم ممتدة فيما يحاذى البصرة من جهة الغرب الى اطراف الكوفة . ووفدت عليها جماعات من عرب الحجاز ونجد من قريش وكنانة ومن ثقيف وباهلة ومن آل بكر بن وائل وعبدالقيس وغيرهم ، وأخذت قبائل الأزد كذلك تتوافد عليها وكان مسكنها عمان حتى أصبح لهم هناك عدد كبير .

وكان فى البصرة جماعات كبيرة من الأساورة الذين ينسبون الى سياه الأُسوارى أو ينسب اليهم ، وكان سياه هذا على مقدمة يزجرد ، وقد رأى هو وأصحابه ماتمّ على أيدى العرب من فتح مبين ، وما آل اليه أمر الفرس من هزيمة فكتب الى أبى موسى الأشعرى والى البصرة من قبل عمر بن الخطاب

---

(٢) البلدان لابن الفقيه ص ١٨٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية (بصرة) .

وأخبره بعزمه وعزم أصحابه على الدخول فى الاسلام بشروط اشترطها على أبى موسى رفضها أبو موسى أولا ولكنه خضع لأمر عمر فقبلها ، ورضوا هم أن يقاتلوا عدوّ الاسلام وأن يضمن لهم أبو موسى المساعدة والحماية حتى من المسلمين لو اعتدى المسلمون عليهم وأن يكونوا أحرارا ينزلون حيث شاءوا ويحالفون من أحبوا فكان له ولأصحابه ما أرادوا ، ونزلوا البصرة وحالفوا بنى تميم •

وكانت المنطقة المائية التى تقع شمال البصرة فيما يسمى «البطيحة» ملجأ لأقوام من السند يسمون الزُّط ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفى قد أسكن جماعة منهم فى هذه المنطقة ومعهم دوابّهم لملاءمة هذه البيئة لها • وكانت مأوى لآخرين من النبط الآراميى الاصل وهم الصابئة الذين لايزالون يحتلون هذه المنطقة المائية التى تسمى الآن «هور الحمّار» ويكثرون فى جنوبها وعند مدينة القرنة الواقعة عند ملتقى دجلة والفرات •

وكان هناك عنصر آخر له اتصال قديم بهذه المنطقة ولايزال هذا الاتصال قائما حتى اليوم ، وكانوا كما يروى البلاذرى يسكنون فى البحرين وفى منطقة السواحل ، هذا العنصر هم السبابجة الذين كانوا يفدون من جزائر الهند الشرقية ومن جاوة ، ولهذه المنطقة الجزرية اتصال قديم ببلاد العرب يعرفه العرب القدماء من سكان اليمن والبحرين وهذه المنطقة التى سميت بهم وبالزط وغيرهم من الهنود «أرض الهند» أعنى البصرة •

ولليونانيين فى اقليم البصرة مقام ملحوظ فقد كانت البصرة لهم سوقا تجارية وكان لهم فيها جالية أسكنها الاسكندر حين غزا بلاد «مابين النهرين» وظلت هذه الجالية هناك تتكاثر منذ ذلك العهد •

يؤيد هذا ما ذكره ابن الفقيه من أن عبيدالله بن زياد بنى دارا فى البصرة وفيها باب ينفذ الى سكة أصطفانوس وباب آخر الى السكة التى

تعرف بالبخارية فان وجود سكة في البصرة تنسب الى أصطفانوس وهو اسم يوناني يعني وجود يونانيين (٥) .

يضاف الى هؤلاء جميعا بعض العناصر الزنجية التي جاءت الى هـذه المنطقة من السودان أو من زنجبار الواقعة على الساحل الافريقي الشرقي (٦).

وكان لأهل البصرة موارد كثيرة هيأها لهم موقـع البصرة الجغـرافي ومركزها التجاري كالزراعة واستثمار النخيل والصيد وانشاء الحمامات التي كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، ولكن أهم مصدر مالي لهم هو التجارة ، وقد اشتغل بها العرب وغيرهم ، ولم تقتصر التجارة على المنفعة المادية فقد أكسبت البصريين خبرة وحنكة وصبغت عقلياتهم بالصبغة العملية وطبعت لغتهم بطابع خاص .

ومهما يكن من أمر فان مجتمعا كمجتمع البصرة يشتغل بالتجـــارة والزراعة وبالأعمال الأخرى التي لابد أن يحتاج اليها مجتمع كمجتمـع البصرة ، لابد أن يكون قد أثرى ووجد فيه أثرياء كثيرون ، وقد أثرى فعلا ووجد فيه من الأموال والثروات مالم يوجد في غيرها ، وتوفر فيها من أسباب الترف والنعيم مالم يتوفر في سواها ، وكانت المعيشة فيها لاتخلو مـن يسر ورخاء حتى كانت «خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس» (٧) .

---

(٥) البلدان لابن الفقيه ص ١٩١ (طبع أوروبة) .
(٦) دائرة المعارف الاسلامية (بصرة) .
(٧) معجم البلدان جـ١ ص ٢٠٢ .

(٣)
الاندماج

كان فى البصرة ـ كما مرت الاشارة اليه ـ عنصر عربى وعناصر أجنبية مختلفة • عاشت هذه العناصر بعد تمصير البصرة فى بيئة واحدة وحيّت حياة مشتركة وتفاعلت بهذه الحياة المشتركة عادات القوم وتقاليدهم وتقابلت عقلياتهم فتأثر بعضها ببعض •

وأهم العناصر التى عاشت فيها عنصران كبيران هما العنصر العربى والعنصر الفارسى وأوضح مظاهر الاندماج يتمثل فيما تبادله هذان العنصران من اقتباس ، فقد اقتبس الفرس من العرب كثيرا ، واقتبس العرب من الفرس كثيرا ، وشارك الفرس العرب فى لغتهم ودينهم وفى حياتهم الاقتصادية وحياتهم الثقافية ، وتركوا فى ذلك كله آثارا تتمثل فيما ظهر فى المجتمع العربى الاسلامى من أهواء ليس للاسلام بها عهد ، وفيما سنعرض له من عادات وتقاليد أجنبية طارئة •

كان للعنصر العربى لغته الخاصة ودينه الخاص وله تجارته واتصالاته بالروم والفرس ، وله جيشه المنظم وله عاداته وتقاليده •

وكان للعنصر الفارسى لغته الخاصة ودينه الخاص وتجارته وموانئه وجيوشه المنظمة وله عاداته وتقاليده أيضا •

وكان للفرس تنظيم اقتصادى داخلى «كان لملوكهم ديوانان أحدهما ديوان الخراج والآخر ديوان النفقات فكان كل مايرد فالى ديوان الخراج وكل ماينفق ويخرج فى جيش وغيره ففى ديوان النفقات» (١) •

(١) الجهشيارى فى «الوزراء والكتاب» ص ٣ (القاهرة) •

وكان للعرب أيضا حياة اقتصادية منظمة ولم يكونوا بالشكل الذى عرف عن بدو رحّل فقد كان لحواضرهم ولاسيما الحواضر الحجازية تجارة منظمة تتصل بالأجانب وتقوم مقام الصلة بين العرب فى أنحاء الجزيرة وبين البلاد الأجنبية ، وكان لأهل الحجاز رحلتان تسير القوافل فى احداهما الى الشمال للمتاجرة مع الروم وفى الأخرى الى الجنوب للمتاجرة مع الهنود والفرس والأحباش ، وقد اقتبسوا بهذه الاتصالات كثيرا يتصل بعضه باللغة وبعضه بالشئون الاجتماعية الأخرى .

وكان للعرب حين جاء الاسلام ثقافة دينية ، وتجارية واقتصادية صورتها لنا الآيات الكريمة التى تعالجَ التنظيم الاقتصادى وشئون المعاملات والعبادات.

وقد تأثر هذان العنصران أحدهما بالآخر ، أما تأثر الفرس بالعرب ففى شيئين مهمين هما الدين واللغة .

أما الدين فقد انتشر فى هذه الربوع حتى أصبح يشرف على الوثنية فى مجاهل الهند والصين ، وكان الداخلون فى هذا الدين اناسا آمنوا به ايمانا عميقا ، وحرصوا عليه ، وكان لهم فضل المشاركة فى تدعيم أركانه ، ومن هؤلاء كثير من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين كسلمان الفارسى وسعيد بن جبير والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وغيرهم .

وأمّا اللغة فكان لها أثر عظيم أيضا فقد أقبلوا على تعلمها لأنها لغة القرآن ولغة الدين ، ولغة الحياة أيضا لقوم دخلوا فى حكم عربى وخضعوا لدولة عربية .

أقبل الفرس على تعلمها حتى مهروا فيها وأقبلوا على القرآن يحفظونه ويتدارسونه وعلى الأحاديث يروونها فكان قرّاء ومحدثون ، وأقبلوا على الشعر يروونه ويقرضونه وظهر منهم شعراء مجيدون كبشار بن برد وأبى نواس ، وسلم الخاسر وأبان اللاحقى وغيرهم .

والمعلوم أن الشعر والموسيقى من الفنون التى تتوارثها الامم وتتصل بسلائقها وملكاتها ولكن الفرس مع هذا قد تأثروا بالادب العربى وبالشعر خاصة واستساغوا موسيقاه واستعاروا أوزانه يوم أخذت الحياة تدب فى الفارسية مجددا .

وظهر فيهم كتاب كابن المقفع وأمره معروف ، وخطباء كموسى بن سياه الاسوارى الذى قال فيه الجاحظ : «انه كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين ، واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها الا ماذكرنا من لسان ابن سياه الأسوارى» (٢) .

وأما تأثر العرب بالفرس فقد كان واسع المدى أيضا ، أثر الفرس فى اللغة العربية فأدخلوا فيها مفردات فارسية ، وأكثرها يتصل بأسماء الأطعمة والأشربة ومجالس اللهو وأدواته الى غير ذلك .

كما أدخلوا بعض القواعد النحوية الفارسية فقد شاعت فى بيئة البصرة نسبة فارسية تتمثل بالحاق (آن) فى آخر الاسم فكانوا يقولون فى النسبة الى طلحة وحارث : طلحتان وحارثان ، وفى البصرة قطائع وأنهار منسوبة الى أصحابها بهذه الطريقة الفارسية كزيادان وأميتان وسليمانان نسبة الى زياد وأمية وسليمان (٣) .

وتأثرت العربية أيضا بهذا الاندماج فشاعت اللكنة واللحن ولم يقتصر أمرهما على الموالى حسب بل تعداهم الى العرب أنفسهم وظهر اللحانون واللكن

---

(٢) البيان والتبيين جـ١ ص ٣٤٦ .

(٣) فتوح البلدان ــ فصل تمصير البصرة .

وقد تحدث عنهم الجاحظ وغيره ، وعبيدالله بن زياد الذى كان يلكن بالكاف مثل من هذه الأمثلة .(٤)

وكان الفرس قد وغلوا فى الحضارة وأسباب الترف ، وكانوا يتأنقون فى ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وملاعبهم فاقتبس العرب منهم أساليبهم ، وكان للفرس نظم خاصة فى مجالسهم فأخذ العرب يرتادون أماكن الشراب التى تكثر فيها الأزهار والرياحين «وكانت أرض قاعة الشراب ينثر عليها الزهر كما كان الحال عند القدماء وعند الروم البيزنطيين وكانت أكاليل الزهور تزين رءوس الشاربين» (٥) .

وأقتبس العرب منهم حتى أدوات التسلية فلعبوا بالنرد وقامروا به ولعبوا بالشطرنج وكانت هذه اللعبة لهوا للأمراء والوزراء والخلفاء أيضا وكانوا يتسابقون فى المهارة بها .

هذا الى ما اقتبسه العرب من نظم ادارية كنظام الدواوين ، ومن أساليب تتصل بنظام الحكم كنظام الوزارة ونظام الحكم المطلق .

وكان قيام الدولة العباسية يعد بمثابة انقلاب خطير شمل كل النواحى من اجتماع وسياسة وثقافة ، وكان من اليسير جدا أن ينقل هؤلاء الأجانب الذين احتلوا كثيرا من مناصب الدولة الى المجتمع الجديد ماكانوا ألفوه من أساليب تمس المجتمع والسياسة والعقيدة وشجعهم على ذلك ما رأوه من الدولة من عناية وتشجيع .

فاذا أضفنا الى هذا التأثر المتبادل بين العرب والفرس التأثر المتبادل بينهم وبين العناصر الأجنبية الأخرى بحكم اختلاطهم بهم والتعامل معهم أدركنا أننا ازاء مجتمع جديد ليس عربيا خالصا ولا أجنبيا خالصا قوامه الدين

---

(٤) البيان والتبيين جـ٢ ص ٢١٣ .

(٥) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع (آدم ميتس) جـ٢ ص ١٨٠ .

العربى واللغة العربية وكتاب العرب وعادات وتقاليد وثقافات عامة من هؤلاء وأولئك ، وقد تفاعلت هذه العناصر كلها بما لها من عادات وتقاليـــد وآداب وثقافة وكان من تفاعلها أن ظهرت عقلية خاصة ترجع الى أصول مختلفـة عربية وفارسية ويونانيةوسريانية وهندية ، أو على حد تعبير الدكتور طه حسين: ثقافة عربية خالصة تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين ، وعلى الشعر العربى وما يتصل به من نحو ولغة ، وثقافة يونانية تعتمد على الطب والفلسفة ، وثقافة شرقية تستمد أصولها من الفرس والهنود والأمم السامية التى كانت منتشرة فى العراق (٦) .

وكانت البصرة والكوفة أيضا مختبرا لهذه الثقافات ومسبكا تسبك فيه العقليات المتباينة ، وكانتا مددا لاينضب للعاصمة العربية الجديدة فى العهـد العباسى تبعثان اليها بالعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وبما تيسر لهما من ثقافات .

وكان الاندماج فى البصرة أوضح منه فى الكوفة فقد كان الاختلاط فى البصرة أقوى منه فى الكوفة ، وكانت البصرة تمتاز بحياة تجارية قائمة على التعامل وتبادل المنافع وما يستتبع من تفاعل فى العقليات والثقافات .

١

---

(٦) من حديث الشعر والنثر ص ٩٠ (الطبعة الثانية) .

(٤)

المامة بحياة البصرة الثقافية

جاء الاسلام ونصيب العرب من الثقافة يتناسب مع أساليب حياتهم ، وبضاعتهم منها هى ماكانوا يحفظونه من شعر وخطب وأمثال ، وما كانوا يروونه من سير الأبطال وقصص البطولات ، ثم أضاف الاسلام اليها أشياء جديدة هى ماتضمنه القرآن الكريم من أحكام دينية ونظم اجتماعية كان الهدف منها تنظيم تلك الكتل البشرية المتفرقة على وجه الجزيرة العربية وارشادهم الى الطرق القويمة لتنظيم علاقات الأفراد بالجماعة ، وقد أبطل الاسلام أن تكون القبيلة هى وحدة المجتمع وأحلّ محلها وحدة عامة شاملة لاتقتصر على قبيلة بعينها وانما جمع تلك الأشتات بجامع واحد تحت رمز واحد هو الاسلام فأخذت القبائل تتقارب وأخذت الفواصل بينها تختفى شيئا فشيئا •

جاء الاسلام ليكوّن من هذه الأشتات أمة واحدة تتعارف فيها القبائل وليقيم نظاما من السلام يكون فيه كل ذى دين آمنا على ماله ودينه ونفسه ، وترك للرعايا أن يقوموا بشعائر دينهم من غير أن يكلفهم الا الجزية وهى ثمن الأمان ونفقات السلام ولكن المتعصبين عادوا الى اضطهاد من يخالفهم واحتقارهم فنفر أصحاب الأديان منهم وعادت العداوات التى كان الاسلام يسعى لمحوها بين الناس •

وكان العراق أكثر الأقاليم تأثرا بالأجانب لأنه أقرب الأقطار من بلاد العجم والنبط ، وليس غريبا أن تشيع اللكنة وأن يتفشى اللحن فيه لأن الأقوام قد اندمج بعضهم فى بعض واللغات قد اتصل بعضها ببعض فلابد أن يتمثل أثر هذا الاتصال وذاك الاندماج بظهور اللحن أو اللكنة لأن اللغات تتصل

بسلائق القوم وملكاتهم ، واللغتان اذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها كما كان الجاحظ يقول .

فلا عجب اذن أن يهتم العرب والمسلمون بالقرآن والحديث مخافة أن يتسرب اليهما اللحن فتذهب اللغة ثم يذهب كيانهم الجديد فكان أول ماهتموا به هو القرآن ، وسنرى كيف تطورت الدراسة القرآنية فى فصل قريب .

ونشأت مدارس لاقراء القرآن واتخذت المساجد أماكن للاقراء ووجد معلمون لعامة الصبيان ، ومعلمون لخاصتهم من أبناء الخلفاء والولاة ، واهتم الناس - بالاضافة الى اهتمامهم بالقرآن - بما كان لهم من شعر وثقافات وأخذوا يدونون ذلك فنشأت فى العالم الاسلامى نواة المكتبات ، ولم يكن هناك كتب تتألف منها المكتبات وانما كان هناك مجموعات من المدونات تحتوى على أشتات من هنا وهناك ، من حديث الى نادرة أدبية ، الى لفظ غريب ، الى مثل قديم ، الى مقطوعة شعرية ، الى مسألة فقهية أو كلامية أو نحوية ، فلم يكن التأليف معروفا فى المائة الأولى لأن التأليف مظهر من مظاهر التنظيم العلمى وأثر من آثار حياة عقلية منظمة وهو مالم يتوفر للمجتمع العربى الاسلامى اذ ذاك .

وتطورت الحال فنشأت فى المساجد مجالس القصص وظهر قصاصون مثقفون يقصون على الناس ، وكان بعض أئمة اللغة والنحو والفقه يختلفون الى هذه المجالس فقد كان عمرو بن عبيد يختلف الى مجلس الفضل بن عيسى الرقاشى ويونس بن حبيب يختلف الى مجلس عمرو بن قائد الأسوارى يسمع منه كلام العرب (١) ، لان عامة قصاص البصرة كانوا قد توفر لهم نصيب كبير من الثقافة العامة ، ولعل موسى بن سياه الأسوارى الفارسى الذى

---

(١) البيان والتبيين جـ١ ص٢٨٣ .

كان يتقن العربية اتقانه الفارسية ، والذى كان يخوض فى موضوعات ثقافية مختلفة ، مثل رائع من هذه الأمثلة الكثيرة التى عجّت بها البصرة .

ولأسواق الأمصار أثر كبير فى حياتها الثقافية فقد كان شعراء الكوفة يخرجون الى ظاهرها فيتحدثون ويتذاكرون أيام الناس (٢) .

وكان شعراء البصرة وخطباؤها ورواتها يخرجون الى ظاهر البصرة وفى ظاهرها سوق أو مناخة لابل الأعراب القادمين من البادية للتمون من أسواق البصرة ، وهى المربد . وللمربد فى حياة البصرة بوجه خاص وفى حياة العراق بوجه عام أثر كبير فى الحياة الثقافية . وقد نشأ المربد فيما نعتقد سوقا تجارية يقصد اليها الأعراب يمتارون مما فى البصرة من غلات ، ثم أخذت هذه السوق بالتدريج تتبوأ مكانة علمية كان لها أثر فى الحياة العقلية ، فلم تكد تنشأ هذه السوق حتى استغلتها القبائل للمفاخرة والمباهلة واستغلها الشعراء فى اظهار مواهبهم والدفاع عن عصبياتهم .

ومن أجل أن المربد كان مقصدا لأعراب الجزيرة فقد كان موردا هاما للغويين والأدباء والشعراء والرواة . وشعر أصحاب الأهواء ورؤساء المذاهب بأهمية هذه السوق فاتخذوا منها مسرحا لمجادلاتهم ومناظراتهم وميدانا يدعون فيه الى آرائهم ومذاهبهم .

وكان فى البصرة ألوان من الصراع كان يتمثل أول الأمر بما كان يدور بين أحزاب المسلمين من جدال وكان له صلة بالصراع القبلى القديم ، ثم أخذ يتحول الى صراع بين الشعوب يوم أخذت الحركات التحررية التى كانت تديرها الشعوب المغلوبة على أمرها فى الخفاء ــ تعلن عن نفسها جهارا حين شالت كفة العرب وأخذ الوضع يتطور فى مصلحة الشعوب المحكومة .

وأخذ هذا الصراع يصطبغ بصبغة علمية يوم أخذت الحياة العقلية

---

(٢) الاغانى ج ١٤ ص ٣٠ (ساسى) .

تستقر وتتناول بالتنظيم مرافق الحياة الأخرى • وتشعب الصراع العلمى حتى سرى بين الطوائف العلمية المختلفة ، وكان أبطاله رجال العلم والأدب وأصحاب الكلام ، ومجاله حلقات الدرس فى المساجد العامة ، وفى المجالس الخاصة التى كان الأمراء والوزراء يعقدونها لهذا الغرض كما حدث بين الأصمعى وأبى عبيدة فى مجلس الفضل بين الربيع (٣) وكما حدث لعمرو ابن العلاء وعبدالله بن أبى اسحاق فى مجلس بلال بن أبى بردة (٤) ، وكما حدث بين سيبويه والكسائى فى مجلس يحيى بن خالد فى المسألة النحوية المعروفة •

كان لهذه العوامل المختلفة أثر كبير فى خلق حياة ثقافية عامة وفى ايجاد التنافس الذى لابد منه لوجود حركة عقلية نشيطة دائبة •

ولما كانت نواة الحركة العلمية قد نبتت منذ أن اهتم المسلمون بالقرآن عقدت الفصل الأول للدراسة القرآنية لانها ـ فيما أرى ـ تعد أساسا للدراسات العربية ، تتبعت فيه تطور العمل القرآنى وتشعب مدارسه ، وعنيت باجمال القول فيها لما لها من صلة وثيقة بنشأة النحو بوجه عام ونحو الخليل بوجه خاص •

(٣) نزهة الالباء ص ١٦٦ •

(٤) نزهة الالباء ص ٢٢ ، ٢٣ •

الفصل الاول

القرآن والمسلمون

عنى المسلمون بعد أن جمع القرآن فى عهد عثمان بحفظ متنه من التحريف واللحن بعد أن اخذ الأعاجم يسلمون ، وقد أخذ هؤلاء يتعلمون العربية ويقرءون كتاب الله الكريم ويتدارسون أحاديث الرسول وليس لهم سلائق العرب ولا ملكاتهم فشاع اللحن وسرت عدواه الى العرب انفسهم ، وتنبه الصحابة والتابعون فرفعوا شكواهم الى اولى الامر ، وكان زياد بن أبيه يومئذ واليا على العراق بمصريه فى خلافة معاوية •

أدرك زياد أن خطرا كبيرا يهدد القرآن فأراد أن يعمل شيئا يدفع به هذا الخطر ويقوم بنصيبه من هذا العمل الذى بدأه عمر ، وكان زياد شديد الاعجاب بعمر حريصا على أن يحتذيه ويترسم خطاه ، وكان عمر هو صاحب الفكرة الأولى فى جمع القرآن وحفظه من الضياع ، ولم يكن يومئذ يستهدف لبعض هذا الخطر الذى أصبح يتهدده فى عهد زياد فقد أخذ اللحن يتفشى ويشيع حتى سمع فى القرآن نفسه • فعهد زياد بهذه المهمة لأبى الأسود الدؤلى ولكن الجفاء الذى كان بينه وبين زياد بسبب ولائه لعلىّ حال بادىء الامر دون أن يستجيب له فاستعفاه • ولكنه عاد اليه يوما ليضع نفسه تحت تصرفه ويقوم بما طلب اليه فقد سمع يوما قارئا يقرأ : «ان الله برىء من المشركين ورسوله» بكسر اللام ، فأدرك أبو الاسود ضرورة العمل الذى طلب زياد اليه أن يقوم به •

وهيأ زياد لأبى الأسود ماشاء من كتّاب وأدوات فاختار أبو الأسود كاتبا وأوصاه بهذه الوصايا • قال له : «اذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف

فانقط نقطة فوقه على أعلاه فان ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف وان كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فان اتبعت شيئا من ذلك غنّة فاجعل مكان النقطة نقطتين .»[1]

وظل هذا يقرأ وهذا ينقط حتى أتمّا اعراب القرآن ، وأذاع زياد هذا فى الناس وأخذه عن أبى الأسود تلاميذه وأصحابه . فعمل زياد هذا يعدّ متمما لما قام به عمر وعثمان فقد أراد أن يكتب القرآن بشكل يضمن له زوال اللحن عنه ، وليس وضع هذه النقط التى هى علامات للاعراب الا محاولة لحمل الناس على قراءة صحيحة يستوى فى الاستفادة منها العربى وغير العربى.

ومرت الأعوام والناس يقرءون بهذا ولكن القرآن لم يسلم من التعرض للخطأ فقد هدده خطر جديد شاع بعدما استقرت الحياة وعاش الأجانب الى جانب العرب فى بيئة واحدة وحيّوا معهم حياة واحدة ، واذا استطاع العرب بسلائقهم أن يميزوا بين الحروف اذ كانت غير منقوطة مستعينين بدلالة القرائن وسياق القول فليس للا جانب هذه الملكة ، وشاع أمر هذا التصحيف حتى خشى أولو الأمر والعلماء أن يذهب بكتاب الله .

كان الحجاج اذ ذاك واليا على العراقين ، وكان من الولاة الذين استهوتهم سيرة زياد فأراد احتذاءه والتشبه به ، وقد وقف الحجاج على خطورة الحال فجمع كتّابه وأمرهم أن يعملوا شيئا يتلافون به حدوث شيء فى كتاب الله .

وفكر العلماء فى ذلك وكان من بينهم نصر بن عاصم الليثى أحد تلاميذ أبى الأسود ، وكان نصر بطل هذا الميدان فتوصل الى طريقة الاعجام التى تتميز بها الحروف الهجائية بعضها من بعض فقد رتب الحروف جماعات ووضع كل حرف الى جانب الحرف الذى يشبهه فى الصورة ، وميّز الحروف

---

(١) أخبار النحويين البصريين لابى سعيد السيرافى ص ١٦ (بيروت) .

المتشابهة بالنقط ، وخالف بين هذه النقط أفرادا وأزواجا ، وغاير بين مواضعها فوضع بعضها فوق الحرف وبعضها تحت الحرف وأتم هذه العملية التى سميت اعجاما .(٢)

وتعتمد هذه العملية على النقط أيضا ولكنها تختلف عن عمل أبى الأسود من حيث الغرض ، فعمل نصر يهدف الى تمييز الحروف المتشابهة فى الصورة ، وعمل أبى الأسود يهدف الى تمييز أجزاء الجملة ضما وفتحا وكسرا .

وعمل نصر هذا ـ كما يبدو لى ـ أساس لترتيب الحروف ترتيبا جديدا وهو : أ ب ت ث ج ح خ د ذ الخ...

(٢) انظر ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى فى وفيات الاعيان .

(١)

مدارس القرآن فى الكوفة

عنى المسلمون فى الأمصار باقراء القرآن ، يحدوهم الى ذلك غيرتهم على القرآن من جهة والأحاديث التى تحثهم على قراءته واقرائه من جهة أخرى .

وكانت الكوفة سباقة الى ذلك فقد عنيت منذ تمصيرها باقراء القرآن ورواية القراءات ، وقد جلس القراء فى مسجدها الجامع يلقنون تلاميذهم القراءات التى رووها باسانيدهم ، وكان أبو عبدالرحمن السلمى شيخ القراء فيها وأول من قعد للاقراء فى مسجدها ، وكان قد أخذ القـراءة عـن علىّ وعثمان وعبدالله بن مسعود وأبىّ بن كعب ورواها عنه الحسن والحسين ابنا على ، وعاصم بن أبى النجود .

وكان من شيوخ الاقراء فيها أيضا زرّ بن حبيش أحـد الأعـلام فى القراءة واللغة ، وعاصم بن أبى النّجود الذى أخذ القراءة عن أبى عبدالرحمن السلمى وزرّ بن حبيش وغيرهما .

وكان من شيوخ الاقراء فيها أيضا حمزة بن حبيب الزيّات أحد القراء السبعة ، وكان مقرئا حافظا للحديث بصيرا بالفرائض حتى قال له أبو حنيفة يوما : «شيئان غلبتّنا عليها لسنا ننازعك فيهما : القرآن والفرائض .»(١)

ومن هؤلاء الشيوخ وغيرهم تتكون مدرسة الاقراء فى الكوفة ، وهذه المدرسة وان ظلت قائمة خلال العصور ـ تعد بمثابة الاتجاه الأول الذى اتجهت اليه دراسة القرآن ، وهى مدرسة قائمة على الرواية والتلقين لاتكاد تتعداهما .

---

(١) غاية النهاية لابن الجزرى جـ١ ص ٢٦٣ .

وهناك في الكوفة طبقة من القراء لم يكتفوا بالتلقين بل عنوا بالجانب العملي من القرآن وهو الجانب الذى يعنى بالأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات ، وهذه الطبقة هى طبقة الفقهاء •

والكوفة منذ تمصيرها كانت موطن الفقه ومستقر الفقهاء ، نزل بها عدد كبير من الصحابة ، وتصدّر للفتيا بها علىّ بن أبى طالب وعبدالله بن مسعود وشريح القاضى وغيرهم •

ونشأ من تلاميذ هذه المدرسة فقهاء كان لهم نشاط ملحوظ فى الميدان العلمى وتركوا للناس مجموعة قيمة من الفتاوى فى مختلف الأحوال ، وفى مقدمة هؤلاء : عامر بن شراحيل الشعبى وسعيد بن جبير ، وقد كان هذان التابعيان زعيمى هذه المدرسة بعد على بن أبى طالب وعبدالله بن مسعود •

وجاء بعدهما محمد بن أبى ليلى وهو من أعلام الفقه والقضاء وكان مقرئا أيضا ولى القضاء لبنى أمية وبنى العباس وكان يفتى بالرأى • (٢)

والكوفة بهؤلاء ومن جاء بعدهم زعيمة أمصار العراق فى الفقه ، ومصدر المذهب الرسمى للدولة الاسلامية فى صدر الدولة العباسية •



وهناك فى الكوفة طبقة أخرى من القراء عنيت بالجانب اللفظى ، وعنى أصحابها وشيوخها باعراب القرآن ورواية اللغة لتصحيح القراءات ، وحاولوا التوفيق بين القراءات التى كانوا يروونها وقواعد الاعراب التى تعلموها فى مدارس البصرة التى سبقت الكوفة فى هذا الميدان بما يقرب من مائة عام •

ومن شيوخ هذه المدرسة :

على بن حمزة الكسائى : أحد القراء السبعة • انتهت اليه رياسة الاقراء بعد حمزة بن حبيب • كان قد أخذ القراءة عن ابن أبى ليلى وعيسى بن عمر

---

(٢) فهرست ابن النديم ص ٢٨٦ •

الهمـــداني ، وحمـزة بن حبيب • وأخذ اللغـة عـن أبي جعفـر الرواسي والخليل بن أحمد الفراهيدي •

كانت الحلقة التي تحيط به في مسجد الكوفة أكبر الحلقات وأكثرها طلابا ، وكان يجمع طلابه ويجلس على كرسي ثم يتلو عليهم القرآن «وهم يسمعون ويضبطون عنه» (٣)

ويحيي بن زياد الفرّاء : وكان من نحاة الكوفة وشيوخها في العربيـة كان ثعلب يقول : «لولا الفراء لسقطت العربية» (٤) •

يروي ابن النديم أنه قال لأصحابه :«اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن ، وجعل لهم يوما فلما حضروا خرج اليهم وكان في المسجد رجـل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة فالتفت اليه الفراء فقال له : اقرأ فاتحة الكتاب نفسرها ثم نوفي الكتاب كله ، فقرأ الرجل وجعل الفرّاء يفسر » (٥) •

ولم يكن الفرّاء مقرئا ولكن كان ممن عنوا بدراسة القرآن وتفسيره ، وكان قد ألفّ كتبا اثبتها ابن النديم وغيره ، منها كتاب معاني القرآن ، وكتاب المصادر في القرآن وكتاب الجمع والتثنية في القرآن •

وبالموازنة بينه وبين الكسائي نجد أن الكسائي كان مقرئا وكان نحويا لايغلب عليه أحد الوصفين ، وأن الفرّاء غلبت عليه الناحية اللغوية وان كانت له دراسات في القرآن •

والفرّاء من حيث تطور الدراسات القرآنية في الكوفة يمثل الدور الثاني لمدرسة الكسائي وهي المدرسة القرآنية الثالثة التي ظهرت في الكوفة وهي التي تعتمد على الاقراء والاعراب بمعناه الاصطلاعي •

---

(٣) النشر في القراءات العشر جـ١ ص ١٧٣ •

(٤) نزهة الالباء ص ١٢٧ •

(٥) فهرست ابن النديم ص ٩٩ •

(٢)

مدارس القرآن فى البصرة

أما أهل البصرة فلم يكن اهتمامهم بالقرآن أقل اهتمام أهل الكوفة به فقد أقبلوا عليه يقرءونه ، وتألفت فى مساجدها حلقات الاقراء وامتلأت المساجد بشيوخ القراءة وطلابها كما كانت الحال فى الكوفة •

وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن فيها [١] • وكان عبدالله بن عباس يعتلى المنبر ثم يقرأ القرآن ويفسره ويحدث الناس بالأحاديث التى سمعها ، وكان له تلاميذ أخذوا عنه القراءة والتفسير والفقه والحديث • ومنهم تابعيان مشهوران هما أبو الاسود الدؤلى وسعيد بن جبير ، فنشأت اذ ذاك مدرسة قرآنية لم تقتصر على العناية بما عنى به القراء من اقراء وتلقين ، وانما عنيت بشىء آخر أهم من ذلك هو فقه القرآن ومعرفة أحكامه والنظم الاجتماعية التى يرمى الى تحقيقها ، وهى المدرسة الفقهية التى شاهدنا قيام نظيرتها فى الكوفة •

سارت هذه المدرسة على ذلك المنوال ، وزادت فيه أخيرا أشياء أخرى ، ومن أجل أن البصرة بيئة معقدة فيها مذاهب دينية مختلفة ، وفيها عناصر وثقافات متباينة كان لمدرستها الفقهية طابع خاص هو أثر من آثار الامتزاج بين الثقافات والعقليات •

وأكبر الظن أن لوجود عبدالله بن عباس وقراءته القرآن على المستمعين

(١) البيان والتبيين جـ١ ص ٣٤٥ •

وتفسيره آية آية أثرا فى هذا الاتجاه أيضا . وكان الحسن البصرى يصفه فيقول : «كان والله مثلجًا يسيل غربا» (٢) .

ولاشك أن عبدالله بن عباس وغيره من المفسرين كانوا يعرضون للآيات التى تتناول الخير والشر وفاعلهما ، وموقفه من الخالق ، وللآيات التى تعرض للمؤمن والكافر والفاسق والمنافق ، وللآيات التى تعرض للقضاء والقدر، والتى تعرض للخالق والمخلوق ولمناشدة الانسان أن يفكر فى السماوات والأرض وفى نفسه ليقف على قدرة خالقه ، فيدلون بآرائهم وفق ماتسمح به ثقافاتهم .

ولما تمّ الاندماج الفكرى وامتزجت الثقافات وظهرت الأهواء وتنوعت النزعات كانت هذه المدرسة قد أخذت تعدّ العدّة للوقوف أمامها ، فأخذت تلمّ بالنزعات ، وتستمع الى الآراء وترد عليها بما وقفت عليه فى كتاب الله وتشهر عليها السلاح الذى تسلحت به نفسه وهو المنطق والجدل اللذين تسربا الى العقلية البصرية .

وكان الحسن البصرى زعيم هذه المدرسة ، كان له مجلس يعظ ويقصّ فيه ، وكان يجلس الى مجلسه ناس كثيرون لهم ميول مختلفة وأهواء متباينة ، وكان يحتاج فى اقناع هؤلاء جميعا الى ثروة بيانية ، والى قوة فى الفصاحة ليستطيع التأثير فيمن يحاوره ويجادله .... وهكذا كان الحسن البصرى ، قوى الحجة فصيح اللسان ، خطيبا لايشق له غبار ، وكان الحجاج يشهد له بالفصاحة والبلاغة فكان يقول : «أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة اذا شاء خطب واذا شاء سكت» . (٣) ، وكان الحسن من

(٢) البيان والتبيين جـ١ ص ٣١٧ . المثج : الخطيب المفوه ، والغرب : الماء يقطر من الدلو بين الحوض والبئر . «القاموس المحيط للفيروزابادى» .
(٣) البيان والتبيين جـ١ ص ٣٧٥ .

الغزارة فى العلم والفقه بحيث اذا ذكرت البصرة قيل : «شيخها الحسن» .(٤)

ولمجالس القصاصين أثر كبير فى توجيه الناس الى هذا الاتجاه الجديد وهو النظر فى الخالق وعلاقة المخلوق به ، فقد كان الفضل بن عيسى الرقاشى من أخطب الناس وكان كما قال الجاحظ : متكلما وكان قاصّا مجيدا ، وقد استمع اليه كثير من الفقهاء ورجال برزوا فيما بعد بآرائهم الكلامية كعمرو ابن عبيد وهو أحد شيوخ المعتزلة .

والفضل هو الذى كان يقول فى قصصه : «سل الأرض فقل من شقّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا» (٥) .

وكان لمشاهدة الحسن كثيرا من الصحابة وسماعه منهم وتلمذته لعبدالله ابن عباس أثر فى تكوينه العلمى ، فقد اهتم بدراسة القرآن اهتماما عظيما وسمع منه القراءة كثير من الأعلام منهم عيسى بن عمر الثقفى ، ولم يكتف بقراءة القرآن واقرائه بل كان يعنى بالتفسير عناية كبيرة ، وكان لهذا يعدّ افقه أهل زمانه وأخبرهم بكتاب الله . وكان وهو ابن اثنتى عشرة سنة «قد جمع القرآن ثم لم يخرج من سورة الى غيرها حتى يعرف تأويلها وفيما أنزلت .» (٦)

ونشأت عن مدرسة القراءة والتفسير مدرسة قرآنية جديدة لم تعتمد على التلقين والتلقى حسب وانما تعتمد على شىء آخر هو الاعراب وهو تصحيح أواخر الكلم بالنقط ، وكان أبو الأسود الدؤلى زعيم هذه المدرسة .

كان الجاحظ يقول فى أبى الأسود : «أبو الأسود معدود فى طبقات من

---

(٤) البيان والتبيين جـ١ ص ١١٤ .

(٥) البيان والتبيين جـ١ ص ٢٩٦ .

(٦) شذرات الذهب لابن العماد «حوادث سنة عشر ومائة» .

الناس وهو فى كلها مقدم ، مأثور عنه الفضل فى جميعها ، كان معدودا فى التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين الخ..» (٧) .

كان أبو الأسود ـ كما قال الجاحظ ـ من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم وكان قد استعمل على البصرة فى خلافة علىّ نائبا عن ابن عباس فله اذن معرفة بالادارة والحكم ، ومن شأن هذه المعرفة أن تكون له عقلية ادارية منظمة . هذا بالاضافة الى علمه وسعة اطلاعه ، فليس غريبا اذن أن يركن اليه زياد مع ما بينهما من جفاء .

ولكننا مع ذلك لانرى ماقام به أبو الأسود من النحو الاصطلاحى فى شىء وان كانت له صلة به ، ولا نرى رأى كثير من القدماء من أن أبا الأسود هو واضع علم النحو لأن النحو لم يضعه واحد بعينه وانما هو من عمل الجماعات وقد نشأ بالتدريج تمشيا مع سنة الحياة فى النشوء والارتقاء ومع حاجة المتعلمين الى ما يصون ألسنتهم من لحن نشأ بتلاقى اللغات واختلاط المتكلمين بها فى بيئة واحدة .

أما ماقيل من أن أبا الأسود وضع باب التعجب فيستند الى ما يروى عن ابنه أبى حرب أنه قال : «أول باب وضعه أبى من النحو التعجب» (٨) ، والى ماقيل من أن ابنته قالت له يوما : يا أبت ما أحسنُ السماءِ قال : نجومها . قالت: لم أرد أى شىء منها أحسن انما تعجبت من حسنها . قال : اذن فقولى : ما أحسنَ السماءَ . قال السيرافى فحينئذ وضع كتابا (٩).

وهذا بالاضافة الى مايحوطه من ريبة اذا دل على شىء فانما يدل على أن أبا الأسود قد تنبه سليقة الى الفرق بين قول القائل : ما أحسنُ السماءِ وقوله : ما أحسنَ السماءَ ، لأن مثل هذه التفرقة لاتصعب على مثل أبى الأسود .

---

(٧) الاغانى ج١١ ص ١٠٢ (ساسى) .
(٨) المصدر السابق .
(٩) أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص١٩ .

ومهما يكن من أمر فأبو الأسود هو أستاذ هذه المدرسة القرآنية التى يمكن ايجاز القول فى خصائصها : بأنها مدرسة تعتمد على الاقراء والاعراب جميعا ٠



وتألفت من تلاميذ أبى الأسود نصر بن عاصم وعنبسة الفيل ويحيى بن يعمر وميمون الأقرن وأبى حرب بن أبى الأسود مدرسة قرآنية أخـرى ، وأبرز هؤلاء التلاميذ ممن كان له نشاط معروف فى العمل القرآنى نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ٠

وقد سبق أن أخذنا برواية ابن خلكان ورجحنا أن يكون نصر بن عاصم هو الذى قام بوضع الاعجام للحروف الهجائية بطلب من الحجاج فقد خيف على القرآن من خطر التصحيف ٠

هذه المدرسة لم تقتصر على الاقراء كما كان شأن القراء قبل أبى الأسود ولم تكتف بما قام به أبو الأسود من اعراب لأن عمل أبى الأسود اذا نجح فى دفع خطر اللحن عن القرآن لم يكن ليكفى فى دفع خطر التصحيف الذى قيل انه شاع أخيرا فى العراق فى عهد الحجاج ٠ (١٠)

بل عنيت هذه المدرسة بالاضافة الى ذلك بتمييز الحروف بعضها مـن بعض وبالتفرقة بين صور الباء والتاء والثاء مثلا ٠ والاعجام الذى وضعه نصر كفيل بهذا التمييز المطلوب ، واذا كان العرب يفرقون بينها بسلائقهـم فليس للأعاجم تلك السلائق ولا تلك القدرة على فهم المعانى بدلالة السياق ٠

فالأعمال التى قامت بها هذه المدرسة القرآنية هى الاقراء والاعـــراب والاعجام ، وعد رجال هذه المدرسة من النحويين متجوز فيه ، وغاية القول أن لعمل هؤلاء صلة بعمل النحاة ٠

---

(١٠) وفيات الاعيان لابن خلكان ــ ترجمة الحجاج ٠

وهناك أخبار يتناقلها الأقدمون وينسبونها الى يحيى بن يعمر تدل على أن يحيى قد عرض لبعض مسائل النحو مما قيل ان الحجاج سأله يوما عما اذا كان يلحن فقال «الأمير أفصح من ذلك • فقال : عزمت عليك أتجدني ألحن ؟ فقال يحيى نعم • فقال له : في أي شيء ؟ فقال : في كتاب الله • فقال : ذلك أشنع ففي أي شيء من كتاب الله ؟ قال : قرأت : «قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ» فرفعت أحب وهو منصوب» •(١١)

ومما قيل من أن الحجاج سأله أيضا فقال له يحيى : انك تلحن لحنا خفيا تزيد حرفا أو تنقص حرفا وتجعل أن في موضع ان •(١٢)

اذا صحت الروايتان فليس فيهما دلالة على أن يحيى كان نحويا ، وكل ما هنالك أن يحيى بتضلعه في اللغة ووقوفه على غريبها كما عرف عنه ، وبكونه ممن عنى بالعمل القرآني اعرابا واعجاما قد التفت الى أشياء يمكن ارجاعها الى العمل النحوي ولكن لاعلى أنها من النحو فليس بعيدا أن يعرف يحيى أن (أحب) منصوبة لا مرفوعة وهو من المقرئين ، وليس بعيدا أن يفرق بين مواضع كسر الهمزة وفتحها •

ونحن نرجح أن يكون عده من النحويين يرجع الى ما عرف عنه من أنه أعرب مصحفا لمحمد بن سيرين (١٣) ، وليس رسم علامات الاعراب من النحو الاصطلاحي الذي نعرفه في شيء •

وجاء بعد هؤلاء رجال كانوا أكثر توغلا في البحوث اللغوية ممن سبقهم لأن الزمن قد امتد بالناس والمجتمع العربي أخذ يتوغل في الحضارة ويمتزج

---

(١١) نزهة الالباء ص ١٩ •• أخبار النحويين البصريين ص ٢٣ •
(١٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٤٢ •
(١٣) المقنع لابي عمرو الداني ص ١٢٥ •

بالعناصر الأخرى التى بدأت تتبادل معه ما ورثته ، والعقلية العربية أخذت تتلقح بشىء من الأفكار الأجنبية •

والبارزون من رجال هذه المدرسة هم عبدالله بن أبى اسحاق وعيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، ومرجع هؤلاء جميعا أبو الأسود ، وعنه أخذوا القراءة والاعراب ، فعبدالله بن أبى اسحاق أخذ القراءة عن يحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم وقد أخذاها عن أبى الأسود [١٤] • وعيسى بن عمر أخذ القراءة عن عبدالله بن أبى اسحاق وأبى عمرو بن العلاء [١٥] وأبو عمرو ابن العلاء وهو أحد القراء السبعة أخذ القراءة عن عبدالله بن أبى اسحاق ويحيى بن يعمر عن أبى الأسود من البصريين • وأخذها من غير البصريين عن ناس آخرين كوفيين ومكيّين ومدنيّين • [١٦]

لم يقتصر عمل هؤلاء على الاقراء والاعراب والاعجام بل اتجهوا وجهة جديدة فى البحث اللغوى والرواية الأدبية يدعمون بها عملهم القرآنى •

ولم يكن اتجاه هذه المدرسة الى البحث اللغوى والرواية الأدبية عن رغبة فى الاشتغال بعمل جديد ، ولاعن نية فى التحلل من العمل القرآنى فرجالها جميعا قد عنوا بالقراءة والاقراء •

فأما عبدالله بن أبى اسحاق فلم تنفرد العربية بعنايته بل كان جانب القراءة والاقراء بارزا فى حياته العلمية ، ولكنه مع ذلك كان من أئمة العربية وكان يقدم على أبى عمرو فى النحو •

قال الخليل : «كان عبدالله يقدم على أبى عمرو فى النحو ، وأبو عمرو يقدم عليه فى اللغة •»[١٧]

---

(١٤) غاية النهاية لابن الجزرى جـ١ ص ٤١٠ •
(١٥) غاية النهاية لابن الجزرى جـ١ ص ٢٨٩ •
(١٦) التيسير لابى عمرو الدانى ص ٨ •
(١٧) المزهر جـ٢ ص ٢٤٧ •

وقال ابن الأنبارى : «كان قيما بالعربية والقراءة اماما فيهما ، وكان شديد التجريد للقياس ، ويقال انه كان أشد تجريدا للقياس من أبى عمرو ، وكان أبو عمرو يقدم عليه فى اللغة •» [١٨]

وقال السيرافى مثل ذلك فى أخبار النحويين ، وذكر أن بلال بن أبى بردة ــ وكان واليا على البصرة ــ قد جمع بينهما للمناظرة فتساءلا فى حضرته فغلب ابن أبى اسحاق أبا عمرو فى مسألة الهمز كما تحدث أبو عمرو عن نفسه[١٩] •

وقد شاع عند القدماء أن ابن أبى اسحاق كان شديد التجريد للقياس والتخريج للعلل ، ولعله كان كما قالوا ولكننا لم نقف على أقوال تؤيد ذلك فهذا كتاب سيبويه وهو أقدم كتاب فى النحو لم يرو عنه الا مسائل معدودات لايكاد يتجاوز عددها ستا • نعم له مجادلات مع الفرزدق نجد فيها لمحات تنم على ذلك • منها ماعابه على الفرزدق من قوله :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى مواليا

وقد قال له : «كان ينبغى أن تقول مولى موال» [٢٠] وهو فى اعتراضه على الفرزدق قاس (موالى) على جوار وغواس مما هو على وزن فواعل معتل اللام وجمهور العرب ينونه بعد حذف الياء •

وله كلام فى الهمز كما روى السيرافى وابن الأنبارى عن أبى عمرو ، ولكن كلامه لم يكن واسع المدى وقياسه لم يكن واضح التقاسيم كالقياس عند الخليل وسيبويه •

يؤيد ما ذهبنا اليه ماقاله يونس بن حبيب وقد سئل عنه : «هو والبحر

---

(١٨) نزهة الالباء ص ٢٢ •
(١٩) أخبار النحو يين البصريين ص ٢٥ ، ٢٦ •
(٢٠) نزهة الالباء ص ٢٤ •

سواء ، لو كان فى الناس من لايعلم الا علمه لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ونظره لكان أعلم الناس .» (٢١)

وأما عيسى بن عمر فقد كان من ثقات القوم فى الرواية ومن علمائهم بالقراءة والعربية ، وله قراءة معروفة ، وكان معاصرا لعبدالله بن أبى اسحاق وأبى عمرو بن العلاء .

قالوا كان لعيسى بن عمر كتابان يسمى أحدهما الجامع ويسمى الثانى الاكمال أو المكمل ،وقد أشار الخليل كما روى عنه بقوله :

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك اكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وقد عرض السيرافى وابن النديم لقصة هذين الكتابين ولكنهما – كما قالا – سمعا عنهما ولم يرياهما بل لم يسمعا أن احدا رآهما .(٢٢)

وكان عيسى بن عمر استاذا للخليل واستاذا لسيبويه ايضا ، يروى ابن خلكان أن كتاب الجامع كان عند سيبويه ودرسه على الخليل وحشاه بكلامه فكان من هذا و ذاك كتابه المعروف(٢٣) .

ولكننا اذا رجعنا الى كتاب سيبويه وجدناه يروى لعيسى بن عمر اقوالا كما يروى لغيره من شيوخه ، ووجدنا ما يرويه لعيسى بن عمر بعضه يتعلق بالرواية وبعضه يتعلق بالقراءة ، وما كان منه فى النحو قليل لايؤيد ما رواه ابن خلكان كالذى جاء فى ص ٢٢٨ ، ٢٧٢ ، ٣١٣ من الجزء الاول وفى ص ٧ ، ٢٣ ، ١٣٢ من الجزء الثانى .

---

(٢١) انباه الرواه على أنباه النحاه جـ١ ص ٤١٨ «نسخة مخطوطة بدار الكتب» .
(٢٢) اخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٣١ . فهرست ابن النديم ص٦٣ .
(٢٣) وفيات الاعيان لابن خلكان جـ١ ص ٥٤٨ (طبع باريس) .

نعم كان عيسى بن عمر احد رجال المدرسة النحوية الاولى ، وله كما لصاحبه عبدالله بن أبى اسحاق شأن فى اصطناع القياس فى الدراسة النحوية، وقد سئل عبدالله بن أبى اسحاق يوما : أتقول العرب : السقر فاجاب نعم والزقر أيضا ، مالك ولهذا ؟! عليك بباب من النحو يطرد وينقاس (٢٤) .

وأورد له سيبويه فى كتابه مسائل بنى حكمها على القيــاس من ذلك قياسه صرف (عمرو) اسم امرأة على صرف هند ودعد لخفة بنــائه (٢٥) . وقياسه نصب (مطرا) فى قول الشاعر :

سلام الله يا مطرا عليها   وليس عليك يامطر السلام

على نصب (يا رجلا) يجعــله اذا نون وطال كالنــكرة . قال سيبويه : «لم نسمع عربيا يقوله ، وله وجه من القياس .» (٢٦)

وأما أبو عمرو بن العلاء فقد كان من القراء السبعة وقد شاعت قراءته وكان كما يقول ابن الجزرى : «أعلم الناس بالقرآن والعربية مع الصــدق والثقة والأمانة والدين . مرّ الحسن البصرى به وحلقته متوافرة والنــاس عكوف عليه فقال : لا اله الاّ الله . لقد كاد العلماء أن يكونوا أربابا . كل عزّ لم يوطد بعلم فالى ذلّ يئول .» (٢٧)

ومقامه فى الرواية الأدبية أظهر من أن يحتاج الى شرح ، وكتب الأدب عامرة بالرواية عنه ، وله أقوال فى العربيّة تتصل بالنحو كما روى له سيبويه فى كتابه ، وان كان أكثر ما رواه عنه يتصل بالقراءة والرواية .(٢٨)

---

(٢٤) طبقات الشعراء لابن سلام .
(٢٥) الكتاب جـ٢ ص ٢٣ .
(٢٦) الكتاب جـ١ ص ٣١٣ .
(٢٧) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى جـ١ ص ١٣٣ .
(٢٨) انظر ص ٢٠١ ، ٢٥٣ ، ٣١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥٣ ، ٤٤٦ من الجزء الاول من الكتاب .

والحق أن لرجال هذه المدرسة أقوالا هى من صميم النحو ولكنها ليست من السعة والدقة بحيث نعدهم نحويين متخصصين ، وكانوا مقرئين ومعربين ومعجمين وكانوا أيضا نحويين ولكن بصورة محدودة ، وقد مهّدو لظهـور النحو فى صورته الكاملة .



ونشأت بعد هذه المدرسة التى عددناها المدرسة النحوية الاولى ، مدرسة جديدة فقد تقدم الزمن خطوات الى الأمام وأخذت الحياة تتعقد اجتماعيـا وثقافيا وسياسيا ، وسارت الحضارة بالناس فى أواخر العهد الأموى وأوائل العهد العباسى شوطا بعيدا ، وخاصة بعد استقدام الجيوش الخراسانية واحتلالها الأمصار وبعد أن تسلم العنصر الفارسى كثيرا من المناصب العليا التى كانت وقفا على الأمصار وبعد أن تسلم العنصر الفارسى كثيرا من المناصب العليا التى كانت وقفا على العرب .

لقد أدخل الفرس كثيرا مما ألفوه فى عهد أكاسرتهم سواء أكان متصلا بالادارة والسياسة أم بالثقافة ، وكان تراثهم ملقحا باليونانية لأن اليونان ـ كما سبقت الاشارة اليه ـ كانوا قد غلبوا على هذه البلاد قرونا واستوطنوها وأسسوا فيها مدنا وقرى ، واستوطن معهم ما نقلوه من فنّ يونانى وفلسفة يونانية . وكان ملقحا بالهندية أيضا فقد كان للفرس مع الهند صلات تجارية وثقافية .

فلما وصل الفرس الى مراكزهم الجديدة أخذوا فى احياء تراثهم وهو تراث مزيج من عقليات مختلفة فترجمت الكتب وظهر أدباء فرس كانوا قد تعلموا العربية وأتقنوها ، ونقلوا الى العربية كل ماعرفوه واستطاعوا نقله ، واستتبع هذا أن أصبح العنصر الفارسى يقول بحرية ويعمل بحرية ، وأخذ يصارع العنصر العربى لاسترداد ما أخذه منه فسعى لاحياء تراثه ومشاركته فى مناصب الدولة ، وشهدت هذه الفترة صراعا قوميا بدأ متسترا ثم أخذ يسفر عن وجهه شيئا فشيئا .

وصراعا آخر ، وهو صراع بين أصحاب المذاهب الدينية التى كانت أخذت تظهر منذ العصر الاموى كالخارجية والتشيع والكيسانية والمرجئة والمعتزلة ، وكان أصحاب هذه المذاهب يتناقشون ويتجادلون ، وبرز من بينهم المعتزلة الذين كانوا يمثلون العنصر القوى النشيط ، وكانوا قد عنوا بالأدب واللغة ليدعموا حججهم بالأسلوب البيانى القويم ، كما راحوا يلتمسون قواعد المنطق ليساعدهم على تقوية حججهم فى افحام خصومهم •

كان بين رجال هذه المدرسة التى نتحدث عنها من اعتنق التشيع ومن اعتنق الاعتزال ، وقد مهّد الشيعة والمعتزلة السبيل للفلسفة يؤيدون بها مباحثهم ومذاهبهم •

وبرز بين هؤلاء :

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدى الذى يعد فى رأينا المؤسس الأول لأصول هذه المدرسة •

(٢) ويونس بن حبيب الذى خلّف لنا بالاشتراك مع الخليل هذا العلم الذى نسميه نحوا •

(٣) وسيبويه وقد خلف وراءه كتابا هو الأول من نوعه فى هذا العلم ، وعامة الحكاية فيه عن الخليل ، بل لانتعدى الصواب اذا قلنا ان الخليل هو مرجع كتابه ، وأن ما صرح به من نقول عن الخليل انما هو لوضع أسس الأبواب التى يبحث فيها ، ولا نتعدى الصواب اذا ذهبنا الى أن كثيرا من نحو الخليل دوّن فى الكتاب دون أن يشير سيبويه الى أنه من رأى الخليل وقوله كما كان فى باب الادغام فقد سبقت للخليل فى غير هذا الباب أقوال نقلها سيبويه فلما جاء الى باب الادغام سكت عن أن يشير الى أنها من قول الخليل ومذهبه ، ولعله كان يعتمد على هذه النقول التى ذكرها فى فصول سابقة ، ومعرفة القارىء بها •

رجال هذه المدرسة يمثلون الزمن الذى عاشوا فيه تمثيلا صادقا فقد نشئوا فى وسط هذه البيئة الجديدة وخاضوا عباب هذه التيارات المعقدة ، واضطروا الى الاستفادة من هؤلاء وهؤلاء فاقتبسوا منهم جميعا ما يتفق مع طبيعة عملهم •

وكان الخليل نفسه من أصحاب الكلام كما يأتى بيانه فى الفصل الآتى • وهو صديق لعبدالله بن المقفع الفارسى الذى كان ملمّا بالثقافة الفارسية الملونة بالثقافة اليونانية •

لقد امتازت هذه المدرسة :

(١) بأنها مدرسة لغوية نحوية عنيت بالدراسة اللغوية النحوية عناية خاصة وأخذت تهتم باللغة لذاتها لا لأنها أداة للعمل القرآنى •

(٢) وبأنها اتخذت من القياس والتعليل أصلا من أصول عملها اللغوى •

(٣) وبأنها عنيت بالعقل وأحكامه عناية خاصة ، ولهذا نراها تهتم بالقواعد والأصول العامة وتغفل الشواذ التى لاتنطبق عليها تلك القواعد والأصول •

وليس القياس والتعليل شيئا جديدا على الدراسة اللغوية فقد سبقت اليهما مدرسة عبدالله بن أبى اسحاق وعيسى بن عمر الثقفى ، ولكن رجال هذه المدرسة توسعوا فى القياس حتى اعتقد الكثير منهم أن النحو كله مبنى على القياس ، فهذا الكسائى وهو أحد من تخرج فى هذه المدرسة يقول :

انما النحو قياس يتبع   وبه فى كل علم ينتفع (٢٩)

---

(٢٩) بقية الرعاة للسيوطى ص ٣٣٧ •

وهذا ابن الأنبارى يقول فى أصوله ـ كما يروى السيوطى عنه ـ : «ان انكار القياس فى النحو لايتحقق لأن النحو كله قياس ولهذا قيل فى حدّه : النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب ، فمن أنكر القياس فقد أنكر النحو .» (٣٠)

وأصبح النحاة المتأخرون ينظرون فى قياسهم الى أعمال الفقهاء أصحاب القياس واذا تصفحت خصائص ابن جنّى واقتراح السيوطى وجدت نفسك ازاء مباحث فقهية أصولية .

ومع تخصص رجال هذه المدرسة فى الجانب اللغوى فان للخليل بن أحمد وهو زعيم هذه المدرسة عملا يعدّ متمما للعمل القرآنى الذى بدأه أبو الأسود ، فقد كتب المصحف ونقطه وأعربه ، ولكنّه حوّر شيئا فى الطريقة فقد رمز للفتحة بألف صغيرة مائلة توضع فوق الحرف ، وللضمة بواو صغيرة توضع فوق الحرف ، وللكسرة بياء راجعة استغنى أخيرا عن أحد شقيها توضع تحت الحرف . (٣١)

ان رمزه للفتحة بألف وللضمة بواو وللكسرة بياء يرجع الى رأيه أن الفتحة ليست الا ألفا قصيرة ، والضمة ليست الا واوا قصيرة والكسرة ليست الا ياء قصيرة ، وقد ألحقت بأصول الكلمات للاستعانة بها على النطق بهذه الأصول لأنها سواكن ، وقد نقل سيبويه رأيه هذا فقال : «زعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهنّ يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به .»(٣٢)

---

(٣٠) الاقتراح للسيوطى ص ٣٨ .
(٣١) احياء النحو ص ٨١ .
(٣٢) الكتاب جـ٢ ص ٣١٥ .

وضع الخليل علامات أخرى لم يسبق الى وضعها كما روى أبو عمرو الدانى من أن الخليل بن أحمد هو الذى جعل الهمز والتشـــديد والروم والاشمام ٠(٣٣)

ولكن هذا العمل لم يكن وحده الذى عرف به الخليل فقد عرف بأعمال أخرى غلبت عليه ، بل لم يكن العمل القرآنى شيئا مذكورا الى جانب أعماله الأخرى ٠

وقد تأثر رجال هذه المدرسة بمنهج أصحاب الكلام وبنوا عليه عملهـم اللغوى ، وقد كان أصحاب الكلام قد نهجوا منهجا جديدا ، كانوا يعتدون بالأحكام العقلية العامة اعتدادا عظيما ، وكانوا لهذا لايعنون بالجزئيات لذاتها لأنها لاتغنى فى تكوين أحكام عقلية ٠

وهذا هو مفترق الطرق الذى باعد بين المعتزلة والمحدثين وجعل المعتزلة يسلكون سبيلا والمحدثين يسلكون سبيلا أخرى ٠

وبتأثر النحاة البصريين بمنهج أصحاب الكلام تباعدت وجهات النظـر بينهم وبين نحاة الكوفة ، فقد كانت الكوفة مستقر المحدثين ومهبط الصحابة والتابعين ، وكانت تعنى بالأحاديث وتعتد بأخبار الآحاد لأنها السبيل الوحيدة للوقوف على أقوال النبى وأفعاله ولم يكن لديهم سبيل أخرى غير المشافهـة والمناقلة ٠

وقد تأثر دارسو النحو فى الكوفة بهذا الاتجاه الأخبارى فعنوا بالأخبار الجزئية فى استخراج الأحكام النحوية ، وترخصوا فى أمور كثيرة تشذ عن القياس ، واعتدوا بالشواذ اذا وصلت اليهم عن طريق الثقات ٠

أما نحاة البصرة فكانوا قد تأثروا بالبيئة البصرية التى كان المعتـــزلة

---

(٣٣) المقنع لابى عمرو الدانى ص ١٢٥ ٠

يتزعمون فيها الحركة الفكرية فنهجوا نهج المعتزلة وتأثروا بهم فى الاعتداد بالعقل وطرح كل ما يتعارض معه فأهملوا الشواذ فى اللغة ولم يعتدوا بأخبار الآحاد التى لاينطبق عليها ماوضعوا من أصول وأهدروها وقالوا عنها انها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها اذا عدموا الحيلة فى تأولها وادخالها فى أصولهم ، ولهذا سمى نحاة البصرة أهل المنطق •

ومن هنا احتدم النزاع بينهم وبين القراء من جهة ، وبينهم وبين نحاة الكوفة الذين احتذوا القراء والمحدّثين من جهة أخرى •



وبعد الوقوف على هذا الفصل يمكننا أن نسجل النتائج الآتية :ـ

(١) أن الفكرة فى حفظ القرآن من اللحن والتصحيف والضياع كانت من عمل الدولة فى مختلف الأزمنة ، فقد فكّر فيها عمر بن الخطاب وأشار على أبى بكر أن يقوم بتأييدها وتحقيقها ، ووافق أبو بكر بعد تردّد، ثم عمل عثمان على توحيد نصّه •

ولما لم تكن تلك التدابير كافية لحفظ القرآن وصيانته جاء زياد فعمل على اعرابه ، ثم جاء الحجاج فعمل على اعجامه ، وبهـذا تمت العمليات اللازمة لحفظ القرآن •

(٢) ولم يقم بتلك الاعمال رجال الدولة أنفسهم وانما ندبوا لها العلماء لأنها أعمالهم وفى نطاق تخصّصهم فهم الذين حفظوا القرآن عن النبى ، وهم الذين نسخوه ، وهم الذين ضبطوه وأعربوه ، وأخيرا هم الذين أعجموه •

(٣) ولم يقف العلماء عندما أرادت الدولة من ضبط القرآن بل مضوا فى دراسته وفقه منهجه ، وراحت كل طائفة منهم تتجه اتجاها خاصا

في دراسته ، فنشأت طائفة اتجه نشاطها الى تصحيح متن القرآن عن طريق الرواية وهى طائفة القراء •

وطائفة راحت تدرس القرآن لتفهم الأحكام التى تضمنها مما هو لازم لبناء المجتمع وهى طائفة الفقهاء • ونشأت عن هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت تدرس القرآن لتفهم العقائد وأصولها ، والمذاهب الاجتماعية ، وهى مدرسة الحسن البصرى التى نشأت عنها طائفة المعتزلة •

وطائفة اتجهت اتجاها لغويا ووسعت الكلام فى علل التأليف أو علل الاعراب وهى طائفة النحاة ، ثم جاء الخليل بن أحمد فقام بعبء هذا العمل ووسع الكلام فيه •

فقد كان النحو اذن عملا خالصا استبد به العلماء عن استقلال لا عن استجابة للأمراء ، حتى ان الضبط والاعراب الذى أحدثه الخليل كان عملا علميا خالصا وكان فى الوقت ذاته محققا لأغراض الدولة •

(٤) أن النحو وليد التفكير فى القرآن لأن العلماء لم يفكروا ابتداء فى وضع علم يبحث فى علل التأليف والاعراب ولكنهم توصلوا الى ذلك بعد أن نضجت الفكرة فى أثناء قيامهم بعملهم القرآنى •

وساعد على انمائه حاجة الشعوب الداخلة فى حكم الدولة العربية الى معرفة لغة الدولة والى حياة السلام فى ظلها ، وقد وجدت هذه الشعوب فى هذه الدراسة التى ابتدأت بعمل أبى الأسود ما يحقق لها معرفة هذه اللغة والرغبة فى حياة آمنة •

الفصل الثانى

الخليل بن أحمد الفراهيدى

من أحب أن ينظر الى رجل
خلق من الذهب والمسك فلينظر الى
الخليل بن أحمد .

(سفيان الثورى)

(١)

سـيرته

لابد للمؤرخ الذى يؤرخ للحياة العقلية ، أو لجانب من جوانبها أن يعرض لدراسة الرجال الذين شاركوا فى انماء هذه الحياة بما قدموا للانسانية من نتاج عقلى . ودراسة هؤلاء دراسة لنقط الارتكاز التى يعتمد عليها التاريخ فى أشواطه ، ودراسة لينابيع الحياة التى تستقى منها الحياة العقلية نشاطها وقوتها .

والخليل مثل رائع من هذه الأمثلة التى كان لصنيعها أثر ملموس فى الحياة العقلية العربية الاسلامية ، فقد امتد نبوغه الى موضوعات ثقافية عدّة فبرز فيها ، وكان له فيها أثر الخلق والابداع .

والدارس الذى يعرض لسير اللغة والنحو لابد أن يمر فى طريق بحثه بشخصية الخليل اللامعة التى كان لها أثر واضح فى تنشئهما ورسم المنهج لدراستهما ، وأن يقف عليها لتسجيل آثارها والبحث فى نواحيها المختلفة عقلية وخلقية ، والعوامل التى تركت آثارها فيها ، والمجتمع الذى نفخ فيها فهداها الى شق طريقها ولوّنها بطابعه الخاص .

ومما يدعو الى الأسف أن كثيرا من جوانب شخصية الخليل مجهول لدى الباحث ، فلم يكد يعرف عنه الا جانبا من حياته العقلية ، يوم أن عرف أستاذا من أساتذة البصرة وشيخا من شيوخ العلم فيها ، وهى فترة لايمكن تجاهلها ، ولا يسع التاريخ أن يمر عليها دون أن يقف عندها طويلا •

ولم نكد نعرف عن نشأته الا أنه ولد سنة مائة للهجرة وتوفى سنة سبعين ومائة أو سنة خمس وسبعين ومائة ، والا اخبارا متفرقة من هنا وهناك، أمّا كيف نشأ ، وكيف قضى فترة صباه ، ومتى بدأ تعلمه ، وكيف تدرج فى حياته العلمية ، فهذه أسئلة لم يستطع الباحث الاجابة عنها لأن التاريخ نفسه لم يستطع الاحاطة بها حتى الآن •

أكبر الظن أن هناك عوامل اصطلحت على الخليل فحدّت من شهرته ووقوف الناس على دقائق حياته ، ومن هذه العوامل مايتصل بالسياسة ، ومنها مايتصل بالمجتمع •

أمّا الألى فهى الخارجية التى نشأ عليها كما سيأتى الكلام عليها ، والخوارج كانوا يومئذ من العناصر المناوئة للسياسة القائمة ، وقد اضطهدها الحكم القائم وتجنبها الناس الممالئون له •

فاذا أضيف الى ذلك تشيّعه الذى سنتحدث عنه قويت عوامل اعتزاله عن الناس واعتزال الناس عنه ، فقد حورب الشيعة فى العصر الأموى وحوربوا بعدما انقلب العباسيون عليهم •

وأمّا الثانية فان التفاتة الناس الى شخصية من الشخصيات واهتمامهم بها واشادتهم بذكرها تقوم فى أكثر الأحيان على أساس مادى ، أعنى على مدى ما وصل اليه من مركز اجتماعى يخافه الناس أو يرجونه ، والخليل بما نشأ عليه من ورع ودين وزهد وتعفف ، وعكوف على طلب العلم لم يعبأ بهذه الحياة المادية ، ولم تخدعه عن حياته المفضلة هذه المناصب البراقة التى

بهرت الناس واستطاع أن يصل اليها تلاميذه الذين هم دونه فضلا وعلما ، وقد أشار تلميذه النضر بن شميل الى هذا حين قال : «أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو فى خصّ لا يشعر به [1] ، وأقام بالبصرة لايقدر على فلسين وعلمه قد انتشر وكسب به أصحابه الأموال »[2] .

ولم يعن بالاتصال به الا هؤلاء الذين وجدوا ضالتهم فى العلم ، وهم خلاصة الجيل ، ولم يتردد عليه هؤلاء الا بعد أن انحدر الى الشيخوخة وأصبح علما من أعلام الفكر . وعن هؤلاء وصل الينا ماوصل من أعماله العلمية من عروض ولغة ونحو ، ومن أخبار متفرقة تتصل بزهده وتواضعه وذكائه وحبه للعلم والعلماء .

من هؤلاء سيبويه والأخفش الثانى والليث بن المظفر وأبو محمد اليزيدى والنضر بن شميل ، وأبو محمد التوجى ، والمؤرج بن عمرو السدوسى ، وعلى بن نصر الجهضمى وغيرهم ممن أخذ وروى عنه وأوصل الينا شيئا من آثاره وأخباره .

ولم يتحدث الخليل عن نفسه الا قليلا جدا ، وسكوته عن نفسه مظهر من مظاهر زهده ولون من التواضع الذى يلازم العلماء ، وقد كان زاهدا متواضعا حقا لم يداخله الزهو ، ولا بهرته المنزلة التى كان مرموقا من أجلها ، وبقى ملازما خصّه بعيدا عن المجتمعات الصاخبة لايجاوز همّه باب خصّه كما كان يقول .[3]

وكان من زهده فى دنيا المادة أن ابتعد عن تملق رجال الحكم فلم يقف

---

(١) نزهة الالباء ص ٥٩ ، معجم الادباء ج١١ ص ٧٢ .
(٢) وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٣ (بولاق) شذرات الذهب لابن العماد حوادث سنة ١٧٠ هـ ج١ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٦١ ، شذرات الذهب ج١ ص ٢٧٥ .

على أبوابهم أو يرج نوالهم ، وكثيرا ما ردّ بإباء ماكانوا يعرضونه عليه من عروض مغرية ، فقد طلب اليه سليمان بن على والى المنصور على الأهواز أن يتولى تعليم أولاده ، وبعث له بهدايا يحاول بها اغراءه فما كان منه الا أن أخرج كسرة يابسة من الخبز وقال للرسول : مادامت هذه عندى فلا حاجة بى الى سليمان • بلغه عنى ذلك ثم حمّله أبياتا منها :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة   وفى غنى غير أنى لست ذا مال

سخّى بنفسى أنى لا أرى أحدا   يموت هزلا ولا يبقى على حال[٤]

ولم يغادر البصرة الا لحج بيت الله الحرام ، والتطواف فى بوادى نجد والحجاز وتهامة يسمع من اعرابها ، والا لخراسان حيث يقيم تلميذه وصديقه الليث بن المظفر •

ولم يكن سبب ذهابه الى خراسان واضحا ، ولكنى أظن أن الذى دعاه الى الذهاب اليها هو الذى دعا تلميذه النضر بن شميل من بعده ، فقد ضاقت الحياة بالنضر وقلّ مافى يده فاعتزم الخروج الى خراسان «فشيّعه من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف من المحدثين والفقهاء واللغويين والنحاة والأدباء فجلس لوداعهم فى المربد وقال : يا أهل البصرة يعز والله على فراقكم ولو وجدت عندكم كل يوم كيلجة من الباقلاء ما فارقتكم •»[٥]

وكما نجهل فى الخليل جوانب عدة من حياته نكاد نجهل أيضا هواه وعقيدته واذا تتبعنا أقوال المترجمين له وجدناهم يزعمون أنه كان خارجيا أباضيا ، ثم عدل عن أباضيته الى مذهب أهل السنة بهداية أيوب السختيانى فقيه البصرة ومحدثها ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذه السنّية كما عدل عن

---

(٤) معجم الادباء جـ ١١ (الخليل) • طبقات النحويين للزبيدى (نسخة مصورة بدار الكتب) •

(٥) معجم الادباء جـ ١١ ص ٧٣ •

أباضيته الأولى التي درج عليها صبيا ، فقد روى القفطي عن النيسابوري : «أنه كان يتشيع وأنه كان من شيعة جعفر بن محمد .» (٦)

ان انسانا مثل الخليل وهب ذهنا مرهفا وعقلا راسخا لايسهل عليه أن يعتنق مذهبا أو يؤمن بفكرة كما يفعل السذج من الناس فلابد أن يفكر ويتدبر قبل أن يقف عند مذهب أو يستقر عند عقيدة .

لقد عاش في البصرة وهي بيئة كانت عاجة بالأهواء والمذاهب وكانت مستقر عقليات مختلفة وكان الحجاج بين زعماء المذاهب والعقائد على أشده ، وكان هو من ذلك كله على كثب ، يستمع الى حجاج المتخاصمين ، وينعم النظر في أساليبهم ، وكانت هذه الأهواء والمذاهب تقوم مقام المبادىء السياسية ، فاعتناق الخارجية ليس مذهبا وتدينا حسب بل هو مبدأ سياسي أيضا ، يرمي الى مناوأة السياسية الأموية القائمة ، ومن مظاهر هذه المناوأة هذا الصراع العنيف بين الخوارج والأمويين طوال حكمهم .

كذلك إعتناق التشيع ليس تدينا حسب وانما هو مبدأ سياسي أيضا ، ناوأ الأمويين وكافحهم ، وأخذ يناوىء العباسيين بعد انقلابهم على الشيعة ، وخاصة في عهد أبي جعفر المنصور .

والناس في كل زمان ومكان متأثرون بما يدور حولهم وفي آفاقهم من مبادىء سياسية تناوىء الحكم القائم أو تمالئه ، وهكذا كان الناس في البصرة يومذاك شيعا وأحزابا ، فقلما تجد عالما أو متعلما لم ينحز الى جهة معينة يؤمن بمبادئها ويدافع عن سياستها .

فمن الشعراء من كان أمويّ النزعة كجرير ، ومنهم من كان علويّ المذهب كالفرزدق والكميت والسيد الحميري ، ومنهم من كان يرى رأي الخوارج كالطرماح وقَطَري بن الفجاءة .

---

(٦) انباه الرواه على أنباه النحاه جـ ١ نسخة مخطوطة بدار الكتب .

وكان النحاة وهم من العناصر المثقفة في البصرة من ذوي الأهواء أيضا ، كان منهم الشيعي والخارجي ، والمعتزلي ولم يستثن منهم الا قليل •

قال صاحب تهذيب التهذيب : «كان أهل البصرة ـ يعني أهل العربية منهم ـ أصحاب أهواء الا أربعة فانهم كانوا أصحاب سنة ، أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب والأصمعي •» (٧)

حتى هؤلاء الذين استثناهم العسقلاني لانستطيع مسايرته في أنهم لم يعتنقوا مبدأ سياسيا فليس كونهم أصحاب سنة أنهم لم يميلوا الى مبدأ معين فأبو عمرو بن العلاء مثلا مع أنه كان من أصحاب السنة ومن غير ذوي الأهواء كان مطاردا هاربا من الحجاج ، وقد قضى شطرا من عمره مختفيا بعيدا عن البصرة حتى ليروى عنه أنه قال «كنت هاربا من الحجاج ، وكان يشتبه علي (فرجة) هل هو بالفتح أو بالضم فسمعت قائلا يقول :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

بفتح الفاء ، ثم قال : ألا انه قد مات الحجاج • قال أبو عمرو : فما أدرى بأيهما كنت أشد فرحا بقوله فرجة أو بقوله : مات الحجاج ،» (٨) •

وهل يفسر هربه من الحجاج الا بكونه كان يرى رأيا لا توافقه عليه السياسة القائمة عليه •؟؟

ورجل مثل الخليل ينتمي الى قبيلة كبيرة لها ماضيها وحاضرها ، ولها مكانتها الاجتماعية والسياسية ، ليس من اليسير أن نزعم أنه كان بعيدا عن هذا الصراع المذهبي أو السياسي •

نشأ الخليل أباضيا بحكم مافطن له من هوى عشيرته ثم استمع وهو

---

(٧) تهذيب التهذيب للعسقلاني ج ٣ ص ١٦٤ •
(٨) نزهة الالباء ص ٣٢ •

صبى الى وعظ أيوب السختيانى (توفى سنة ١٣١ هـ) فعدل عن خارجيته واعتنق مذهب أستاذه ، وكان أستاذه من أصحاب السنة المحدثين ، ولكنه عدل عن هذه السنية الى التشيع كما مرّ من رواية القفطى ، وظهرت آثار هذا التشيع فى تفكيره لأن الشيعة كانوا كالمعتزلة من أوائل المتكلمين فقد كان جعفر بن محمد الصادق زعيم الشيعة الامامية وقد أدرك الدولتين ــ من أصحاب الكلام ورأيه فى أفعال الانسان معروف ، فقد كان يذهب الى أنه «لاجبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين» [٩] وكان لجعفر بن محمد أصحاب متكلمون ذكر ابن النديم منهم : هشام بن الحكم وشيطان الطاق أو مؤمن الطاق .

وكان الخليل من أصحاب الكلام فعلا كما يفهم مما أورده حمزة بن الحسن الأصفهانى ، فقد ذكر أنه تكلم فى فنون كثيرة «فمن تلك الفنون علم الغناء والايقاع ، وعلم الكلام والجدل وعلم الشطرنج والنرد .» [١٠]

وكما يفهم من قول الجاحظ : «ان كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا فى ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالو : العرض والجوهر ، وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشى ، وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك .

وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك .» [١١]

---

(٩) عقيدة الشيعة (دوآيت . م . رونلدسن) ص ١٤٣ .

(١٠) التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الاصفهانى «نسخة مصورة بدار الكتب» .

(١١) البيان والتبيين جـ١ ص ١٥٣ «مطبعة الاستقامة ١٩٤٧» .

وظهرت آثار التشيع فى بعض ما روى عنه من أشعار فقد روى الزبيدى أنه قال :

فاطلب النحو للحجاج وللشعر مقيما والمسند المروى
قيمة المرء كل ما يحسن المرء   قضاء من الامام على
والخطاب البليغ عن حوار القول يزهى بمثله فى الندى
وارفض القول من طغام جفوا عنه فعادوه نصبة للنبىّ

وأنه قال :

أبلغا عنى المنجم أنى   كافر بالذى قضته الكواكب
عالم أن ما يكون وما كا   ن بحتم من المهيمن واجب
شاهد أن من يفوّض أو يجبـر زار على المقادير كاذب[(١٢)]

ففى الأبيات الأولى تسمع نغمة لم تكن لتسمعها الاّ من متشيعين أمثال أبى الأسود الدؤلى والسيد الحميرى • وفى الأبيات الأُخرى تجده يشهد بكذب المفوضة والمجبرة ، وشهادته بكذبهما فيما نرى ذهاب الى ماذهب اليه الامامية على لسان جعفر بن محمد الصادق من أنه «لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين» •

ومهما يكن من أمر فقد كان الخليل من أهل الدين والورع والزهد ، وكان يقرن فى العلم والزهد بعبيدالله بن عون فقيل : « قلّ من كان بظاهرة البصرة من العلماء والزهاد الا كان فى باطنتها مثله يضعه أهل البصرة حياله ، وكان عبيدالله بن عون فى الباطنة ، وكان الخليل بن أحمد يعد فى الظاهرة نظيره •» [(١٣)]

---

(١٢) طبقات النحويين للزبيدى «الخليل» (نسخة مصورة بدار الكتب) •
(١٣) مراتب النحويين لابى الطيب اللغوى ص ٤٧ «مخطوطة بدار الكتب» •

وكان النضر بن شميل يقول : «ما رأيت رجلا أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد .» (١٤)

وكان الخليل من أهل الدين الذين جاهدوا فى سبيله ، وكان لجهاده فى سبيل الدين ألون اصطبغ مرة بالسياسة ، واصطبغ مرة بالعلم ، ولما لم تسعفه الظروف السياسية فى كفاحه السياسى انصرف الى خدمة الدين عن طريق العلم ، وقد عكف على العلم عكوف المتصوفين ، وانصرف الى طلبه تاركا الحياة المادية ، غير عابىء بجاه أو منصب واعتزل فى خصّه مغلقا عليـــه بابه حتى لايجاوزه همّه كما كان يقول ، وقضى حياته فى طلبه ، وهو القائل : «ان لم تكن هذه الطائفة ــ يعنى أهل العلم ــ أولياء الله فليس له ولى» (١٥) .

---

(١٤) نزهة الالباء ص ٥٩ .

(١٥) انباه الرواه على أنباه النحاة للقفطى ص ٣٢١ ج ١ «مخطوطة بدار الكتب» .

(٢)

حياته العلمية

ولكى نرسم صورة للخليل لابد أن نقف وقفة قصيرة على المجتمع الذى كان يعيش فيه للوقوف منه على ماله صلة بحياة الخليل العلمية ، وعلى الشيوخ الذين يتحدث التاريخ أنه درس عليهم لنعرف الخطوط الأساسية التى تكونت منها حياته العقلية •

الحق أنه لم يصلنا بالخليل الا تلاميذه الذين كتبوا ما سمعوا عنه ، وما أملاه عليهم ، ولم يترك الخليل لنا من الكتب ما نستطيع معه أن نتعرف به على ملامح شخصيته العلمية •

فنحوه لم يصل الينا الا عن طريق سيبويه وكتابه وأقواله فى اللغة والأصوات لم تصل الينا الا عن طريق تلميذه الليث بن المظفر ، وعروضه لم يصل الينا الا عن طريق الأخفش •

هذه الجوانب الثلاثة من حياة الخليل العلمية لم تصل الينا فى كتب صنّفها هو وانما أملاها على تلاميذه الذين نقلوها عنه بأمانة واخلاص •

وأظننى قد رسمت فيما سبق ملامح المجتمع البصرى ، وألممت المامة موجزة بحياته الثقافية العامة فلنقف الآن قليلا عند بيئته الخاصة التى ربما تركت فى نفسه أثرها وطبعت عقليته بطابعها الخاص ، فلاشك أن للأستاذ فى تلميذه تأثيرا ، وأن التلميذ يستجيب لهذا التأثير ، ولا نعنى بالاستجابة أن يملأ ذهنه بما يمليه الأستاذ عليه أو أن يستوعب مافى عيبته من معلومات بل نعنى بها التقليد والمحاكاة ، بأن يقف التلميذ من أستاذه موقف المقلد المحاكى ،

وأن يصبح صدى لما فى نفس أستاذه ، أو مرآة تنعكس عليها خصائصه ومزاياه الخلقية والعلمية والفنية •

واذا وصل التلميذ الى درجة كبيرة من الاستجابة فقلد وحاكى وتمثل ذلك فى نفسه لمحنا لذلك أثرا فى تصرفاته وسلوكه وأسلوب تفكيره ، ولاحظنا شبها كبيرا بين عقلية الأستاذ وتلميذه •

لهذا كان لزاما على الباحث الذى يحاول أن يدرس شخصية من الشخصيات أن يلم بالخصائص التى يمتاز بها شيوخه وأساتذته الذين استجاب لهم لنصل الى الخطوط الرئيسة التى ابنت عليها شخصية التلميذ •

وعلى هذا لابد أن نرجع الى الوراء قليلا لنقف وقفة قصيرة عند الشيوخ الذين أخذ الخليل عنهم •

شيوخه :

يبدو لى أن باكورة دراسته كانت على أيوب السختيانى ، تلقى عنه الحديث والفقه ، وكان السختيانى فقيها من فقهاء البصرة ومحدثا من محدثيها، وكان الحسن البصرى يقول : «أيوب سيد شباب أهل البصرة» (١) لما كان يتصف به من ورع وصلاح ومن زهد وعبادة ، وكان لأيوب حلقة فى مسجد البصرة يعظ فيها ويحدث ، وكان الخليل اذ ذاك حدثا وقد راقه حديثه فاستمع اليه طويلا ، واختلف الى مجلسه كثيرا حتى تأثر بتعاليمه ، وأخذ عنه نسكه وزهده • وكان أيوب يقول : «تعلموا النحو فانه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف» (٢) •

وقد انصرف الخليل للنحو فعلا ، وتنقل بين الحلقات ، ولا أدرى أكان

(١) البيان والتبيين جـ٢ ص ١٥٤ •
(٢) البيان والتبيين جـ٢ ص ٢٢٣ •

انصرافه للنحو اتباعا لقول شيخه أم انقيادا للتيار الثقافى الجديد الذى أقبل عليه المثقفون وهو النحو !؟

ومهما يكن من أمر فقد كانت حلقات النحو فى المسجد الجامع آهلة بالطلاب فكان الخليل كغيره من الطلاب يتنقل بينها ، يسمع من هذا ويجلس الى ذاك ، ولم يقتصر على الأخذ من أستاذ واحد ، لأن الانسان ـ كما كان يقول ـ لايعلم خطأ معلمه حتى يجالس غيره . وقد اقتبس هذا من كلام أستاذه أيوب السختيانى الذى كان يقول : «لايعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف» (٣) .

وكان الخليل حريصا على التزود من العلم من ينابيعه المختلفة ، لايحجم عن طلبه ولا يقف بينه وبين الاستفادة حائل ، وكان لايأنف أن يستفيد ولو ممن هو أقل منه علما وتجربة ، وكان لايعرف معنى للتكبر فى العلم ، وكان يقول : «تربع الجهل بين الحياء والكبر فى العلم» (٤) ، وكان يقول أيضا : «من استغنى بما عنده جهل ومن ضمّ الى علمه علم غيره كان من الموصوفين بنعت الربانيين» (٥) .

أفلا تراه قد تمثل تعاليم أستاذه أيوب ، وكانت هادية له فى حياته العلمية الناشئة ، حتى بلغ الدرجة التى بلغها من بعد .

فنحن اذن اذا رجعنا الى الخطوط الأساسية التى رسمت حياته الخلقية وجدناها أثرا من آثار أيوب فقد تأثر بها وتمثلها فى نفسه تمثلا حملها على النسك والزهد والتواضع والعفة والانصراف عن الحياة المادية حتى قال فيه سفيان الثورى : «من أحب أن ينظر الى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل بن أحمد» .

---

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٥ .
(٤) طبقات النحويين للزبيدى عن «نسخة مصورة بدار الكتب» .
(٥) المصدر السابق .

وحتى كان النضر بن شميل أحد تلاميذه يقول : «كنا نمثل بين ابن عون والخليل بن أحمد أيهما نقدم فى الزهد والعبادة فلا ندرى أيهما نقدم» (٦) .

أما أساتذته الآخرون فآثارهم فيه غير واضحة ، ومن هؤلاء :

عيسى بن عمر الثقفى المقرئ النحوى وقد مر ذكره حين عرضنا للمدارس القرآنية ومر بنا اعجاب الخليل به واشادته بعلمه وبكتابيه الجامع والاكمال ، ولكننا لانستطيع أن نتعرف على ملامح شخصيته من أقواله النحوية القليلة التى ذكرهاسيبويه فى كتابه . أما كتاباه اللذان أشار اليهما الخليل فلم يقعا فى أيدى الناس ولم يتدارسوهما .

فاذا كان هناك تأثير له فى الخليل فقد يكون هذا التأثير فى ميله الى اصطناع القياس أصلا من أصول النحو ، ثم التوسع فيه على النحو الذى عرف الخليل به ، وكان معروفا أن عيسى بن عمر كان يصطنع القياس ، وأشرنا الى مسائل أوردها سيبويه فى كتابه كان لعيسى بن عمر فيها قياس .

وأبو عمرو بن العلاء ، وكان اذ ذاك شيخا من شيوخ القراءة والعربية ، وكانت له حلقة فى المسجد الجامع بالبصرة ، يجتمع اليه فيها رجال القراءة والأدب واللغة والنحو .

وكان أول اتصاله به يوم هبط البصرة وهو يعتزم مناظرته ، يحدوه الى ذلك اندفاع الشباب والاعتزاز بما كان يحس به فى نفسه من ذكاء وقدرة ، ولكن الخليل لم يكن مزهوا بنفسه ، ولا مغرورا بما وصل اليه ، وظل يستمع اليه وهو ساكت ، فسئل عن سكوته فقال : «هو رئيس منذ خمسين سنة فخفت أن ينقطع فيفتضح فى البلد» (٧) .

وهذا الخلق الكريم هو الطابع البادى على سلوك الخليل فى حياته ،

---

(٦) نزهة الالباء ص ٥٨ .

(٧) شذرات الذهب لابن العماد جـ١ حوادث سنة ١٧٠ هـ .

وهو فيما نرى ثمرة جناها من سلوك أستاذه أيوب • وابو الخطاب الأخفش الكبير أحد كبار اللغويين الرواة ، اخذ عنه الخليل وأبو عبيدة •

والخليل مع أنه أخذ من هؤلاء واختلف الى حلقاتهم ، لم يؤمن بأن العلم الذى وصلوا اليه مما يحسن الوقوف عنده والاقتصار عليه ، وان احتلوا به مراكز الزعامة العلمية • وما أقرب موقفه منهم من موقف يونس بن حبيب من عبدالله بن أبى اسحاق حين سئل أن يوازن بين علم الناس فى عهده وعلمه، فقد قال : «لو كان فى الناس اليوم من لايعلم الا علمه لضحك منه» (٨) •

وكان الخليل طلعة لايكتفى بلون من ألوان المعرفة ، وكان يحاول الوقوف على مختلف التيارات الثقافية ويستفيد منها ، وكانت البصرة اذ ذاك معهدا علميا لم يشهد تاريخ العربية الى العصر الذى عاش فيه الخليل معهدا أوعى منه للثقافات ، فقد أخذت الثقافات تتوافد عليها مع الوافدين من هنا وهناك ، وكانت الحركات العلمية تسابق الزمن بحيث لم يمر عهد طويل حتى كانت البصرة منبعا غزير الفيض للثقافات والعلوم •

ولقد نظر الخليل فى الثقافات القديمة ، وأخذ منها حاجته ، نظر فى القراءات وكان تلميذا لأبى عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة ، وكانت للخليل أعمال قرآنية سبق أن اشرنا اليها من كتابة المصحف ، وابتداعه حركات الاعراب الجديدة ، ووضع علامات أخرى للتشديد والادغام ، كما قال أبو عمرو الدانى •

ونظر فى الفقه وتتبع تطوراته الجديدة ، ووقف على مذهب المجددين من أصحاب الرأى والقياس ، وكان أبو حنيفة يعاصره •

ونظر فى اللغة وأخذها عن أبى الخطاب وعن فصحاء العرب كأبى خيرة

---

(٨) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٦ •

وأبى الدقيش وعن الأعراب فى بوادى نجد والحجاز وتهامة خلال حجّاته •

ونظر فى النحو واختلف الى حلقاته فى البصرة ، وكان من شيوخه فيه عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء •

وأخذ يلتمس الثقافات الجديدة فنظر فى الكلام وكانت مدارسه قد ترعرعت فى البيئة البصرية اذ ذاك ، وكان هو من أصحاب الكلام فعلا لأنك تلمح فى أقواله ودراساته ظلالا لمناهج أصحاب الكلام وأساليبهم ، واعتداده بالعتل يؤيد شهادة الجاحظ وحمزة بن الحسن الأصفهانى بأنه كان من أصحاب الكلام •

ونظر فى الموسيقى ، وكانت له معرفة بها وكثير من المؤرخين يثبتون له هذه المعرفة •

يقول القفطى : «وله علم بالأنغام ، وله كتاب فيه ، ومعرفته بالنغم ومواقعها أحدثت له علم العروض» (٩) •

ويقول حمزة بن الحسن الأصفهانى : « وأمّا علم الغناء والايقاع فانه صنع فيه كتابا وسماه تراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وترا ولا مسّ قضيبا ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين» (١٠) •

وأكثر المترجمين له من العرب يروون أن له كتابا فى النغم وكتابا فى الايقاع ومنهم ابن النديم •

ويروى جول روانيت فى دائرة المعارف الموسيقية أن الخليل كان له كتاب فى الموسيقى •

ويقول : ج•ب• ترند : «يقال ان مخترع هذه الموسيقى المقيسة هو

---

(٩) انباه الرواه على أنباه النحاة جـ١ «مخطوطة بدار الكتب» •

(١٠) التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الاصفهانى ص ١٢٢ «من المجموعة التيمورية بدار الكتب» •

فرانكو الكولونى ولكن فرانكو هذا يتحدث عن الموسيقى المقيسة كشىء سبق أن عرف ، ويظهر أن الخليل بن أحمد عرفها قبل ذلك فى القرن الثامن» (١١) .

ولكن من أين جاءته هذه المعرفة ؟

المؤرخون يجيبون على ذلك فيزعمون أنه عرفها من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست (١٢) .

ولكننا نستبعد مازعمه القدماء لأن الموسيقى كانت معروفة فى البيئة العراقية ، والظاهر أن أصولها عرفت قبل زمن الخليل ، وقد شهد العصر الأموى كثيرا من المغنين كطويس وابن مسجح وابن محرز والغريض ومعبد، ومن الملحنين كالوليد بن يزيد ، ويونس الكاتب . والتاريخ يحدثنا أن الوليد ابن يزيد كان شاعرا ملحنا مؤلفا فى الموسيقى ، وأنه كانت له ألحان ، وكان يعزف على العود ، ويعرف صناعة الايقاع (١٣) . ويذهب أبو الفرج الى أنه أول من دوّن الغناء (١٤) .

وقد كان الحجاز موفدا للهاوين يتعلمون بمدارسه الموسيقية أحدث الألحان والأنغام ، وكان فى الحجاز أقطاب الغناء ، وكان كثير من هؤلاء يذهبون الى بلاد فارس ، فيقتبسون من ألحان الفرس وموسيقاهم ، وربما ذهبوا الى بلاد الشام المتأثرة بفنون الرومان واليونان (١٥) .

وظهر فى العراق مغنيان مشهوران أحدهما نشأ قبل الخليل وثانيهما

---

(١١) تراث الاسلام جـ١ ص ٣٤ .
(١٢) التنبيه على حدوث التصحيف .
(١٣) دائرة المعارف الموسيقية ص ٥٥ .
(١٤) الاغانى جـ ٤ ص ١١٣ .
(١٥) ص ٦٤ ، ٦٧ من دائرة المعارف الموسيقية .

عاصره ، فأمّا أولهما فهو أبو كعب حنين بن بلّوع «توفى سنة ٧١٨ م» • كان من نصارى الحيرة «وكان يبيع الأزهار والفاكهة متنقلا بين منازل المطربين وأعيان القوم الموسرين فيسمع الغناء» (١٦) •

وأما ثانيهما فهو ابراهيم الكوفى الموصلى ، وقد ذهب ابراهيم هذا الى الموصل يتعلم فيها الغناء ثم ذهب الى بلاد فارس ، وأصبح بعد زمن فى الصف الأول من رجال الغناء والموسيقى •

وعلى هذا! فالموسيقى كانت معروفة فى البيئات العربية والاسلامية ، ومنها الكوفة والبصرة ، فلا غرابة أن يكون الخليل وهو المتطلع الى فنون المعرفة ، قد وقف على الموسيقى وعرف قواعدها وأصولها معرفة أتاحت له التأليف فى النغم والايقاع ، وقد يكون فيما ألّف فى هذا تجديد وابتكار ، ولكننا لانعرف مدى ذلك •

أما قصة ممرّه على الصفارين وسماعه وقع المطارق على الطسوت واستخراجه أصول الموسيقى منها ، فينبغى الوقوف منها موقف التريث قبل الاندفاع الى تصديقها ومتابعة المتقدمين فى القول بها •

ونظر الخليل فى أغلب الظن ــ فى كل ماكان يتيسر له الاتصال به من ثقافات دخلت البيئة البصرية نتيجة للاندماج الذى حقق الاتصال بين العرب وغيرهم •

ولم تكن طريقة الخليل فى دراسته استيعاب ماكان يأخذه عن شيوخه شأن الرواة الحفّاظ ، بل كان يتمثل كل ذلك فى نفسه ، ولم نسجل هذا عن افتراض نفترضه وانما نعتمد فيه على كلام له ، فقد روى المبرّد أنه قال : «كن على مدارسة ما فى قلبك أحرص منك على حفظ كتبك» •

ص ٦٩ من دائرة المعارف الموسيقية •

فالذى نرجحه أن الخليل بتجاربه وبما فطر عليه من ذكاء وبما وهب من مزاج علمى قد نشّأ نفسه هذهِ التنشئة ، وأفاد من هذه التيارات الفكرية التى كانت دائرة فى المجتمع البصرى ، ومن هذه النهضة العلمية القوية التى غزت حلقات العلم فى الزمن الذى عاش فيه ، وكانت ملقحة بثقافات وأفكار أجنبيــة تبادلها الدارسون العرب والأجانب فى اتصالاتهم وتلمذة بعضهم لبعض •

حتى تدينه كان خاضعا لمزاجه الخاص فلم يكن مدينا به لشيوخه ، ولا لما نشأ عليه فى أهله ، وكما كان الخليل معنيا بالتجربة فى الدراسة كان معنيا بها أيضا فى التدين ، وكما خبر العلوم والثقافات خبر المذاهب والأهواء أيضا ، وكان العقل فى كل ذلك هدى له فى طريق بحثه واختباره •

كان لهذه الثقافات المتنوعة أثرها فى عقلية الخليل فقد أكسبته عمقـــا فى التفكير وقدرة على الاحاطة بالموضوعات التى تناولها بالدرس ، وعنايته بهذه الثقافات المختلفة أفادته فى حياته العلمية ، وكان لها أثر تطبيقى فى مجال تخصّصه •

كان للموسيقى أثرها فى تنمية حسّه الموسيقى الذى أوصله الى تحديد مخارج الحروف والتمييز بين طبائع أصواتها ووضع كلّ حرف فى مدرجته داخل الفم •

واستطاع بها أن يحس بما للكلمات من موسيقى فتوصل الى استخراج أوزانها سواء أكانت أفعالا أم أسماء ، والى ضبط أوزان الشعر وتقسيمها الى ضروب ، وتقسيم كل ضرب الى تفعيلات ، وتقسيم التفعيلات الى أســـباب وأوتاد ، وأدى به هذا الضبط الى سهولة التمييز بين كلمة عربية وأخرى دخيلة لمجرد خروجها عن الوزن المألوف •

وكان للكلام والخطرات الفلسفية أثرها فى ايمان الخليل بالعقل وأحكامه واخضاعه موضوعات دراسته الى هذه الأحكام ، وفى صبغ عقليته بصبغة علمية عملية •

وقد كان أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم يتخذون من التجربة قاعدة لأعمالهم ودراساتهم حتى بلغ بهم ذلك أن أخضعوا لتجاربهم حتى الحيوانات كما حدثنا الجاحظ عن النظام وعن اجراء تجاربه علـى الظبى والنعـام وغيرهما (١٧) .

وليس معنى ذلك أن التجربة عندهم كانت أصلا عمليا ، أو كانت تطبق على أنها منهج واضح المعالم والحدود ، ولكنهم فطنوا لها وبدت منهم محاولات فى الاستفادة منها .

وهكذا كان الخليل عمليا تجريبيا استقرأ كلام العرب وأخذ يتذوق أساليبهم ويتدبر تعبيراتهم ، ثم أخذ يجرى عليها تجاربه ليصل الى نتائج لايمكن الوصول اليها بغير التجربة والاستقراء ، فقد توصل الى حصر الأوزان التى انبنى عليها الشعر العربى ، ووضع لكل وزن اسما خاصا ، وفصّل الكلام فى تفعيلاته وأجزاء تفعيلاته وطلع على العالم بما سمّاه علم العروض . وتوصل أيضا الى حصر أوزان الكلمات وتصنيفها طوائف ، كل طائفة لها وزن خاص سواء فى ذلك الأسماء والأفعال ، ليسهل عليه أن يتدبر الأحكام الخاصة بكل طائفة ، وأن يدرك الصفات الخاصة بها . ثم شرع بعد انتهائه من ترتيب الحروف فى وضع معجم مرتبة فصوله على أساس هذا الترتيب الجديد ، وهو كتاب العين الذى سمى بهذا الاسم لأن أول فصوله يتضمن الألفاظ التى تبدأ بالعين أو تتضمنها .

وكان لهذه الثقافة الكلامية أثرها أيضا فى طبع عقليته بطابع العمـوم والتقصى وقد هدته عقليته هذه الى حصر أوزان الكلمات ، والى حصر أقسام الكلمات فى الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى ، والى تصور القضايا النحوية على أنها قضايا عامة تقوم مقام القضايا فى العلوم العقلية والطبيعية .

ومن هنا أزعم أن الخليل هو أول نحوى عنى بدراسة النحو دراسة

كتاب الحيوان جـ٢ ص ٨٣ ، جـ٤ ص ١٠٦ «المطبعة الحميدية» .

علمية منظمة ، وأول من نهج الطريق لعلماء النحو أن يدرسو النحو على أنه مجموعة من القواعد والأصول العامة ، وقبله كان النحو خطرات لغـــوية توحى بها السليقة ، ومجموعة من المسائل يتناولها الدارسون على أنها جزئيات مستقل بعضها عن بعض ، دون أن يلتفتوا الى الرباط العام الذى ينتظم المسائل ، اللهم الا محاولات أولية قام بها نحاة قبل الخليل ، كعبدالله بن أبى اسحاق وعيسى بن عمر .

ومن هنا أزعم أيضا أن الخليل هو واضع علم النحو ، بمعنى أنه واضع المنهج لدراسته دراسة علمية منظمة ، أو على الأقل هو زعيم المدرسة النحوية القياسية التقعيدية .

(٣)

منطق أرسطو ونحو الخليل

ليست فكرة تأثر النحو العربى بمنطق أرسطو بعيدة عـــن الأذهان • ولابد لمن يعرض لتاريخ النحو العربى أن يمر عليها ويدوّن رأيه فيها ، ولم أجد وأنا أدرس نحو الخليل مناصا من أن أعرض لهذه الفكرة أيضا ، لأن تاريخ نحو الخليل هــو تاريخ النحــو العــربى بوصفه علمــا له أصــوله وقواعده •

وقد وجدت وأنا فى طريق البحث فى نحو الخليل مقالة للدكتور ابراهيم بيومى مدكور ألقاها فى مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية **١٩٤٨–١٩٤٩** ، وموضوعها «منطق أرسطو والنحو العربى» ، والدكتور ممن يقف الدارس عند آرائه فيما يتعلق بالفلسفة وتاريخها • وكان لابد لى أن أقف عند مقالته هذه لأنها تمس الموضوع ، ولها بنحو الخليل صلة ، لأنها تتناول علاقة المنطق بالنحو العربى ، وبنحو الخليل بصفة خاصة •

ذهب الدكتور فى مقالته هذه الى تأثر النحو العربى بمنطق أرسطو تأثرا يمسّ المنهج والموضوع ، فقال : «وقد أثّر فيه ــ يعنى النحو العربى ــ المنطق الأرسطى من جانبين : أحدهما : موضوعى والآخر منهجى ، فتأثر النحو العربى عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو فى كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأريد بالقياس النحوى أن يحدد ويوضع على نحو ما حدّد القياس المنطقى» (١) •

وقد بنى رأيه فى تأثر النحو العربى بمنطق أرسطو على أمور :

---

(١) انظر مقالة الدكتور ص ٢ •

الأول : اعتبار القياس صلا من أصول العمل النحوى وتحديده ووضعه على نحو ما حدّد القياس المنطقى ، ثم هذا التشابه بين ما جاء من تقسيم الكلمة عند سيبويه الى اسم وفعل وحرف ، وما جاء من تقسيمها عند أرسطو الى اسم وفعل وأداة •

الثانى : ظهور النحو السريانى فى مدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى على مقربة من نحاة العرب الأولين ، ثم ترجمة عبدالله بن المقفع لمنطق أرسطو التى تعد كما يقول : ثروة جديدة نقلت الى العالم الاسلامى •

الثالث : تلمذة بعض السريان للخليل بن أحمد كحنين بن اسحاق الطبيب السريانى المعروف ، الذى كان له أثر كبير فى نقل علوم اليونان ، ومنها الأجرومية الى العربية ، وفى افتتاح حركة الترجمة الكبرى فى العالم الاسلامى •

وقرر الدكتور هنا : أن حنينا كان «معاصرا للخليل وسيبويه ، بل وصديقا للخليل ، وقد تعلم العربية فى سن متقدمة ، وعانى منها ما عانى ، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية» •

ولابد لنا من الوقوف عند هذه الأمور للنظر فيها ومحاكمتها واستخلاص ما يمكن الاعتماد عليه فى تأييد هذه الفكرة التى لاتزال تترجح عند الباحثين بين النفى والاثبات وبين الشك واليقين •

أمّا الأمر الأول فلا نستطيع الاطمئنان اليه ، فضلا عن أننا نعتمد عليه فى تأييد الفكرة ، لأن اعتبار القياس أصلا من أصول العمل النحوى ليس معناه أن النحويين اقتبسوه من منطق اليونان ، ونحن فى هذا نعتمد على :

(١) أن هناك فرقا بين مفهوم القياس عند النحويين ومفهومه عند المناطقة ، فالقياس النحوى انتقال من الجزئى الى الكلى ، وهو يساوى الاستقراء عند أرسطو ، والقياس المنطقى انتقال من الكلى الى الجزئى •

(٢) وأن هناك فرقا أيضا بين مدلول الاصطلاح النحوى ومدلول الاصطلاح المنطقى ، فالحرف مثلا فى النحو هو العنصر الذى قصر عن الدلالة على المعنى بنفسه ، والذى وظيفته ربط أجزاء الجمل بعضها ببعض ، بينما الأداة فى المنطق تكون اسما وفعلا وحرفا ٠

وأما الأمر الثانى فليس فيه دلالة أيضا على صحة هذه الدعوى ، أما ظهور النحو السريانى المقتبس من اليونانية فليس له تأثير – فيما نظن – فى النحو العربى وان ظهر على مقربة من نحاة العرب الأولين ، لأن الظاهر أن النحو السريانى لم توضع قواعده الا فى اواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد ٠

نعم أخذ السريان يفكرون فى وضع قواعد للغتهم حين شعروا بالخطر يهددها بالفناء بعد انتشار العربية فى ربوع العراق وبلاد الشام ، واستعان الشرقيون منهم وهم سكان العراق بالنقط فى اعراب الكلمات كما كانت الحال عند العرب ، وكان ذلك حوالى سنة ٧٠٠ للميلاد [٢] ، وقد شهدت هذه الفترة أواخر خلافة عبدالملك بن مروان الذى توفى سنة ٧٠٥ للميلاد ، وكان العرب اذ ذاك قد فرغوا من نقط المصحف على يد أبى الأسود الدؤلى بين سنتى ٤٩ ، ٥٣ للهجرة ، أو على وجه التقريب بين سنتى ٦٧٠ – ٦٧٤ للميلاد ، وهى الفترة التى ولى زياد فيها المصريين ٠

وهذا فيما أظن هو الذى دعا الأستاذ (ليتمان) أن يذهب الى أن النحو السريانى مأخوذ من النحو العربى ، وهو الذى دعا الأستاذ (جب) أن يذهب الى أن النحو السريانى والنحو العربى نشآ فى وقت واحد [٣] ، مع التسامح فى هذه الفترة التى كانت بين عمل أبى الأسود وعمل يعقوب الرهاوى واضع النحو السريانى المتوفى سنة ٧٠٨ للميلاد ٠

---

(٢) المفصل فى قواعد اللغة السريانية وآدابها ص ٦ ٠

وأمّا ترجمة منطق أرسطو في عهد الخليل فمع أن كثيرا من الباحثين قد ذهب الى القول بها ومنهم (دي بور) في تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ليست من الثبوت في درجة أن نقطع بتأثيرها المباشر في النحو العربي في عهد الخليل ، لأن اسناد الترجمة لعبدالله بن المقفع قضية لم ينته الباحثون من تحقيقها ، وان قال بها باحثون محققون ، فان (بول كراوس) قد استظهر أن الذي قام بها هو محمد بن عبدالله بن المقفع لا ابن المقفع نفسه ، وعلى هذا يكون مذهب الخليل في النحو قد رسمت حدوده وبانت معالمه قبل ظهور هذه الترجمة ، ودون أن يتأثر بها تأثرا مباشرا ، والدكتور نفسه لم يصرح بتأثر الخليل بها ، بل نسب التأثر بها الى سيبويه الذي ألف الكتاب بعد وفاة الخليل سنة ١٧٧ للهجرة .

وأمّا الأمر الثالث وهو تلمذة حنين للخليل فأمر لا نستطيع الاطمئنان اليه ، ولا نسمح لأنفسنا بمتابعة الدكتور في القول به ، وليس الدكتور أول من قال بهذه التلمذة المزعومة ، فان القائلين بها قدماء ومحدثون .

وليس من القدماء من قال بها – فيما أعلم – الا ابن أبي أصيبعة (٥٩٦–٦١٨هـ) الذي روى عن سليمان بن حسان : «أن حنينا نهض من بغداد الى أرض فارس ، وكان الخليل بن أحمد النحوي بارض فارس فلزمه حنين حتى برع في لسان العرب وأدخل كتاب العين بغداد ، ثم اختير للترجمة واؤتمن عليها »(٤) .

والقفطي (٥٦٨ – ٦٤٦ هـ) الذي ذكر هذه الرواية أيضا مع شيء من الاختلاف ، فقال : «ان حنينا دخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد حتى برع في اللسان العربي وأدخل كتاب العين بغداد واختير للترجمة واؤتمن عليها »(٥) .

---

(٤) عيون الانباء لابن أبي أصيبعة جـ١ ص ١٨٤ .
(٥) اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١١٧ .

وأما المحدثون فأسبق القائلين بها فيما أعتقد هو الأستاذ أحمد أمين فقد قال فى ضحى الاسلام ، فى الجزء الأول ص ٢٩٨ : «أن حنينا ذهب الى بلاد الروم ، وأجاد تعلم اليونانية ثم عاد الى البصرة ولازم الخليل بن أحمد يأخذ عنه العربية » •

ومنهم الدكتور مدكور فى هذه المقالة التى نتحدث عنها ، وقد أثبتنا مقالته فى هذه التلمذة المزعومة •

ومنهم الأستاذ مصطفى نظيف ، وقد وقفت على رأى له فى هـــذا فى تعليقة له على هذه المحاضرة ، فقد صرّح بلهجة الواثق أنه «ثابت أنه – يعنى الخليل – كان متصلا بحنين بن اسحاق ، وأن حنينا تعلم العربية على الخليل» •

وهؤلاء الباحثون المحدثون يريدون الى الظن بتأثر النحو العربى بمنطق أرسطو تأثرا مباشرا ، وهم – فيما يبدو لى – يعتمدون على ما زعمه ابن أبى أصيبعة والقفطى وزعمهما ايغال فى الخلط ، وابعاد فى التسمّح ، لأننـــا لو التفتنا الى تاريخ حياة الخليل وتاريخ حياة حنين لظهر لنا بطلان ما زعماه مما كادا ينفردان به ، فقد نصت الكتب التى ترجمت للخليل ، والمظان التى استطعت الرجوع اليها على أن وفاة الخليل لاتتعدى سنة ١٨٠ هـ فى اكثر تقدير ، وأن ولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ هـ ، واذن فبين وفاة الخليل وولادة حنين أربع عشرة سنة فى أقل تقدير ، واذن فان حنينا لم يدرك الخليـــل ولا رآه فلا يصح لنا أن نقفو أثر ابن أبى أصيبعـــة والقفطى وهمهما ، فنقـــول بمقالتهما ، ولا يجوز أن نزعم أن حنينا قد تلمذ للخليل وتعلم العربية عليه ، أو نغلو فنقرر أن حنينا قد تعلم العربية عليه فى سن متقدمة •

والغريب أن القارىء فى ضحى الاسلام يرى أن الأستاذ أحمد أمين قد أثبت ما أثبتوه مما يتصل بتحديد الزمن الذى توفى فيه الخليل ، والزمن الذى ولد فيه حنين ، فقد نصّ فى الجزء الأول على أن حنينا ولد فى سنة ١٩٤ هـ ، وفى

الجزء الثانى حين ترجم للخليل على أنه عاش من سنة ١٠٠-١٧٥ هـ •
ولم يحاول التوفيق بين ذهابه الى اتصال حنين بالخليل وتعلمه العربية عليه ، وبين التاريخ الذى أثبته لولادة الخليل ووفاته ، وولادة حنين مع أن بينهما تعارضا ظاهرا •

فالحق أن القول بتأثر النحو العربى أو نحو الخليل بوجه خاص بمنطق أرسطو أو بالنحو السريانى تأثرا مباشرا زعم يفتقر الى شىء كثير من التحقيق، وأن صلات هؤلاء الأجانب بالخليل لم يقم على ثبوتها دليل تطمئن اليه نفس الباحث ، أو يحمله على الظن بأنه قد أقتبس منهم أو تأثر بهم أو تبادل معهم بعض القواعد النحوية •

والحق أيضا أن ما اعتدّ به الخليل من قياس ومن منهج كلامى ، وما جرى على لسانه أو لسان تلميذه سيبويه من مصطلحات يشبه ما جاء فى منطق ارسطو ، ليس فيه مايدل على أن نحو الخليل متأثر بالمنطق الأرسطى تأثرا مباشرا فى المنهج والموضوع •

نشأ الخليل فى بيئة البصرة فى بداية القرن الثانى للهجرة ، فى الوقت الذى اكتمل فيه الاندماج بين العناصر العربية والأجنبية أوكاد ، وفى الوقت الذى أخذت فيه العقليات تتفاعل ويؤثر بعضها فى بعض ، وفى الوقت الذى تهيأ فيه لأهل البصرة عقلية خاصة ، لم تكن عربية خالصة ، بل كانت متأثرة بالعقل الأجنبى ، نتيجة لهذا الاندماج ، ولوجود بعض المدارس اليونانية التى أنشئت قديما حول البصرة قبل تمصيرها • وكان السريان واليونان قوامين عليها ، كمدرسة جنديسابور ، وكالمدارس التى نشأت فى الديارات ، وحول البصرة منها : دير الدهدار بين البصرة وواسط ، ودير مخراق من أعمال خوزستان ، ولا ريب أن علوم اليونان كانت العلوم الأساسية التى يعنى بها الطلاب •

وجاء النحاة فتأثروا بهذه العقلية العامة التى لاتخلو من آثار أجنبية ثم جاء الخليل وهو شخصية طلعة ذواقة، بلغ من الذكاء وعمق النظر شأوا بعيدا، فلم يتوان أن يلم بما كان يدور حوله من ثقافات، وقد تواترت الأخبار، ودلت الآثار التى وصلت الينا عنه أنه كان من البارعين بعلوم كثيرة كان فى أكثرها مبدعا خلاّقا .

كان الخليل يقول : «اذا أردت أن تعلم العلم لنفسك فاجمع من كل شىء شيئا، واذا أردت أن تكون رأسا فى العلم فعليك بطريق واحد» (٦) .

وهو كما يبدو لنا قد سار فى كلتا الطريقين، قضى الجانب الأول من حياته بالأخذ من كل شىء بطرف، حتى اذا نضج عقله سلك طريقا واحدا، وتخصص باللغة والنحو، وكلاهما من واد واحد، وجاء بالعروض، ورسم المعجم، ووضع أسس المدرسة البصرية فى دراسة اللغة والنحو .

ويظن كثير من الباحثين أنه كان ملمّا باليونانية أو متأثرا بها كل التأثر، فالبستانى يستظهر أنه «كان له المام تام باليونانية» (٧)، والأستاذ ماسنيون يرى «أن نفوذ منطق أرسطو على نحو العرب بدأ من عهد الخليل» (٨)، وعلى الجارم كان يعتقد أن الخليل تأثر باليونانية كثيرا (٩) .

وجميع هذه الآراء كسابقاتها لاتستند الاّ الى الحدس والتخمين، فلم يتوفر لأصحابها أدلة قاطعة على أنه كان يعرف اليونانية، كما لم يتوفر لهم أو لغيرهم مايدل على أن النحو العربى بوجه عام قد تأثر فى نشأته الأولى، أو فى عهد الخليل بالأجرومية اليونانية فضلا عن أن بعض الباحثين من

---

(٦) معجم الادباء جـ١ ص ٧٣ .

(٧) دائرة معارف البستانى جـ٧ ص ٤٦١ .

(٨) انظر تعليق الاستاذ ماسنيون على محاضرة الدكتور .

(٩) انظر تعليق الاستاذ الجارم على محاضرة الدكتور .

المستشرقين يرى أن النحو العربى أثر من آثار العقل العربى ، وأن العرب «قد أبدعوا علم النحو فى الابتداء ، وأنه لايوجد فى كتاب سيبويه الا ما اخترعه هو والذين تقدموه» (١٠) .

وما رواه الزبيدى من «أن ملك اليونانية كتب الى الخليل كتابا باليونانية فخلا بالكتاب شهرا حتى فهمه ،فقيل له فى ذلك فقال : قلت انه لابد من أن يفتح الكتاب ببسم الله أو ما أشبهه فبنيت أول حروفه على ذلك فاقتاس لى . فكان هذا الأصل الذى عمل له الخليل كتاب المعمى» (١١) .

واستند البستانى الى مارواه الزبيدى فاستظهر أن الخليل كان له المام تام باليونانية .

ما رواه الزبيدى زعم يحمل بين طياته دلائل الوضع والاختلاق، لأنه ان كان يعرف اليونانية فلا معنى لأن يعتكف فى بيته شهرا حتى يفهمه ويترجمه ، وان لم يعرف اليونانية فكيف يستطيع أن يترجم الكتاب ؟ ولن يستطيع ترجمته ولو بقى فى بيته شهورا .

ثم ملهذا الذى زعم الزبيدى أن الخليل تيقنه من أنه لابد أن يفتح الكتاب ببسم الله أو ما أشبهه ، وكيف يتوهم الخليل أن الكتاب مبدوء بالبسملة وهو مرسل من نصرانى ؟!

وهذا هو الذى دفع بعض الأدباء الى أن يتكلف فيزعم أن ملك اليونانية أمر كاتبه أن يبعث اليه كتابا عربيا بحروف يونانية (١٢) ، ليتسلى هذا الملك بامتحان الخليل الذى افتخر به العرب على اليونان وغيرهم .

---

(١٠) هذا رأى للاستاذ ليتمان فى محاضراته .

(١١) انظر ترجمة الخليل فى طبقات النحويين للزبيدى «نسخة مصورة بدار الكتب» .

(١٢) انظر ص ٧٤ من «قصة عبقرى» من سلسلة اقرأ .

ولو عرف الخليل سر هذا الكتاب ، واستنتج أن لغته عربية ، ثم اعتكف فى بيته شهرا ليعرف أصوات هذه الحروف من البسملة وغيرها ، فلا دلالة فيه على أن الخليل كان يلم باليونانية الماما تاما كما استظهره البستانى من رواية الزبيدى .

على أن الخليل لم يكن مغمض العينين عما كان يدور حوله من تيارات أجنبية كانت معروفة فى البيئة البصرية ، غير أن هذه التيارات ليست من الوضوح الى حد أن نميز بين موضوعاتها ، وليست الا أفكارا عامة تتناقلها الأذهان ، وتركت ظلالها فى النفوس .

وقد ظهرت هذه الظلال فى عقول المفكرين الذين سبقوا الخليل كالحسن البصرى ومعبد الجهنى وغيرهما من أوائل المتكلمين ، فما تقرأ لهم حتى تلاحظ الفرق الواضح بين أقوالهم وأقوال الأوائل الذين لم يتأثروا بهذه العقلية الجديدة التى تمخض عنها الاندماج .

والخليل أحد هؤلاء الذين نشئوا فى هذه البيئة وتأثروا بها ، ولا عجب اذن اذا رأينا تفكيره يحمل طابعا جديدا فيه خطوط حضارية جديدة ، وفيه ظلال من الدقة وعمق النظر .

وكان الخليل متكلما بشهادة الجاحظ وحمزة بن الحسن الاصفهانى ، ولكن آراءه الكلامية لم تصل الينا فلم نتعرف ملامحها ، ولم نستطع ردها الى الأصول التى انحدرت منها ، ولم نحس فى نحوه بأفكار أجنبية طارئة قد اقتبسها اقتباسا ، وكل ما نلمسه فيه هو هذا العمق فى نظره الى الموضوعات والمسائل ، وهذه الدقة فى ادراك القضايا النحوية .

ولا يسعنا الاطمئنان الى النغمات التى تعودنا سماعها من الذين يعشقون

التكهن على حساب التراث العربى الاسلامى ، ويحاولون تحت ستار من صدق النية وحب البحث أن يرجعوا كل شيء الى أصل أجنبى ·

ولو تتبعنا تاريخ النحو لوجدناه يخطو خطوات طبيعية من البساطة الى التعقيد ، ومن الفطرة الى النظر العلمى ، فلم ينشأ النحو مرة واحدة ، ولم ينسب الى طبقة معينة ، وانما تعاونت على تكوينه أجيال كانوا مدفوعين أولا بدافع دينى يهدف الى حفظ القرآن من اللحن بعدما شاع فى لغة التخاطب نتيجة حتمية لهذا الامتزاج بين عناصر مختلفة تباعدت مناشئهـا وتباينت لغاتها ، واضطرتها الظروف الى الارتباط بروابط الدين والمعاملات ، ثم بدافع حاجة هذه الشعوب الأجنبية الى علم يحقق لهم معرفة هذه اللغة التى اضطروا الى تعلمها ليعيشوا فى ظل الحكم العربى الاسلامى ·

والأمة العربية الاسلامية لم تبق على طور واحد ، وانما هى ككل أمة شقت طريقها الى الحياة الحضارية المستقرة ، مرت عليها أطوار وأطوار ، وانتقلت من البداوة التى تنشأ عليها كل أمة جديدة عهد بالتكوين الى الحضارة المستقرة ، ولم تقفز اليها دفعة واحدة ، ولكنها امتازت بأشواطها السريعة ، لأنه قد ساعد على هذا التطور السريع عوامل طبيعية واجتماعية ، فقد هاجرت الى البلاد المفتوحة وهى بلاد غنية خصبة ذات موقع تجارى ممتاز ، ووارثة حضارات ومدنيات ، فامتزجت بعناصر أجنبية ، تحمل فى أعماق نفوسهـا ما ورثته من ميراث يتصل بالفكر ، وحملت هى ما ورثته وما نشأت عليه من ثقافة وتقاليد ، وامتزج كل ذلك فى صعيد البيئات الجديدة ، وتلقحت الأفكار بعضها ببعض ·

فلما فتح الخليل عينيه للحياة العلمية بهرته هذه الألوان الثقافية ، وأحسّ بالدافع يدفعه قويا الى مزاولتها ، وساعده على تحقيق غايته ما فطر عليه من ذكاء وقدرة عقلية ·

رأى تراثا عربيا ضخما يتمثل بالشعر والأدب وبالدراسات القرآنية ، ورأى مركبا ثقافيا ترجع أصوله الى عقليات أجنبية مختلفة سماه الدكتور طه حسين ثقافة شرقية ، هى ما عرفته الأمم الشرقية من تراث حضارى وثقافى تمتد جذوره الى أقدم العصور ، وخبر هذا وذاك فأكسبته هذه الخبرة عقلية خاصة ، ولوّنت نفسه بألوان جديدة •

وليس كثيرا على عربى مثقف موهوب كالخليل أن يبدع فى دراسة ما يتناوله من موضوعات ، وأن يثوب بالنتائج الباهرة كما فعل فى العروض واللغة والنحو •

فالخليل متأثر قبل كل شىء بالعقلية البصرية ، وهى عقلية لم تكن عربية خالصة ، بل كانت ملحقة بعقليات أجنبية شهدتها البصرة منذ تمصيرها وتتابع الهجرات اليها •

أما الظن بمعرفة الخليل اليونانية وتأثره بها كما سبقت الاشارة اليه فمصدره هذا الاتجاه الذى وجّه هو النحو اليه ، وهذا المنهج الذى امتازت به دراسة العربية فى عهده ، وهذا الميل الى القياس والتعليل فى تنظيم دراسة النحو واستخراج أصوله وقواعده •

وليس فى هذا دلالة مقنعة ، لأن الخليل كان قد سبق بفكرة عامة عن القياس ، وكان قد عاصر مدرسة الفقه القياسية التى نشأت فى الكوفة ، وقد سارت كلتا المدرستين القياسيتين فى خطوات طبيعية ، ففى كل منهما نشأ القياس فطريا أوليا دعت اليه ظروف ملحة وفى كل منهما ظهر أناس تناولوا هذا القياس الفطرى ، وأخذوا ينظمونه تنظيما علميا •

نشأ القياس الفقهى منذ العصر الاسلامى الأول عند جماعة من الصحابة والتابعين ، وظهر من بعدهم فقهاء يفتون بالرأى كمحمد بن أبى ليلى الذى

يقول فيه ابن النديم انه «كان يفتي بالرأى قبل أبى حنيفة» (١٣) ، ثم جاء أبو حنيفة وتلميذاه محمد بن الحسن وأبو يوسف فنحوا بالقياس نحوا علميا •

ونشأ القياس النحوى عند جماعة من النحويين عاشوا قبل الخليل ، وقبل أن يعرف الدارسون ماترجم من منطق أرسطو وعلوم اليونان الأخرى بزمن طويل • منهم عبدالله بن أبى اسحاق الذى قال عنه المؤرخون : «انه كان شديد التجريد للقياس» (١٤) ، «وأنه كان أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل» (١٥) ، ثم جاء الخليل بن أحمد فنحا بالقياس نحوا علميا امتازت به المدرسة البصرية ، وأصبح فيها أصلا من أصولها العلمية فيما بعد •

ولم يتأثر الدارسون بمنطق اليونان تأثرا مباشرا فيما نرى الا بعد أن عرف فى البيئات العلمية ، وأقبل الدارسون على دراسته ، وكان النحويون من بين هؤلاء الذين درسوه ، وتأثروا به فظهرت آثاره فى مؤلفاتهم •

واذا وازنت بين كثير من مؤلفات النحاة الذين أدركوا عصر الترجمة – وشرح أبى سعيد السيرافى لكتاب سيبويه فى مقدمة هذه الأمثلة – وبين نحو الخليل الممثل فى كتاب سيبويه ، وجدت بين الطريقتين فروقا وفروقا هى مابين الطريقة العلمية والطريقة الفنية ، فطريقة الخليل لغوية ونحوه يغلب عليه الحسّ اللغوى ، ويبنى على دعائم قوية من التذوق للأساليب العربية ، بالرغم من محاولاته لاخضاع النحو لقوانين العلم وأحكام العقل •

وطريقة المتأخرين علمية ، ونحوهم نحو مفلسف قد عنوا فيه بالجانب اللفظى وعنوا بالعلل العقلية ، وقالوا بالعلل الثوانى والثوالث ، وراحوا

---

(١٣) فهرست ابن النديم

(١٤) نزهة الالباء ص ٢٢ •

(١٥) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١١ •

يمعنون فى استخراج الصور والوجوه الاعرابية ، مهملين جانب القصد والمعنى مما تجاوز بالنحو حدوده الطبيعية .

فكل ما يقال عن تأثر النحو فى عهد الخليل بمنطق أرسطو تأثرا مباشرا فى المنهج والموضوع كما يقول الدكتور مدكور ايغال فى الحدس وتمسك بأهداب الفروض .



الفصل الثالث

نحو الخليل

حين ندرس النحو هنا ندرسه بمعناه العام كما كان الخليل يفهمه ، وكما كان النحاة في عهده يفهمونه . لست أقصد منه الى هذا المفهوم الضيق الخاص الذى عرف بعد الخليل بزمن ، والذى يقتصر على دراسة أحوال الكلمات من حيث اعرابها وبناؤها ، فلم تتميز هذه الدراسة عن مجموعة الدراسات العربية الا بعد حين ، ولكنى أقصد الى هذه الدراسة العامة التى تتناول الكلمات أصولا وبناءا وحركات فتشمل دراسة الحروف أو الأصوات اللغوية مفردة ومركبة، ودراسة الكلمات بناءا واشتقاقا ، ودراستها بناءا و اعرابا .

أو بعبارة أخرى لعلها أوفى بما نريد الى التعبير عنه : تشمل دراسة الكلمة مفردة لفهم بنائها العام فى العربية ، ودراستها فى الجملة لفهم دلالتها على معنى من المعانى التى أراد العرب الى التعبير عنها .

لقد خطا الخليل بهذه الدراسة خطوات واسعة ، وتعجل تكوينها فى زمن تقتضى ظواهر الأشياء أن تتأخر عنه ، واختصر المسافة والزمن اللذين ينبغى أن تقطعهما لكى تصل الى المستوى الذى وصلت اليه ، وتوصل من ذلك الى نتائج باهرة حقا تدعو الى كثير من الاعجاب .

وبهذا الاعتبار ، وبما توصل اليه ، وما وضعه من قواعد ومصطلحات يمكن أن نعده الواضع الأول للنحو بوصفه علما منظما له أصوله وقواعده ، وان سبقه الى الكلام فى بعض أبوابه ومسائله علماء راحوا يفكرون فى هذا الأفق العلمى الجديد ، منذ أن احتاجت الحياة الى تنظيم النشاط اللغوى ،

وبذل جهد دراسى فيه ، ومنذ أن توجت هذه الجهود بعمل أبى الاسود الدؤلى المعروف •

ولكن آراءهم فيما بحثوا فيه من مسائل لاتتعدى فى الغالب أن تكون خطرات جزئية لم تنتظم مسائل النحو كما انتظمتها أعمال الخليل •

وسوف أسجل من هذه النتائج مايؤيد قولى ، وسأعرض للموازنة بينها وبين ما توصل اليه الباحثون المحدثون ، وسأعرضها عرضا لايتجاوز كونه وصفا لها ، فان وافقت أعمال المحدثين والا فقد بذل الخليل أقصى ما يستطيع فى سبيلها •

بعض هذه الأعمال التى كان للخليل فيها نشاط ملحوظ قد سبق الى أصوله ، وبعضها كان هو البادىء به والواضع لأسسه •

ومن هذه الأعمال التى لم يسبق اليها ، وكان هو البادىء بها والمتفطن لها دراسة الأصوات اللغوية ، وقد جاءت التفاتته اليها يوم أن فكر فى دراسة اللغة دراسة مبنية على التفقه فيها ، وعلى ادراك الحس اللغوى عند العرب •

(١)

مذهب الخليل في اللغة

لو كان أثر الاختلاط مقصورا على اللحن لهان الأمر وخف العبء على المهتمين بأمر القرآن واللغة ، لأنهم فعلوا فى سبيل ذلك ما استطاعوا أن يفعلوه مما يكفل لهم التغلب على اللحن ، فقد نقطوا الحروف اعرابا واعجاما، ووضعوا علامات أخرى للادغام والهمز والتشديد ، وغايروا بين علامات الاعراب وعلامات الاعجام ، لئلا يلتبس الأمر على القارئين • ولكنه تجاوز ذلك الى بناء الكلم أيضا ، فقد أدخلت العناصر الأجنبية معها كثيرا من ألفاظها ، وشاعت هذه الألفاظ ، وصقلها الاستعمال ، وغير شيئا من صيغها ، وحرّف شيئا من أصولها حتى كادت تخفى ملامحها الأصلية ، ولذلك أصبح العبء على الباحثين ثقيلا واضطرهم ذلك الى التفكير فى الوسائل التى تكفل لهم سلامة اللغة ، فراحوا يجمعونها من مصادرها الصحيحة ، واستعانوا بالرواية حتى راجت سوقها ، وكثر الرواة ، وأصبحت الرواية وسيلة من وسائل كسب العيش ، وعمد كثير من الرواة الى الكذب والوضع ، وكان هؤلاء يجدون رواجا عند كثير من العلماء الذين لم يتفقهوا فى اللغة ، وتنبه اللغويون الى ذلك ، وأدركوا أنه ليس كل العرب ممن يصح الأخذ عنه ، فمن العرب من تأثر بالأجانب كثيرا لمجاورته اياهم فلا ينبغى الأخذ عنه ، وانما يجب أن تؤخذ اللغة عمن لم تشب لغتهم شائبة من عجمة ، وان تأثروا بالأجانب فليس تأثرهم بهم مباشرا •

أخذ اللغويون والأدباء يتتبعون كلام العرب ، ويرصدون استعمال ألفاظهم فى ثنايا الكلام من الشعر ، وأفواه الفصحاء من العرب بالتجوال فى البوادى حينا ، وبالاتصال بمن يقصد الى الأمصار من فصحاء الناس وعلمائهم

بالسير والأمثال حينا آخر ، وقد كانت الأسواق العربية مقصدا للغــويين والنحاة ، يجدون فيها ما يبتغون من بضاعة لغوية وأدبية يعودون بها لتقرير أصل أو تقعيد قاعدة ، فاجتمع لديهم مجموعات ضخمة من المفردات ، ولكنها لم تكن هى العربية كلها ، لأنهم قصروا الأخذ على جماعة من العرب عدوهم فصحاء وتركوا الأخذ من جماعات أخرى كثيرة ، وبذلك أضاعوا جانبا مهمّا من لغة العرب لعلهم لوعنوا به كما عنوا بالجانب الآخر لجنوا للعربية خيرا كثيرا •

والعرب الذين أخذوا عنهم هم : قيس وتميم وأسد وهـذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، أو بعبارة أخرى أوضح ، هم الذين كانوا يسكنون أواسط بلاد العرب ، والذين هم أكثر توغلا فى البداوة •

ومن العرب الذين لم يأخذوا عنهم : لخم وتغلب لمجاورتهم النبـط والفرس ، وأهل مصر واليونان ، وقضاعة وغسان واياد لمجاورتهم أهــل الشام ، وأكثرهم كان يقرؤ بالعبرانية أو بالسريانية ، وأزد عمان وعبدالقيس لمخالطتهم تجار الهند •

وربما رجعوا الى ناس غير عرب ممن صحت سلائقهم ، كما رجعوا الى خلف الأحمر والحسن البصرى وموسى بن سياه الأسوارى وغيرهم •

ومهما يكن من أمر فان اللغويين ورواة الأدب بذلوا جهدا كبــيرا فى جمع اللغة ورصدها فى مظانها ومواطن استعمالاتها ، وكان عملهم يستدعى من الباحثين اعجابا كبيرا ، وكانوا قد جمعوا من هذا الفصيح مجموعات كبيرة تدل ضخامتها على ما لقيت اللغة من عناية ، وعلى ما كان الرواة عليه من صبر عـلى البحث وطول أناة فى الجمع •

وجملة المصادر التى عنوا بالأخذ منها هى :

(١) القرآن الكريم ، وهو أصدق مرجع وأصح مصدر يرجع النحاة اليه فى تقنين القوانين واستخراج الأصول •

(٢) الشعر العربى الجاهلى والاسلامى ، وقد استشهدوا بشعر جرير والفرزدق والعجاج ورؤبة وأبى النجم ، وعنوا ببشار بن برد وأبى نواس فاستشهدوا بشعرهما [١] •

ويذهب السيوطى ـ مستندا الى ماروواه ثعلب عن الأصمعى ـ الى أن ابراهيم بن هرمة (ولد سنة تسعين للهجرة وعمّر طويلا حتى اجتاز منتصف القرن الثانى) آخر الحجج [٢] ، فهم يستشهدون على وجه التقريب بأشعار المحدثين الذين عاشوا حتى منتصف القرن الثانى للهجرة •

(٣) الفصحاء من العرب وهم سكان البادية الذين بعدوا عن التأثر بلغات أجنبية ، وقد مرّ علينا أسماء القبائل التى ينتمون اليها ، والفصحاء من غير العرب ممن صحت سلائقهم واطمأنّ العلماء الى قوة ملكاتهم كالحسن البصرى وموسى بن سياه الأسوارى وغيرهما •

(٤) الأمثال وهى النموذج النثرى الوحيد الذى اطمأن العلماء اليه فى صحة الاستشهاد به •

أما الحديث فلم يجوّز اللغويون والنحاة الأولون كأبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل بن أحمد وسيبويه من البصريين ، وكالكسائى والفرّاء وغيرهما من الكوفيين الاستشهاد به ، وتقفاهم المتأخرون من نحاة بغداد والأندلس اللهم الا جماعة من النحاة المتأخرين فى مقدمتهم ابن مالك [٣] •

---

(١) خزانة الادب لعبدالقادر البغدادى جـ١ ص ٢٠ (المطبعة السلفية) •
(٢) الاقتراح للسيوطى ص ٢٧ «طبعة حيدر آباد» •
(٣) الاقتراح للسيوطى ص ١٧ «طبعة حيدر آباد» ، مقدمة خزانة الادب للبغدادى ص ٢٣ •

وحجة المانعين من الاستشهاد بالحديث أن أكثر الأحاديث لم تنقل كما سمعت ، وانما رويت بالمعنى ، وكان سفيان الثورى يقول : «ان قلت لكم انى أحدثكم كما سمعت فلا تصدقونى انما هو المعنى» [٤] . وأن كثيرا من رواته ناس ليسوا بعرب ، وهؤلاء لم يتكلموا العربية عن طبع ، وانما كانوا يتكلمونها عن تعلّم ، فلم يستبعد وقوع اللحن فيما يروون ، بل وقع اللحن فى كلامهم وفيما يروون فعلا ، وان لم يكونوا قاصدين .

وكان نحاة البصرة بعد استقراءاتهم الطويلة لكلام العرب ، واستخراجهم القواعد والأصول قد اطمأنوا الى صحة ما استقرءوا واعتدوا بالقواعد التى استنبطوها ، حتى أصبحت هذه القواعد عندهم مقاييس مفروغا من صحتها ، فاذا ما اعترضتهم المسائل التى تخالف أصولهم تأولوها حتى يدخلوها فى عموم الأصول ، بينما نجد الكوفيين لايتلددون ولا يترددون فى القياس على الشاذ حتى انهم «لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوّبوا عليه» [٥] .

وبلغ من اعتداد البصريين بأصولهم أن غلطوا قراءات صح سندها ، كما فعلوا مع حمزة فى قراءته : «واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام» (بكسر الميم) ، فقد خطّأ نحاة البصرة هذه القراءة ، لأنه لايعطف عندهم ظاهر على ضمير مجرور الا باعادة الجار ، كما هو مذهب الخليل وسيبويه ، وعندهما أنه لايجوز ذلك فى النثر ، وقد يجوز فى الشعر «أن تشرك بين الظاهر والمضمر على المرفوع والمجرور اذا اضطر الشاعر» ، وأورد سيبويه شاهدا على اضطرار الشاعر الى ترك اعادة المجرور بقول الشاعر :

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب [٦]

---

(٤) المصدر السابق .
(٥) الاقتراح ص ٨٤ .
(٦) الكتاب جـ١ ص ٣٩١ ... الانصاف فى مسائل الخلاف مسألة (٦٥).

وأن غلطوا ابن عامر مقرىء أهل الشام فى قراءته قوله تعالى : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركائهم • وحجتهم فى هـــذا أن قواعدهم لاتجيز الفصل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول فى غير ضرورة الشعر (٧) •

وتخطئة هذين القارئين وغيرهما ، ورميهما بالجهل بأصول العربيـة مظهر من مظاهر النزاع بين منهج المحدّثين الذين يهمهم صحة السند دون التفات الى ما يحمله ، وبين منهج علماء العربية القائم على نقد المرويّ بقطع النظر عن السند •

فلما اجتمع للغويين والنحاة تلك المجموعات الضخمة من المرويات فى اللغة والشعر والأمثال اتجهت عنايتهم الى تدوين ماسمعوا وما رووا لحفظـه من الضياع ، ولم يهتموا بترتيبه وتصنيفه ، فكانوا يضعون الغريب الى جانب الشعر ، والنادرة الى جانب المثل ، فاذا تم لهم ما أرادوا اتجهت عنايتهم الى التأليف ، وقد خطا التأليف خطواته الأولى بالأمالى • كان الشيوخ يمـلون والتلاميذ يكتبون دون أن يعنى الشيوخ بتصنيف ما يملون ، وانا لنجد هذا ممثلا فى مجالس ثعلب «وهى مجالسات أملاها على أصحابه فى مجالســـة تحتوى على قطعة من النحو واللغة والأخبار ومعانى القرآن والشعر مما سمع وتكلّم عليه» (٨) •

ثم جاءت الخطوة التالية وهى تهدف الى تصنيف هذه المجمـــوعات الضخمة من المرويات بحسب مالها من معـان مشتركة أو بحسب مالها مـن موضوعات ، وألفت الرسائل فى ذلك ، كالتى تنسب لأبى زيد الانصارى وأبى عبيدة والاصمعى •

---

(٧) الانصاف ج ١ ص ٢٥٢ •
(٨) فهرست ابن النديم ص ١١١ •

وهاتان الخطوتان الأوليان قد تتمشيان مع جميع الثقافات الأدبية واللغوية ٠

ثم جاء الخليل بن أحمد ، فأراد أن يدرس اللغة لاعلى أساس الجمع كيفما اتفق ، ولا على أساس تصنيف المسائل بحسب المعانى ، وانما أراد أن يدرسها على أساس من فقه اللغة ، وعلى أساس علمى ٠ والنظر العلمى لازمة من لوازم الخليل الفكرية طغت على تفكيره وبحوثه ودراساته ، سواء أكان ذلك مما يتصل باللغة أم مما يتصل بالنحو ٠

وأول ما فعل لتحقيق هذا الغرض أن أخذ يدرس الحروف ، ويتذوقها، ويستخرج خصائصها وصفاتها ، لأنه رأى أن دراسة الحروف على هذه الصورة هى الدراسة الأولى التى يتوصل منها الى فقه اللغة وفهم بنائها ، فلابد أن يبدأ بها ، فليست الكلمات الا مجموعات من الأصوات ، ولكل صوت منها رمز دال عليه ، فليرجع اذن الى هذه الأصول التى تتكون منها الكلمات ، وينظر فيها ، ويدرس خصائصها ، وعلاقة بعضها ببعض ، ليتاح له أن يثوب بنتائج لها قيمة علمية ، وأحكام واقعية طبيعية ، وهكذا فعل ٠

وقد أدرك أن الحروف التى تتكون منها الكلمات أصوات ليس لها مكان الا الفم من الحنجرة الى الشفتين ، فأراد أن يحدّد مواضع هذه الأصوات من الفم وأن يرجع كل صوت من هذه الأصوات المسموعة فى أثناء الكلام الى موضعه الخاص وبتحديد مواضعها التى سماها مخارج استطاع أن يرتب الحروف ترتيبا جديدا ، وكان هذا بداية الكلام فى أصول علم جديد لم يسبق الخليل اليه ، وهو علم الأصوات ٠

(٢)

نشأة اللغة

بين العلماء منذ القديم خلاف فى نشأة اللغة ، فهل هى بوحى ؟ وهل هى باصطلاح ؟ وهل هى ظاهرة اجتماعية نشأت أول أمرها بمحاكاة الانسان أصوات بنى الانسان وأصوات الحيوانات وأصوات الأشياء ؟ ذهب الى كل رأى منها فريق •

ولعل أقدم هذه الآراء هو الأول القائل بان اللغة موحاة الى آدم ، وآدم هو الواضع الأول للغات جميعا ، وضع أسماء جميع المخلوقات من انسان وحيوان وجماد ، أو وضع أسماء ما كان وما يكون الى يوم القيامة ، أو وضع أسماء النجوم فقط أو أسماء الملائكة فقط •

وقد جاء فى التوراة : «وجبل الرب الاله من الأرض كل حيوانات البريّة وكل طيور السماء فأحضرها الى آدم ، ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البريّة» (١) •

ثم شاع هذا الرأى عند العرب فقال به من الفقهاء والمحدثين عبدالله ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع بن خثيم ، واستند القائلون بهذا الى قوله تعالى : وعلّم آدم الأسماء كلها •(٢)

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : «علمه الأسماء كلها وهى هذه

---

(١) سفر التكوين ـ الاصحاح الثانى •

(٢) البحر المحيط جـ١ ص ١٤٥ ، تفسير الطبرى جـ ، ص ١٧٠ ، روح المعانى للالوسى جـ ١ ص ١٤٥ •

التى يتعارفها الناس من دابّة وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها» (٣) . وكان معروفا عن ابن عباس أنه كان يعنى بالاسرائيليات ، ولعله اعتمد فى تفسير هذه الآية على ما جاء فى التوراة مما أثبتناه ، فبين ما جاء فى سفر التكوين وما جاء عنه تشابه واضح يؤيد اعتماده على التوراة فى تفسير هذه الآية .

وقال به من المتكلمين الأشعرى وأصحابه مستدلين على أن الواضع للغات كلها هو الله تعالى بقوله عزوجل : «وعلم آدم الأسماء كلها» (٣) .

وقال به من الأصوليين ناس كثيرون ، منهم ابن الحاجب فى كتابه «منتهى الوصول الى علم الأصول» .

وتناول اللغويون هذه النظرية ، فمال اليها فريق منهم ، وكان أبو على الفارسى يقول : هى من عند الله محتجا بقوله تعالى : وعلم آدم الأسماء كلّها . (٤)

وكان ابن فارس يذهب الى هذا أيضا ويقول : «ان لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله جل ثناؤه : وعلم آدم الأسماء كلها» (٥) . وكان ابن جنى فى أحد رأييه يميل الى هذا أيضا . (٦)



أما الرأى الثانى فهو القائل بأن الواضع هو البشر ، وأختلف أصحاب هذا الرأى ، فمنهم من ذهب الى أنه آدم وغيره ، وهم المعتزلة ، ويسمى مذهبهم مذهب الاصطلاح ، ومنهم من ذهب الى أن الواضع جماعة من الحكماء

---

(٣) منتهى الوصول الى علم الاصول لابن الحاجب ص ٢٠ . روح المعانى جـ١ ص ١٨٨ .
(٤) الخصائص لابن جنى جـ ١ ص ٣٩ .
(٥) الصاحبى لابن فارس ص ٥ .
(٦) الخصائص جـ١ ص ٤٥ .

استعانوا على وضع اللغة بالاشارة الى المسميات وتكرارها كما يفعل المربون فى تلقين الأطفال «كأن يجتمع حكيمان او ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا الى الابانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد سمة ولفظا اذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز من غيره ، وليغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره لبلوغ الغرض فى ابانة حاله ، بل قد يحتاج فى كثير من الأحوال الى ذكر مالايمكن احضاره، ولا ادناؤه ، كالفانى وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد كيف يكون ذلك لو جاز ، وغير هذا مما هو جار فى الاستحالة والبعد مجراه ، فكأنهم جاءوا الى واحد من بنى آدم فأومئوا اليه وقالوا : انسان انسان انسان ، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق »(٧) .

أما الرأى الثالث فهو القائل بأن اللغة ليس لها واضع ، وانما هى ظاهرة اجتماعية ، أوجدتها المجتمعات الانسانية يوم احتك الانسان بأخيه الانسان ، وشعر بالحاجة الى التعبير عما فى نفسه ، والى التفاهم مع أخيه الانسان ، وقد نشأت أول أمرها من محاولة الانسان حكاية الأصوات الطبيعية ، وخضعت هذه الظاهرة للتطور شأن كل ظاهرة اجتماعية ، وهو أقرب الآراء من المعقول (٨) .

ولا يعنى هذا الرأى أن اللغة كلها محاكاة للطبيعة ، ولكنه يعنى أنها نشأ أول أمرها بمحاكاتها ، ثم سارت فى طريق الرقى ، حتى تباعد مابين مدلولاتها الحسية الأولى ومدلولاتها المعنوية التى آلت اليها ، ولكل كلمة من الكلمات تاريخ طويل معقد ، نشأت فيه أول الأمر حسية ساذجة ، ثم أخذت

---

(٧) الخصائص جـ١ ص ٤٢ .

(٨) منهج البحث فى الادب واللغة لانطوان مايبه ، لانسون ص ٦٢ «ترجمة الدكتور مندور» نشأة اللغة عند الانسان والطفل للدكتور على عبدالواحد وافى ص ٣١ فما بعدها .

تتطور وتتعقد بالتدريج ، تحف بها أجواء مختلفة من مزاج شخصي خاص وآخر اجتماعي عام ، ومن عادات اجتماعية وعادات فكرية ، حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، ولا تزال سائرة في طريق التقدم والتطور .

وقد لمح القدماء هذا الرأى لمحا ، وكان ابن جنى يتحدث عن هذا الرأى تحدثه عن رأى قديم ، فهو اذن أقدم عهدا من عهد ابن جنى ، فقد قال : «ذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح وحنين الرعد ، وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبى ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد »[٩] . ومال ابن جنى الى هذا الرأى ايضا وان لم تقو حجته عنده كما كان يقول .

وكان الخليل يميل الى هذا الرأى ، وقد وردت عنه اشارات تؤيد ميله اليه ، سنعرض لها حين نعرض لدلالة اللفظ على المعنى ، وأستطيع أن أقول مطمئنا انه هو صاحب هذا الرأى بين علماء العربية ، لأنى لم أقف لغيره ممن سبقه على كلام فيه ، ولست أزعم أن للخليل فى هذا نظرية تامة التكوين ، ولكنى أزعم أنها كانت ماثلة فى ذهنه فكرة لم يتم لها النضج بعد .

كان الخليل فيما نرى متمثلا لهذه الفكرة حقا ، مستندين فى ذلك الى ما سنورده من أمثلة ، والى اعتداده بالاستعمال وأثره فى كثير من الأبنية والصيغ والتعبيرات العربية ، فان الذى يذهب الى أن اللغة توقيف أو أنها موحاة الى آدم ، الى غير ذلك من الآراء ، لايؤمن بالاستعمال ، ولا يعتد بالتطور العامل فى القضايا الطبيعية والاجتماعية .

---

(٩) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٤٥ .

(٣)

دلالة اللفظ على المعنى

واستتبع الخلاف فى نشأة اللغة خلافا فى دلالة اللفظ على المعنى ، فهل هذه الدلالة طبيعية أو غير طبيعية ؟ فمن قال بوجود واضع معين ذهب الى أنه ليس بين اللفظ والمعنى مناسبة طبيعية ، لأن المناسبة بينهما انما تحققت بوضع الواضع هذا اللفظ لهذا المعنى . ومن هؤلاء ابن الحاجب فقد صرح : «بأنه ليس بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية» (١) .

ومن قال ان اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت أول أمرها بمحاكاة الانسان لأصوات الطبيعة ، ذهب الى أن المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ، لأن اللفظ انما هو تعبير طبيعى لما سمعه الانسان من أصوات الآدميين والحيوانات والأشياء .

واذا تأملنا أقوال الخليل عرفنا أنه كان ممن يذهب الى وجود العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله . قال الخليل : «صرّ الجندب صريرا ، وصرصر الأخطب صرصرة ، كأنّهم توهموا فى صوت الجندب مدّا ، وتوهموا فى صوت الأخطب ترجيعا» (٢) ، أو قال : «كأنهم توهموا فى صوت الجندب استطالة ومدّا ، وتوهموا فى صوت البازى تقطيعا ، فقالوا صرصر» (٣) . وقال ايضا : «يقولون صلّ اللجام ، تمدّ اللام وتثقلها ، وقد خففتها من الصلصلة ، وهما جميعا صوت اللجام ، فالتثقيل مدّ والتضعيف ترجيع» (٤) .

---

(١) منتهى الوصول الى علم الاصول لابن الحاجب ص ١٩ .
(٢) التهذيب للازهرى جـ ١ ص ٢٢ «مخطوطة رقمها (٩ لغة) فى دار الكتب»
(٣) الخصائص ، جـ١ ص ٥٤٤ .
(٤) التهذيب للازهرى جـ ١ ص ٢٢ .

فقد أدرك الخليل أن الاختلاف بين اللفظين الدال أحدهما على صوت الجندب والدال ثانيهما على صوت البازى يرجع الى الاختلاف بين طبيعة الصوتين ، وليس هذا الصوت الممتدّ فى (صرّ) الا استشعارا بما فى صوت الجندب من امتداد ، ولذلك حين لاحظوا التقطيع فى صوت البازى جاءوا باللفظ الدال عليه وفيه تقطيع ، وهذا التقطيع متمثل فى هذا اللفظ المرجّع المكون من مقطعين وهما صَرْصَرْ .

وتتمثل هذه الدلالة الطبيعية :

(١) باجتماع جملة من الأصوات قصد بها الى محاكاة الطبيعة كالقهقهة والغمغمة والزفير والشهيق والشخير من أصوات الانسان ، والصهيل والشحيج والزئير والهدير والطنين والزقزقة والمواء والعواء والرغاء من أصوات الحيوان ، والخرير والهزيم والصرير وغيرها من أصوات الأشياء .

ومن هذا دلالة مازاد على البناء على مازاد على المعنى ، وقد أشار الخليل اليه حين عرض للفرق بين ما تؤديه النونان الثقيلة والخفيفة ، وهاتان النونان عنده تدلان على التوكيد ، الا أن الفرق بينهما فى الشدة التى نراها فى التوكيد بالثقيلة ، وقد عرضت لها الشدة تبعا لتضعيف النون .

قال الخليل : «انهما للتوكيد كما التى تكون فصلا ، فاذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكّد ، واذا جئت بالثقيلة فانت أشد توكيدا»(٥) .

(٢) وباجتماع حركات على صورة معينة ، وللحركات عند الخليل أثر كبير فى حياة اللفظ ، فأصل البناء عنده هو الصوت الساكن ، وهو ساكنا

---

(٥) الكتاب ج ١ ص ١٤٩ .

لايمكن النطق به ، ولا يدل على معنى من المعانى ، واذا أريد النطق والدلالة على المعنى استعين بهذه الحركات •

ومهما يكن من أمر فطائفة المصادر التى تأتى على فَعَلان مما توالت فيه الحركات اذا أنعمت النظر فيها وجدت فى معانيها حركة واضطرابا وتقلبا ، فلم يقولوا : غَلَيان ودَوَران وجَوَلان وطَوَفان الا حيث يكون التقلب والتحرك والاضطراب •

وقد نسب ابن جنى هذا الى سيبويه ، فقال : «قال سيبويه فى المصادر التى جاءت على الفَعَلان انها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو النَقَزان والغَلَيان والغَثَيان ، فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال» (٦) •

والحق أن الخليل هو المصدر الذى صدر عنه سيبويه فى تقرير هذا ونحوه ، وسيبويه نفسه يؤيدنا فى هذا ، فانه بعد أن ذكر فى كتابه ما جاء على فَعَلان ، وما جاء على فعيل قال : «وهكذا مأخذ الخليل» (٧) •

والحق أيضا أن الخليل هو رئيس المدارس التى عنيت بمثل هذه الدراسات اللغوية الفقهية ، كمدرسة أبى علىّ الفارسى وتلميذه ابن جنى ، ومدرسة الحاتمى وتلميذه السكاكى ، وهو الذى مهّد لها السبيل لدراسة اللغة على أساس هذا المبدأ اللغوى الطبيعى ، ولا نعنى أنه تكلم فى كل ما عرض له هؤلاء ، ولكننا نعنى أنه شق الطريق لهم فتعهدوا السير فيه من بعده ، فقد حذا سيبويه حذوه ، ووصل الى أشياء جديدة أثبتها فى كتابه فى الأبواب التى عقدها للمصادر ، ولكنها لاتتعدى أن تكون فروعا وجزئيات تتصل بالمبدأ العام الذى قرره الخليل •

---

(٦) الخصائص لابن جنى جـ١ ص ٥٤٤ •
(٧) الكتاب جـ ٢ ص ٢١٨ •

وجاء ابن جنى فعقد فى الخصائص بابا فى امساس الألفاظ لأشباه المعانى، ذكر فيه أن الذى نبّه الأذهان اليه هو الخليل بن أحمد ، وذكر فيه قولا للخليل وقولا لسيبويه ، ثم قال : «ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حذياه ومنهاج ما مثلاه» (٨) .

وهو باب طويل ذكر فيه ماوصل اليه من مسائل تدخل فى هذا الأصل العام ، ومن هذه المسائل مالم أعثر للخليل ولا سيبويه على رأى فيه ، من نحو ما التفت اليه من فرق بين «خضم» و «قضم» من أن «الخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ، ونحو ذلك» وعلل ذلك بقوله : «فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث» (٩) .

وليس الخضم والقضم وأمثالهما الا ألفاظا قصد بها الى محاكاة الصوت الذى يحدث من قطع الأجسام ، وما دامت المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ، كما يذهب الخليل اليه ، فان المتكلمين بهذه الأصوات وأمثالها كانوا يلاحظون ما يسمعون من أصوات حين يقطعون الرخو والصلب ، وكانوا يقصدون الى محاكاة ما يسمعون ، وكانوا لهذا يستعملون الأصوات اللغوية بمالها من خفاء وظهور للتعبير عما يسمعون ، فجاءت الخاء وهى صوت خفى رخو للخفى من الأصوات الطبيعية المسموعة من قطع الأجسام الرطبة ، وجاءت القاف وهى صوت شديد صلب للشديد من الأصوات المسموعة من قطع الأجسام الصلبة .

(٨) الخصائص ج ١ ص ٥٤٤ .
(٩) الخصائص ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ .

(٤)

الاشـــتقاق

ويتصل بالنظرية القائلة بوجود المناسبة بين اللفظ والمعنى هذه الظاهرة اللغوية التى سماها فقهاء اللغة بالاشتقاق •

والاشتقاق عندهم ثلاثة أنواع : صغير وكبير وأكبر •

أما الاشتقاق الصغير فيتحقق بأخذ بناء من بناء آخر مع المحافظة على أصل المادة وترتيبها ، وعلى المعنى المستفاد منها ، كاشـــتقاق ضرب ويضرب وضارب ومضروب من مادة (ض ر ب) ، وكلها يشترك فى تضمنه الضـاد والراء والباء مرتبة كما هى فى المصدر ، وفى المعنى الذى تدل عليه هـــذه الحروف مجتمعة •

وأما الاشتقاق الكبير فهو أخذ بناء من بناء مع المحافظة عـلى المعنى ، ولا يشترط فيه الترتيب الذى هو فى المادة التى افترض أنها الأصل ، كاشتقاق رضب وبرض وربض وضبر وبضر من مادة (ض ر ب) •

وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تشترك الأبنية فى حرفين ، وتختلف فى الحرف الثالث ، كفلق وفلع ، وكقطع وقطف ، وكقصم وقصف ، وكلها تفيـد معنى القطع • وهو مبنى على فكرة أن المعنى العام فى الكلمات يتوقف عـلى صوتين فقط ، أما الصوت الثالث المكمل للوحدة الكلمية فوظيفته تقتصر على تخصيص المعنى وتحديده • فالمعنى العام فى نحو قصّ وقصم هو الكسر ، والحرف الثالث هو الذى يحدد هذا المعنى ويخصصه ، فالصاد الثانيـــة فى (قصّ) خصصته بالعنق ، والميم فى (قصم) خصصته بالظهر • والمعنى العام فى

نحو أخرم وأخرب هو الشق والحرف الثالث يخصّصه ويحدّده ، فالميم في (أخرم) خصصته بالأنف ، والباء في (أخرب) خصصته بالأذن .[1]

واذا أرخ الاشتقاق فينبغى أن يؤرخ بالخليل وأعماله اللغوية ، فهو زعيم هذه المدارس التى عرضت للاشتقاق ، بل لم يكن عمل العلماء بعده فى الغالب الا شرحا لمجمل أقواله ، وتوضيحا لما انبهم منها ، وتكميلا لما فاته منها .

فالاشتقاق الصغير قد وفى الخليل وتلاميذه وطبقته حقه من البحث والدرس فلم يزد المتأخرون فيه شيئا ، والاشتقاق الكبير من عمل الخليل أيضا ، وان كان عمله فيه محدودا ، لأنه لم يرم منه الى أن يدرسه ، وانما رمى الى الاستفادة منه فى حصر اللغة العربية فى تقاليب كلماتها وتصاريفها ، ولم يثبت من هذه التقاليب الا ما ثبت له استعمال العرب اياه . فاذا كان أبو الفتح ابن جنى أول من لقبه بهذا الاسم ، كما صرح فى الخصائص ، فان الخليل أول من التفت اليه ، وشرح طريقته ، وبنى تأليف كتاب العين عليه ، لأن كتاب العين مؤلف من طوائف ، كل طائفة منها تحتوى على تركيب من التراكيب ، ووجوهه المحتملة المستخرجة منه . ثم جاء ابن جنى ، فحاول اثبات الاطراد فى اشتراك الصيغ والتقاليب فى المعنى المستفاد من المادة التى افترض أنها الأصل . وكان الخليل قد سبق الى القول بأن الكلمات الثنائية تتصرف على وجهين ، والثلاثية على ستة أوجه ، والرباعية على أربعة وعشرين وجها ، والخماسية على مائة وعشرين وجها ، هذا بالاضافة الى أن كثيرا من الكلمات الثنائية والثلاثية التى أثبتها الخليل فى كتاب العين كانت تشترك تقاليبها فى معنى واحد فى كثير من المواضع ، كعطّ وطعّ فالعطعطة تتابع الأصوات

(١) راجع كتاب فقه اللغة للثعالبى ص ١٥٦ فى التفريق بين قص وقصم وبين أخرم وأخرب وغيرهما .

واختلافها فى الحرب ، والطعطعة حكاية صوت اللاطع أو الناطع أو المتمطّق اذا لصق لسانه بالغار الأعلى (٢) •

وكعج وجعّ ، فمن عج عجعج ، يقال عجعجت بالناقة عطفتها الى الشيء ومن جع جعجع • يقال جعجعت الابل حركتها للاناخة (٣) •

وجاء فى مادة (قزع) القزع : قطع من السحاب ، الواحدة قزعة • وجاء فى مادة (زعق) : الزعاق ماء مرّ غليظ ، ويقال أرض مزعوقة : أصابها مطر وابل شديد •(٤) ولا يخفى ما بينهما من مناسبة ، الى كثير من الأمثلة التى نستبعد أن يكون الخليل قد أثبتها ثم لم يلتفت الى مابين التقاليب من تقارب فى المعنى •

والخليل لم يحاول أن يبعد فى التكلف ليؤكد أن هذه التقاليب تشترك فى معنى واحد ، كما فعل ابن جنى متذرعا باللجوء الى لطف الصنعة والتأويل فى تطبيق هذا المبدأ على الوجوه المختلفة ، فقد قال ابن جنى بعد أن عرض لمادة (ق و ل) وتصاريفها الستة : «على أنك ان أنعمت النظر ولاطفته وتركت الضجر وتحاشيته لم تكد تعدم قرب بعض من بعض ، واذا تأملت ذلك وجدته باذن الله» (٥) •

وقال أيضا عند عرضه للاشتقاق الكبير وعقد التقاليب الستة على كثير من الأصول : «وان تباعد شيء من ذلك ردّ بلطف الصنعة والتأويل اليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التركيب الواحد» (٦) •

لم يحاول الخليل أن يبعد فى التكلف لأنه ليس بصدد توضيح هذه

---

(٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢٣ طبع بغداد •
(٣) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٦ طبع بغداد •
(٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥٨ ، ٥٩ طبع بغداد •
(٥) الخصائص لابن جنى جـ١ ص ١١ ، ١٢ •
(٦) الخصائص لابن جنى جـ١ ص ٥٢٦ •

الفكرة وانما هو بصدد عمل آخر .

ثم ان للبيئة الفلسفية أثرها فى سلوك ابن جنى هذا المسلك الصناعى المتكلف ، لأن الكلمات بتقلبها فى الاستعمال قد تباعدت عن أصلها ، وأخذت تحيط نفسها بأجواء جديدة دقّت معها العلاقة بينها وبين الأصل الذى انحدرت منه ، فلم يستطع التعرف على الصلة التى تربط المشتق بالمشتق منه الا بعد اعمال النظر وارهاف الحس ، وبعد أن تقتضى هذه المحاولة ممن ينهض بها جهودا مضنية ، وبعد أن يتعرض لما تعرض له ابن جنى من تعسف وتكلف .

يضاف الى هذا أن اللغة لاتخضع لهذه العمليات الرياضية الدقيقة ، فالوجوه وان كانت بالنظر العقلى صحيحة مضبوطة ، لم تستعمل كلها ، بل أهمل الكثير منها ، كما صرّح الخليل ، ولم تسر الكلمات فى تاريخها الطويل وتطورها فى طريق واحدة ، ولم تتوفر لها ظروف استعمالية متشابهة ، حتى تستطيع الاحتفاظ بمدلولاتها فى تاريخها الطويل .

ولعل الخليل قد فطن لهذا حين اعتبر كل وجه من هذه التقاليب الستة فى الكلمات الثلاثية أصلا مستقلا ليس متفرعا من أصل مفترض ، حين قال : ان مثل جذب وجبذ ليس فيه قلب ، وانما كل واحد منها على حدة (٧) .

وأما الاشتقاق الأكبر فقد ذكر السكاكى أن الحاتمى هو الذى سمى به النوع القائم على فكرة أن المعنى العام فى الكلمات يتوقف على صوتين فقط ، أما الصوت الثالث فهو الذى يحدده ويخصصه ، فقد قال السكاكى : «وههنا نوع ثالث من الاشتقاق كان يسميه شيخنا الحاتمى رحمه الله الاشتقاق الأكبر .... الى أن قال : وانه نوع لم أر احدا من سحرة هذا الفن ، وقليل ما هم حام حوله على وجهه الا هو» (٨) .

---

(٧) الكتاب جـ٢ ص ٢٨٠ .

(٨) مفتاح العلوم للسكاكى ص ٧ «المطبعة الادبية» .

والحق أن ابن جنى كان قد عرض له حين عقد فى الخصائص بابا سمّاه : «تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى» ، وذكر فيه هذا ، ومثل له بنحو قرد وقرت وجبل وجبن وجبر [٩] ، وذكر فيه غير هذا مما ينبنى على الفكرة التى تبنّاها ، وهى فكرة أن المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ، والتى عبر عنها بقوله : تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى ، وامساس الألفاظ أشباه المعانى، وقرر فيه اقتراب الأصليين ثلاثيا أحدهما ، ورباعيا صاحبه ، أو رباعيا أحدهما ، وخماسيا صاحبه ، ومثّل له بنحو دَمِث ودِمَثْر ، والضبغطى والضبغطرى ، الا أنه لم يضع له الاسم الذى وضعه الحاتمى كما زعم السكاكى .

ومحاولة ابن جنى والحاتمى والسكاكى وان كانت جديدة فى الدراسة اللغوية وصادقة فى مواضع كثيرة ـ لم تبعد عن كونها تكلفا فى الاستخراج واغراقا فى التمحل والتكلف ، ومع ذلك فانها تستند الى أصل المبدأ الذى رأينا أن الخليل قرره ، وهو وجود المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله .

---

(٩) الخصائص جـ١ ص ٥٣٧ .

الفصل الرابع

الاصوات اللغــوية

كانت الحروف الهجائية تسير على النظام الأبجدى الذى عرف عند السريان ، وكان ترتيب الحروف فيه على النحو الآتى : أبجد ، هوز ، حطى، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ . ويغلب على الظن أن جمع الحروف فى كلمات على هذا النحو كان يهدف الى غاية تعليمية كما كان العلماء يفعلون فى جمع أحرف الزيادة فى كلمة «سألتمونيها» ، والأحرف الشــــديدة فى «أجدت طبقك» ، والحروف القمرية فى قولهم : «ابغ حجك وخف عقيمه» ، الى غير ذلك .

وتغير هذا النظام فى عهد الحجاج على يد نصر بن عاصـــم ، ورتبت الحروف ترتيبا جديدا اقتضته محاولة اعجامها ، ورتبت على أساس تشابه الأشكال والصور فبدئت بالثلاثيات ، ثم بالثنائيات ثم بالمفردات التى لا أشباه لها ، وتركت الهمزة حيث كانت فى النظام القديم ، أعنى فى بداية الحروف، لكى تبعد عن الألف اللينة فلا تلتبس بها . وأعنى بالألف اللينة التى لاتأتى الا ساكنة ، والتى يتوصل الى النطق بها بواسطة حرف يلحق بها قبلها ، وهى التى يعبر عنها فى طائفة الحروف بـ (لا) وليس المقصود من (لا) حرفا مكونا من لام وألف ، وانما المقصود منها هو الألف اللينة ، وجىء باللام للتوصل بها الى النطق بالألف[١] ، وأصبح ترتيب الحروف على النحو الآتى : أ ب ت ث ج ح خ د ذ الخ . وظل الناس يسيرون على هذا الى عهد الخليل .

---

(١) سر صناعة الاعراب لابن جنى – باب أسماء الحروف . «مخطوطة فى مكتبة الاستاذ ابراهيم مصطفى» .

فلما أراد الخليل أن يضع معجما يتضمن كلام العرب رتبه بحسب الحروف وبدأ عمله بتذوقها ، والنظر فيها ، فهداه هذا الى ترتيب جديد لم يشأ فيه أن يجعل الهمزة أو الحروف كما كان شأنها فى الترتيب الأبجدى القديم وفى ترتيب نصر بن عاصم ، لأنها فى نظره معتلة لايصح الاعتماد عليها، ولأنها مهتوة مضغوطة اذا رفّه عنها لانت فتحولت الى ياء أو واو أو ألف[٢] . ولافت وجهة نظره فى الهمزة قبولا عند بعض أئمة النحو ، فغلا أبو العباس ، فأسقطها من الحروف وعدها ثمانية وعشرين حرفا لاتسعة وعشرين[٣] .

فلما فاته الاعتماد على الهمزة لم يبتدىء بالياء لأنها ليست أول الحروف ، فكيف يبدأ اذن ؟ وأىّ الحروف عنده يصح الابتداء به ؟

فكّر الخليل فى أن يرتبها ترتيبا جديدا لايقوم على النظام الأبجدى ، ولا ينبنى على أساس التشابه فى الصورة ، لأن ترتيبها الأبجدى مضطرب لم يبن فى نظره على أساس معقول ، وترتيبها بحسب الصورة دعت اليه حاجة عارضة هى محاولة نقطها ، وكلا الترتيبين مبنى على التحكم ، فأراد أن يرتبها ترتيبا يدعو اليه النظر العلمى الطبيعى الذى أخذ عليه تفكيره ، وطبع عقليته بطابع خاص فاهتدى الى طريقة جديدة ، وأصبحت الحروف بها مرتبة على أساس من الواقع الطبيعى ، وبنى هذا الترتيب على ما لهذه الحروف من مواقف وارتكازات فى داخل الفم ، من الحلق الى الشفتين ، لأنه أدرك أن هذه الحروف تختلف طبائعها بحسب مالها من رنّات وأصوات ، فاستطاع أن يحدّد مدارج هذه الأصوات فى فراغ الفم وساعده على هذا ماكان له من معرفة بالنغم وأصولها .

وقد التفت ابن جنى الى الشبه بين الأصوات اللغوية وبين الأصوات التى

---

(٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ .

(٣) سر صناعة الاعراب ـ باب اسماء الحروف .

تسمع من الالات الموسيقية كالناى والعود ، ومثل الصوت الانسانى بصوت الناى ، وشبهه وهو يخرج مستطيلا متصلا لاتعترضه عقبـات ، ولا تقف دونه مقاطع الأصوات التى نسميها مخارج الحروف ، بصـوت النـاى الذى يخرج غفلا لا يعوقه وضع أصابع الزامر على ثقوبه ، وشبه اصطـدام الصوت بالمخارج بتقطيع صوت الناى بواسطة سدّ الثقوب بالأصابع ، ولكنه أورد هذا التشبيه على أنه تمثيل لم يقصد به الى تبيين علاقة بين صوت الانسان وصوت الناى ، ولكنه قصد به الى الاصابة والتقريب كما يقول(٤).

والحق أن العلاقة بينهما متينة الى حد أن تنوع الأصوات بحسب مالها من مقاطع ومخارج موسيقى لها وقع على الآذان كأى وقع موسيقى .

وقد أدت هذه المحاولة ـ أعنى محاولة ترتيب الحـروف بحسب مخارجها ـ بالخليل الى أن يبحث فى الحروف من نواح ثلاث ، مخـرج الحرف ، وصفة الحرف ، وعلاقة الحرف بالحرف .

---

(٤) سر صناعة الاعراب ـ أول الكتاب .

(١)

مخارج الحروف

رأى الخليل أن هذه المقاطع تبتدىء بالحلق وتنتهى عند الشفتين ، وأن بين الحلق والشفتين مقاطع كثيرة تقف عندها طائفة كبيرة من الحروف ، ويسمع منها أصوات متنوعة ، فترتيبها الجديد اذن ينبنى على أساس هذه المقاطع ، واذا كانت المقاطع ، واذا كانت المقاطع أساس الترتيب الجديد فبأى المقاطع يبدأ وبأيّها ينتهى ؟

لم يشأ أن يبدأ بحروف الشفتين ، لأن الابتداء بها فى نظره مخالف للوضع الطبيعى ، «فصيّر أولاها بالابتداء أدخل حرف منها فى الحلق»[١] . وحين بدأ بحروف الحلق وجد أن مخرج الهمزة هو أقصى الحلق قبل مخرج العين ، ولكنه لم يعدها من حروف الحلق لاعتلالها ، ولأنها مهتوتة ليس لها كيان ثابت وانما هى متغيرة متحولة الى ألف أو واو أو ياء .

وحروف الحلق عنده تبتدىء بالعين وتنتهى بالخاء ، وما بينهما ثلاث مدارج هى مدرجة الحاء التى تلى العين وتكون بلزقها ، ومدرجة الهاء التى تلى الحاء وتكون بلزقها ، ومدرجة الغين، وترتيبها عنده هكذا : العين ــ الحاء ــ الهاء ــ الغين ــ الخاء .

ثم جاء سيبويه فرأى أن حروف الحلق سبعة وقسمها ثلاث طوائف : الطائفة الأولى هى الهمزة والألف والهاء ، وأقصى هذه الثلاثة عنده هو الهمزة ، والهمزة عنده نبرة فى الصدر تخرج باجتهاد . والطائفة الثانية هى

---

(١) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ .

العين والحاء ومخرجهما عنده من أوسط الحلق • والطائفة الثالثة هى الغين والخاء ومخرجهما أدنى الحلق •

والجديد فى ترتيب سيبويه شيئان : أولهما اضافة الهمزة والألف الى طائفة حروف الحلق ، وثانيهما اعتبار الهاء قبل العـين • وكان الخليـل يعدّها بعد الحاء •

ولم يغب عن الخليل مخرج الهمزة فهى عنده من أقصى الحلق [٢] ، ولكنها لما كانت عنده حرفا غير ثابت اذا رقّه عنه انقلب ألفا أو واوا أو ياءا أسقطها من طائفة حروف الحلق ، ولم يجعل لها مدرجة مع الحروف الصحاح•

أما المحدثون فلهم تصنيف آخر خالفوا فيه الخليل وسيبويه تؤيدهـم التجارب الحديثة • فالهمزة والهاء عندهم من مخرج واحد هو فتحة المزمار ، مخالفين فى ذلك الخليل فى اعتبار مخرج الهاء أبعد فى الحلق من العـين والحاء ، ومخالفين سيبويه أيضا فى نفى الألف عن أن يكون مزماريا وان وافقوه فى اعتبار الهاء مزمارية •

أما الهمزة فمخرجها عندهم فتحة المزمـار ولذلك يسمونها غالبـا Glottal Stop تنطبق فتحة المزمار عند النطق بها انطباقا تاما ، ثم تنفرج هذه الفتحة فجأة فينطلق الهواء المحبوس ويحدث انفجارا[٣] •

وأما الهاء فمخرجها عندهم فتحة المزمار ايضا ولكنها تخرج حينما تكون الفتحة واسعة ، ويكون الفم فى وضعه الطبيعى ، ويسمع لها حين خروجهـا حفيف هو الذى لاحظه الخليل ، وعبّر عنه بالهتة أو الههّة ، وسموها مـن أجل ذلك حنجرية احتكاكية Glottal Frictive [٤] •

---

(٢) سر صناعة الاعراب ـ باب أسماء الحروف •

(٣) The Phonetics of Arabic P. 30

(٤) المصدر السابق ص ٢٩ •

ويلى ذلك عندهم العين والحاء ، وهما من مخرج واحد مخالفين فى هذا الخليل فى اعتباره موضع الحاء أرفع من موضع العين ، ومتفقين مع سيبويه فى اعتبارهما طائفة واحدة من مخرج واحد ، وهو وسط الحلق .

ويلى ذلك عندهم مخرج القاف كما نرى ذلك فى تصنيف البروفسور كيردنر للحروف فى كتابه The Phonetics of Arabic ، ومخرجها عنده باتصال أدنى الحلق بأقصى اللسان . وهو بهذا يوافق الخليل فى اعتبار القاف لهويّة ، ويخالفه فى اعتبار مخرجها قبل الغين والخاء .

ويلى ذلك عندهم مخرج الغين والخاء والكاف ، وهذه الثلاثة عندهم من مخرج واحد ، وهو اللهاة ، وذلك باتصال مؤخرة اللسان بسقف الحلق المرن .(٥)

ويلى حروف الحلق عند الخليل حرفان لهويّان ، هما القاف والكاف ، والكاف عنده أرفع ، أى أنها أبعد عن الحلق من القاف . ولم يخالفه سيبويه .

وقد وافق المحدثون الخليل كما أشرنا اليه فى اعتبارهما لهويّين ، وفى اعتبار الكاف أرفع من القاف .(٦)

ويلى الحرفين اللهويين عند الخليل : الجيم ثم الشين ثم الضاد ، وهذه الحروف الثلاثة فى حيز واحد ، ومخرجهن عنده من الشَجْر وهو مفرج الفم ، ولم يعين مخرج كل منهن بالضبط . أما سيبويه فقد أضاف الى هذه الطائفة صوتا جديدا هو صوت الياء ، وكان أدق فى تعيين مخارج هذه الأصوات فقد ذكر أن مخرج الجيم والشين والياء من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى ، وأن مخرج الضاد من بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس .

---

(٥) المصدر السابق ص ١٥ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٦ ، الاصوات اللغوية ، الدكتور ابراهيم انيس ص ٧٤ .

وخالفهما المحدثون فى اعتبارهما الضاد فى هذه الطائفة ، وعندهم أن مخرج الضاد بين أسلة اللسان أو مايليها ، وبين حافة الأسنان . ولكنّ هذه الضاد التى حدّد المحدثون مخرجها كما وصفنا هى الضاد التى يسمعونها الآن فى بعض الأقطار العربية ، كمصر والشام ولبنان ، ونطق هذه الضاد يختلف عن نطق الضاد العربية الأصلية التى وصفها الخليل وسيبويه (٧) ، والضاد الأصلية كما يقول كيردنر ، «هى ذلك الحرف الذى كان العرب يعتبرون النطق به من الصعوبة بمكان بحيث ينكرون على الأجانب المقدرة على النطق به ، ومن أجل ذلك سموا أنفسهم الناطقين بالضاد» (٨) . وما علينا الا أن نسلم بما نص عليه الخليل وسيبويه .

والمحدثون يخالفون الخليل وسيبويه فى هذه الطائفة من وجه آخر ، فهم يعدون الياء والجيم من مخرج ، والشين من مخرج آخر ، يعدون مخرج الياء والجيم من بين مقدم اللسان وسقف الحنك الصلب ، ولذلك يسمونهما Palatals . أما الشين فمخرجها عندهم بين أسلة اللسان أو مايليها ، وبين حافة الأسنان ، وكانوا يسمونها : Alveolar (٩) .

ويلى مخرج الحروف الشَجْرية عند الخليل مخرج الصاد والسين والزاى . وهذه الحروف الثلاثة عنده فى حيز واحد ، ومخرجها أسلة اللسان ، وهى طرفه الحاد ، ولذلك كان يسميها أسلية ، ولم يبين الخليل هنا الا جانبا واحدا من جانبى المخرج ، لم يبيّن الا أسلة اللسان ، أمّا أين يكون موضع الأسلة من الحنك الأعلى وغيره فلم يبينه . أما سيبويه فقد حدّد مخرجهن بأنه بين طرف اللسان وفُوَيْق الثنايا .

---

(٧) الاصوات اللغوية للدكتور ابراهيم انيس ص ٥١ ، ٥٢ ،
The Phonetics of Arabic P. 20

(٨) هامش صفحة ٢٠ من كتاب : The Phonetics of Arabic

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٥

وقد خالفهما المحدثون فباعدوا بين مخرج الصاد ومخرج السين والزاى ، وجعلوا مخرج الصاد بين أسلة اللسان أو ما يليها ، وهو مايسمى عندهم " Blade " وبين حافة الأسنان مع ارتفاع مؤخرة اللسان فى اتجاه الحنك الأعلى المرن • ومخرج السين والزاى بين أسلة اللسان والأسنان العليا •

ويلى الحروف الأسلية عند الخليل : الطاء والدال والتاء ، وهذه الحروف الثلاثة عنده فى حيّز واحد ، وهو نطع الغار الأعلى (١٠) ، ولذلك كان يسميها نطعية ، وحدّد سيبويه مخرجها بأنه بين طرف اللسان وأصول الثنايا •

وخالفهما المحدثون فجعلوا الطاء فى طائفة والدال والتاء فى طائفة أخرى ، جعلوا الطاء فى طائفة الضاد بين طرف اللسان وحافة الأسنان مع ارتفاع مؤخرة اللسان نحو سقف الحنك المرن ، وجعلوا التاء والدال فى طائفة السين والزاى بين طرف اللسان والأسنان العليا (١١) •

ويلى الحروف النطعية عند الخليل : الظاء والذال والثاء ، وهذه الحروف عنده فى حيّز واحد ، ومبدؤها من اللثة فهى لثوية • وجاء سيبويه فحدد مخرجها فذكر أنه بين طرف اللسان وأطراف الثنايا ، وهو قريب جدا مما ذكره المحدثون ، ولكن المحدثين خالفوهما ، فجعلوا الظاء فى طائفة الطاء والصاد ، والثاء والذال فى طائفة التاء والدال ، أى أنهم فرقوا بين الظاء وأختيها بارتفاع مؤخرة اللسان نحو سقف الحنك المرن فى الظاء دون الثاء والذال (١٢) •

---

(١٠) النطع بالكسر وكعنب ما ظهر من الغار الاعلى فيه آثار كالتحزيز وجمعه نطوع والحروف النطعية : طدت • «القاموس المحيط ــ مادة نطع» •

(١١) P, 15 The Phonetics of Arabic

(١٢) المصدر السابق •

ويلي الحروف اللثوية عند الخليل : الراء واللام والنون ، وهذه الحروف الثلاثة عنده في حيّز واحد ، وكان يسميها ذلقية ، ويسميها الفيروزابادي ذولقية (١٣) . وحدد سيبويه مخرج كل منها ، وفصل الكلام فيها ولم يجعلها ـ كما يظهر من كلامه ـ كلها من مخرج واحد فجعل مخرج اللام من حافة اللسان من أدناها الى منتهى طرف اللسان مابينها وبين مايليها من الحنك الأعلى وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية (١٤) . وجعل مخرج النون من طرف اللسان بينه وبين مافويق الثنايا ، ومن مخرج النون مخرج اللام غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه .

وسيبويه هنا يتفق مع الخليل في أن طرف اللسان (ذلقه) يعمل في كل من هذه الثلاثة الا أنه يزيد عليه بتحديد موضع كل منها وبملاحظة حركات اللسان في أثناء اخراج كل منها .

أما المحدثون فيتفقون مع الخليل وسيبويه في أن طرف اللسان يعمل في هذه الحروف الثلاثة ، الا أنهم يخالفونهما في التفاصيل ، فالراء والنون عندهم من فصيلة ما يسمونه Alveolars ، وهي أصوات مخرجها بواسطة طرف اللسان أو الجزء الذي يلي طرف اللسان مباشرة مع حافة الأسنان ، واللام من فصيلة أخرى سموها : Dentals ، ومخرج هذه الفصيلة بطرف اللسان مع الأسنان العليا ، ويخالفونهما أيضا في أن الهواء الذي يصاحب اخراج النون يسلك التجويف الأنفي بعد انخفاض الطرف الأقصى من الحنك المرن ، وفي أن اللام نوعان مرققة ومفخمة ، ويتفقون معهما في موضع اللام المرققة . أما المفخمة فلم يشر اليها الخليل ولا

---

(١٣) ذلق كل شيء وذلقته ويحرك ـ حده . وذولق اللسان والسنان طرفهما . القاموس ـ مادة ذلق .

(١٤) الكتاب ج٢ ص ٤٠٥ .

سيبويه ، بالرغم من وجودها لهجة من اللهجات ، وبالرغم من أن القراء قد عرفوها ، وقد عدّها المحدثون فى فصيلة الطاء . أما الراء فعند المحدثين أنواع ثلاثة مكررة ونصف مكررة واحتكاكية (١٥) ، وقد نص الباحثون منهم فى الأصوات العربية على أن الراء العربية هى الراء المكررة التى ذكرها الخليل وهى الراء التى يلفظها الاسكتلنديون (١٦) .

ويلى الحروف الذلقية عند الخليل : الفاء والباء والميم . وهذه الثلاثة عند الخليل فى حيّز واحد ، ومخرجها من الشفتين ، وكان يسميها شفوية .

ولسيبويه فى الحروف الشفوية تفصيل آخر ، ، فانه يخرج الفاء منها ، ويضيف الواو اليها . وعمل سيبويه هنا أصوب من عمل الخليل ، وان كان لايبعد أن تكون الواو عند الخليل كما هى عند سيبويه مع الأحرف الشفوية ، بدليل قوله حين عرض للفاء والباء والميم: «ليس غيرها من الحروف الصحاح يخرج من الشفتين» (١٧) ، مما يشعر أن الخليل كان يلاحظ أن الواو من الحروف الشفوية الا أنها من حروف العلة .

وللواو والياء حالتان تكونان فى احداهما ليّنتين ، وتكونان فى الثانية جامدتين فاذا كانتا جامدتين فلهما مدارج بين أخواتهما من الحروف الصحاح ، وهذا هو ما التفت اليه سيبويه فجعل الياء من الحروف التى كان الخليل يسميها شَجْرية ، وهى الجيم والشين والضاد وجعل الواو من الحروف التى كان الخليل يسميها شفوية وهى الفاء والباء والميم .

ولا تكون الياء والواو جامدتين عند الخليل الا اذا تحركتا وتحرك ما قبلهما بحركة لاتناسب طبيعتهما ، كأن يتحرك بالفتح مثلا ، فاذا تحركت

---

(١٥) P. 144 The Phonetics of English, Dr. Ida C. Ward.

(١٦) P. 21 The Phonetics of Arabic, Gairdner.

(١٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص٤ .

الياء والواو أو حرك ماقبلهما بحركة لاتناسبهما قويتا عند الخليل[١٨] . وكان لهما مخرج معين بين مخارج الصحاح من الحروف ، ولا يبعد أن تكون الياء القوية عنده كما هى عند سيبويه مع الجيم والشين والضاد ، كما لا يبعد أن تكون الواو عنده كما هى عند سيبويه أيضا مع الأحرف الشفوية .

وقد أقر المحدثون سيبويه على اخراج الفاء من الحروف الشفوية الخالصة ، وعلى ادخال الواو فى زمرتها ، فالفاء عندهم كما هى عند سيبويه شفوية سنية Labio - dental ، تشترك الأسنان العليا والشفة السفلى فى اخراجها ، والواو عندهم شفوية محضة Labial لاعمل لغير الشفتين فيها .

ويلى ذلك كله عند الخليل الهمزة ، وقد سبق الكلام عليها ، والألف والواو والياء ، وهى الحروف التى يسميها الأجانب Vowels ، وهى تعد فى نظر المحدثين عنصرا رئيسا فى اللغات كلها ، ولكن المتقدمين من العرب لم يعنوا بها عناية كافية وكانت اشارتهم اليها عابرة ، فلم يقل فيها الخليل الا أنها لامدارج لها بين أحياز أخواتها من سائر الحروف ، فحيزها هو الجوف كله ، ولذلك كان يسميها جوفا ، وكان يسميها هوائية أيضا لأنها فى هواء الفم .

وفى اطلاق القدماء هذه الأحرف تسمح ، فلم يعنوا بالتفريق بينها لينة ، وبينها جامدة ، ولعل ذلك يرجع الى أن الخط العربى لم يعن الا بصور الأصوات الصحيحة التى يسميها المحدثون الأصوات الساكنة Consonants ومن أجل هذا خلا الخط العربى من صور أصوات اللين ، حتى جاء الخليل فوضع لأصوات اللين القصيرة ، وهى الحركات ، رموزا تتميز بها ، وليست

---

(١٨) التهذيب للازهرى جـ١ ص٢٤ (مخطوطة بدار الكتب رقمها ٩ لغة) .

الحركات الا أصواتا لينة لاتختلف عن الألف والواو والياء الا مـــن حيث الكمّ ، فالفتحة بعض الألف ، والضمة بعض الواو ، والكسرة بعض الياء ، وقد التفت الخليل الى هذا حين قال : «الفتحة من الألف والكسرة من اليـاء والضمة من الواو» [١٩] .

وقد أقره المحدثون على هذا ، وأبعدوا فى الدقة ، حتى جعـــلوا نسبة الألف والواو والياء الى الفتحة والضمة والكسرة نسبة ٢ الى ١ [٢٠] .

وعمل الخليل هنا أدق من عمل سيبويه الذى جعل الألف مع الهمزة والهاء ، ولكنه مع ذلك أهمل حركات أعضاء النطق المختلفة التى تميز الألف من الواو من الياء . وعمله يتفق مع ماتوصل اليه المحدثون من أن مجـرى الألف والواو والياء هو الفم كله . ولكنهم يختلفون معه فى ذكر التفصيلات اللازمة لتحديد مركز كل منها فى الفم ، وقرروا أن هذه الحروف تعتمـد فى تمييز بعضها من بعض على حركات اللسان والشفتين ، وبتتبعهم حركات اللسان صعودا الى الحنك الأعلى وهبوطا عنه ، وجـــدوا أن أصوات اللين المختلفة فى جميع اللغات ثمانية أنواع ، وينسب هذا العمل الى البروفسور دانيال جونز فقد استطاع أن يجرى تجارب دقيقة ، وأن يسجلها عـــلى اسطوانات فى شركة : His Master's Voice رقمهـا (B.804) [٢١] .

ويعنينا هنا أن نعرض للأصوات اللينة الثلاثة التى سماها علماء العرب أصوات المد وهى الألف والواو والياء .

أما الألف فمخرجها الجوف كله ، ولكن بتدخل اللسان والشفتين ، ففى اخراجه ينخفض اللسان الى أسفل مع انسحاب طرفه قليلا عن الأسنان

---

(١٩) الكتاب جـ٢ ص ٣١٥ .
(٢٠) كيردنر ص ٣٥ .
(٢١) كيردنر ص ٣٧ .

السفلى ، وتتسع مع ذلك فتحة الشفتين ، وهو الصوت الذى يرمز اليه كيردنر بالرمز (a:) والذى نجده فى الكلمة الانكليزية Father .[22]

وأما الواو اللينة فمخرجها الجوف كله مع تدخل اللسان والشفتين ، ففى اخراجها يرتفع مؤخر اللسان ، وتستدير الشفتان ، كما تستديران مع الواو الساكنة التى يسميها الخليل قوية ، ويرمز لها كيردنر بالرمز (U:) وهى التى نجدها فى كلمتى too ، blue الانكليزيتين .[23]

وأما الياء اللينة فمخرجها الجوف كله مع تدخل اللسان والشفتين أيضا ، ففى اخراجها يرتفع مقدم اللسان الى سقف الحنك الصلب ، يرتفع حتى تضيق الفتحة وتنفرج الشفتان انفراجا طبيعيا دون استدارة أو بروز[24] ، وهى التى يرمز لها كيردنر بـ (i:) كما نجدها فى كلمة Seen الانكليزية .[25]

وبعد ملاحظة هذا نجد أن تقدير الخليل اذ اعتبر مخرجها الجوف كله قريب من اعتبار المحدثين اياه ولولم يعرض الخليل للتفاصيل الدقيقة التى تحدد مركز كل منها فى الجوف تحديدا يميز بعضها من بعض ، وعلى هذا فعدّ الألف من مخرج الهمزة والهاء كما فعل سيبويه تسمّح كبير .

فحروف الهجاء عند الخليل تسعة وعشرون حرفا ، خمسة وعشرون منها صحاح ، وأربعة منها معتلة ، والحروف الصحاح عنده تبدأ بالعين ، وتنتهى بالميم ، والحروف المعتلة عنده هى الألف والواو والياء والهمزة ،

---

(٢٢) كيردنر ص ٤١ .

(٢٣) كيردنر ص ٤٣ .

(٢٤) Phonetics of English. IDA. C. WARD P. 81

الاصوات اللغوية للدكتور ابراهيم أنيس ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢٥) كيردنر ص ٣٨ .

وليست الهمزة بمنزلة أخواتها فى الاعتلال ، لأن لها مخرجا متميزا هو أقصى الحلق عند الخليل وسيبويه أو فتحة المزمار عند المحدثين [٢٦] . ولكنها لما كانت مائعة تنقلب اذا رقّه عنها ألفا أو واوا أو ياءا جعلها فى طائفة المعتلات .

وعدد مخارج الصحاح عنده لاتزيد عن تسعة ، وكل مخرج منها يحتوى على مقاطع متقاربة منفصل بعضها عن بعض ، ولذلك وجد الفرق عنده بين أصوات الحروف التى تشترك فى حيّز واحد ، وكان يعبر عن هذه الفوارق بين المقاطع بقوله «بعضها أرفع من بعض» . [٢٧]

كيف استطاع الخليل أن يحدد مخارج الحروف ويضبط مقاطعها ؟

لقد استعان الخليل على تذوق الحروف وتبيين مقاطعها وتحديد مخارجها بتسكينها ، لأنه رأى أن مخرج الحرف انما يتمثل ويتبيّن اذا كان ساكنا [٢٨]. ولما لم يستطع الابتداء بالساكن بدأه بالهمزة المفتوحة لأن الفتحة أسهل الحركات وأخفها ، فكان يفتح فاه بالهمزة المفتوحة ، ويقف على الساكن فيقول مثلا : أبْ أتْ أعْ الى آخر الحروف ، فاهتدى بذلك الى تحديد المخارج ، ورتب الحروف بحسبها كما يأتى :

العين الحاء الهاء الغين الخاء ـ القاف الكاف ـ الجيم الشين الضاد ـ الصاد السين الزاى ـ الطاء التاء الدال ـ الظاء الذال الثاء ـ الراء اللام النون ـ الفاء الباء الميم ـ الالف الواو الياء الهمزة [٢٩] .

---

(٢٦) كيردنر ص ١٥ .
(٢٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ .
(٢٨) سر صناعة الاعراب ـ باب الحروف ٠٠ ، احياء النحو ص ٨٣ .
(٢٩) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ ، لسان العرب جـ١ ص ٧ ، شرح الرضى على الشافية ص ٣٤٩ .

وجاء سيبويه فتابعه فى منهجه وتذوقه الا أنه خالفه فيما يتصل بترتيب الحروف ومخارجها فقد جاء ترتيبها فى الكتاب كما يأتى :

الهمزة الهاء الألف ـ العين الحاء ـ الغين الخاء ـ الكاف ـ القاف ـ الضاد ـ الجيم والشين والياء ـ اللام ـ النون ـ الراء ـ الطاء الدال التاء ـ الزاى السين الصاد ـ الظاء الذال الثاء ـ الفاء ـ الباء الميم الواو .(٣٠)

فحروف الهجاء عند سيبويه تبتدىء بالهمزة وتنتهى بالواو ، وعدد المخارج عنده ستة عشر مخرجا باضافة مخرج النون الخفيفة من الخياشيم ، ولا حاجة بنا الى سرد تفصيلاتها فقد استوفى شرحها فى الكتاب .

وقد عدّ سيبويه الهمزة والألف والهاء من مخرج واحد وهو أقصى الحلق عنده ، وفتحة المزمار عند المحدثين ، وقدم بعض الحروف فى أحيازها وأخّر بعضها فقد قدم الهاء على العين والكاف على القاف ، والضاد على الجيم ، واللام على الراء والدال على التاء ، والزاى على السين ، وقدم الحروف النطعية وهى الطاء والدال والتاء على الحروف الأسلية وهى الصاد والسين والزاى .

وتابع ابن جنى سيبويه فى كتابه «سر صناعة الاعراب» ، ورتب الحروف على الصورة التى أثبتها سيبويه فى كتابه . ويبدو أن عمل سيبويه فى ترتيب الحروف وعدد المخارج هو الذى اصطلح عليه العلماء العرب من بعده ، وخالفه الفراء فى عدّ مخرج الباء والواو واحدا ، والفاء والميم بين الشفتين .

قال الرضى ـ بعد عرضه لرأى الخليل والفراء وسيبويه ـ: «وأحسن الأقوال ما ذكره سيبويه وعليه العلماء من بعده» .(٣١)

ومنشؤ الخلاف بين الخليل وسيبويه ـ فيما نرى ـ هو اصطناع كل

---

(٣٠) الكتاب جـ٢ ص ٤٠٤

(٣١) شرح الرضى على الشافية ص ٣٤٩ .

منهما مقياسا لتذوق الحروف يختلف عن مقياس صاحبه ، واذا لاحظنا مقياس كل منهما وجدنا ترتيب الحروف بحسبه سليما •

أما الخليل فقد اصطنع الهمزة المفتوحة ، لأنه جاء عن الليث أن الخليل «كان اذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف نحو أب أح أع» (٣٢) •

وأما سيبويه فقد اصطنع الهمزة المكسورة ، ولم يصرّح سيبويه بهذا ولكنى أستنتج ذلك مما ذكره ابن جنى • قال ابن جنى : «وسبيلك اذا أردت اعتبار صدى الحرف أنه تأتى به ساكنا لامتحركا ، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره ، وتجذبه الى جهة الحرف التى هى بعضه ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله (٣٣) •

ورجّح عندى أن يكون كسر الهمزة معتبرا عند سيبويه أيضا هذا الاتفاق بين ترتيب الحروف عند سيبويه وترتيبها عند ابن جنى ، ومن هنا جاء الاختلاف بين الخليل وسيبويه فى ترتيب الحروف • وأنت اذا جرّبت أن تذوق الحروف باصطناع الهمزة مفتوحة مرة ومكسورة أخرى ، وجدت وجهة النظر عند كل منهما سليمة •

هذا هو مقياس الخليل فى تذوق الحروف مع مافيه من سذاجة ، وهذا هو ما استطاع الوصول اليه كما سمحت له به ظروفه العلمية ، وكان هذا بالنسبة الى الدارسين فى عهده حدثا عظيما ، وقد وفّق توفيقا عظيما فى كثير من النتائج التى توصل اليها • ومقياسه هذا لايعدو أن يكون قائما على التذوق الشخصى والملاحظة بواسطة الأذن ، وكانت هذه الطريقة هى الوحيدة التى

---

(٣٨) لسان العرب – حرف العين • الجزء المطبوع من كتاب العين ص (١) •

(٣٣) سر صناعة الاعراب – باب الحروف • نسخة أستاذنا (ابراهيم مصطفى) •

يمكن أن تنهض بهذه الدراسة قبل تقدم العلم ، وعمادها الأذن والتـذوق اشخصي •

أما المحدثون فقد استفادوا من التقدم العلمى وساروا على طريقة حديثه قوامها التسجيل الآلى •

وطريقة التسجيل الآلىّ لم تكن لتكون الا بعد تقدم العلَم واكتشاف آلات وأجهزة دقيقة ، لتحديد مخارج الأصوات ، وتسجيل حركات النطق ، وتسجيل تموجات الهواء التى تحدث بواسطة النطق •

وبلغ التسجيل الآلىّ من الدقة بحيث استطاع تقديركم الصـــوت Quantity وتقدير درجته Quality • (٣٤) •

ولاشك أن طريقة المحدثين القائمة على تسجيل الأصوات بأجهزة دقيقة أدق فى تحديد المخارج الصوتية وتقدير درجة الأصـــوات وكميتها ، فان الأذن وان كانت قادرة على أن تنهض بذلك ، وقد نهضت به فى تلك العهود الدراسية الطويلة التى ابتدأت بعمل الخليل ــ أداة ناقصة تهمل عددا كبيرا من الفروق الصوتية الدقيقة • ولم يكن هذا التسجيل الآلىّ متوفرا فى عهد الخليل ، ومع ذلك فقد استطاع بالملاحظة والتذوق أن يصل الى نتائج أقـر الدرس الحديث بما استعان به من وسائل ، وبما ساعده من علوم ، كعـــلم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ــ كثيرا منها كما أثبتنا وسنثبت من موازنات بين عمل الخليل وعمل المحدثين •

---

(٣٤) منهج البحث فى الادب واللغة ص ٦٢ فما بعـدها لانطوان مايبــه ولانسون (ترجمة الدكتور مندور) •

(٢)

صفات الحروف

قلنا ان الخليل أراد أن يدرس اللغة على أساس من فقه اللغة ، وأراد أن يدرس الحروف لأن دراستها ضرورية لفهم بنائها العام ، وها هو ذا قد رتب الحروف كما مر ترتيبا طبيعيا يقره النظر العلـــمى الطبيعى ، وليس ترتيب الحروف على الصورة السابقة غايته وهدفه ، فهو اذ رتبها انمـــا أراد أن يقف على خصائصها ومزاياها وأن يفهم البناء العام للكلمة العربية فى ضوء هذه الخصائص ، ومادامت الكلمات مؤلفة من هذه الحروف كان لزاما على الباحث أن يدرسها ، ويفهم خصائصها ، ويقف على مزاياها حين يتألف بعضها مع بعض ، ويفقه هذه الظواهر اللغوية العامة التى نجمت عن تأليف الحروف على صورة معينة ، فلم يرد الخليل اذن الى أن يقف عند تذوقه الحروف وتبيّن مخارجها حسب ، بل أخذ يفحصها مجددا ليتذوقها تذوقا آخر كما سيأتى بيانه •

لاحظ الخليل أن هذه الحروف لم تكن من طبيعة واحدة ، ولا ذات طابع واحد ، ففى بعضها يظل النفس جاريا لايعوقه عائق ، ولا يجد المتكلم صعوبة فى جريانه ، وفى بعضها يتعثر النفس ويقف عند مدرجة معينة مـــن مدارج الفم فلا يتأتى للمتكلم أن يتابع نفسه •

وجد أن الحروف التى يجرى معها النفس عشرة هى الهاء والحـــاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء ، وسماها الحروف المهموسة • والمهموس عنده حرف لان مخرجه دون المجهور ، وجرى مع النفس ، فكان دون المجهور فى رفع الصوت » [1] •

---

(١) لسان العرب ـ حرف الهاء •

وسمى الحروف الأخرى التى ليس لها صفة المهموس مجهورة • وتابعه سيبويه فى ذلك ، وعرف المجهور بأنه حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت • وعرف المهموس بأنه حرف أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفس معه •

وأنت ترى أن الخليل بنى التفرقة بين المجهود والمهموس على ما أحسّ به فى أثناء تذوقه الحروف من وقوف النفس وجريانه وارتفاع الصـــوت وانخفاضه •

أما المحدثون فلهم مقياس آخر فى التفريق بين المجهور Voiced والمهموس Unvoiced ، فقد بنوه على مايحـدث الحـرف فى أثنـاء اخراخه من اهتــزاز فى وترى الصــوت ، وعدم احـداثه ذلك ، فالصـوت المجهور عندهم هو الذى يهتز معه الوتران الصوتيان ، والصوت المهموس هو الذى لايهتز معه الوتران الصوتيان ، ولا يسمح لهما رنين حين النطق به •

ولاختيار الصوت الذى يحدث ذلك الاهتزاز والصوت الذى لايحدثه ، سدّ اذنيك فى أثناء التصويت بالحرف المجهور ، فستحسّ برنة الصوت فى رأسك ، أوضع اصبعك على ما برز من الحنجرة «تفاحة آدم ـ كما يسمونه» فستشعر باهتزازات الوترين الصوتيين Vocal Cords

ولم يختلف المحدثون باحداثهم هذا المقياس مع الخليل وسيبويه الا اختلافا جزئيا ، فهم على وجه التقريب قد أقروا الخليل على تقسيمه الحروف الى مجهورة ومهموسة ، ولكنه خالفوه باضافة الطاء والقاف الى طائفـــة المهموسات ، مع أنه عدّها فى المجهورات ، وأضافوا الألف والواو والياء الى طائفة المجهورات ، مع أنه لم يعرض لها لأنه عزلها عن الحروف الساكنة التى لها مدارج فى داخل الفم من أقصى الحلق الى الشفتين وجعل مدرجتها الفم كله ، فلم يحاول تطبيق مقياسه عليها •

أما سيبويه فقد عد الالف مع الهمزة والهاء ، فحين ذاق الحروف فى ضوء هذا المقياس كانت الألف واحدة منها ، فأدخلها فى طائفة الحـــروف المجهورة ، وعدّ الياء مع الحروف الشجرية ، فحين ذاق الحروف أدخلها فى طائفة المجهورات ، وعدّ الواو مع الحروف الشفوية ، فحين ذاق الحروف أدخلها فى طائفة المجهورات أيضا .

فالمجهورات عند الخليل ستة عشر حرفا ، والمهموسات عشرة حروف ، فيكون المجموع ستة وعشرين حرفا يضاف اليها الألف والواو والياء التى لم يبد الخليل رأيه فيها ، فيكون المجموع تسعة وعشرين حرفا ، هى كل حروف الهجاء .

والمجهورات عند سيبويه تســعة عشر حرفا باضافة الألف والواو والياء ، والمهموسات عشرة .

أما عند المحدثين فالمجهورات ثلاثة عشر حرفا ساكنا هى الباء والجيم والدال والذال والراء والزاى والضاد والظاء والعين والغين واللام والميـم والنون ، يضاف اليها من أصوات اللين الألف والواو والياء ، فهذه ستة عشر حرفا .

والمهموسات عندهم اثنا عشر حرفا ، هى التـــاء والثاء والحاء والخاء والسين والشين والصاد والطاء والفاء والقاف والهاء .(١)

ومجموع المجهورات والمهموسات ثمانية وعشرون حرفا . بقى الحرف التاسع والعشرون ، وهو الهمزة ، لم يدخله المحدثون فى احدى الطائفتين ، لانها ليس لها مدرجة بين أخواتها من الحروف السواكن ، لان مخرجها فتحة المزمار نفسها ، ومن هنا نرى أن عمل سيبويه فى هذا قد أصاب من التوفيق أكثر مما أصاب عمل الخليل .

---

(٢) الاصوات اللغوية للدكتور ابراهيم انيس ص ٢١ ، ٢٢ .

ولاحظ الخليل وهو يفحص هذه الحروف أن بعضها اذا وقف عليه يحتاج الى أن يضغط عليه ويحقره ، وهى حروف القلقة ، وعددها عند الخليل خمسة ، وهى القاف والجيم والطاء والدال والباء وسماها محقورة ، «لأنها تحقر فى الوقف وتضغط عن مواضعها» • (٣)

ويلحق سيبويه بهذه الأحرف المحقورة ثلاثة أحرف أخرى هى الهمزة والكاف والتاء ويسميها جميعا شديدة ، وتابع ابن جنى سيبويه فى هذا ، وجمع الحروف الشديدة بقوله «أجدت طبقك» • (٤)

أما المحدثون فيسمون هذه الحروف انفجارية Plosives ، وقد يسمونها Stops ، والحروف الانفجارية عندهم تخرج بعد توقف الهواء فى بعض المواضع باتصال العضوين ، ثم اندفاع الهواء بانفجار خفيف بعد انفصال العضوين (٥) •

والحروف الانفجارية عندهم هى : الهمزة والباء والتاء والدال والطاء والضاد والكاف والقاف والجيم القاهرية التى هى كالكاف على حدّ تعبير سيبويه • (٦)

ويقابل الحروف الشديدة عند علماء العرب فى الصفة الحروف الرخوة، ولم أعثر للخليل على كلام فيها الاّ ما ذكره سيبويه مما أكاد أعتقد أنه للخليل، لأن وضع المصطلحات الخاصة من عمله ، ومما هو أشبه بعقله • والحروف الرخوة عند سيبويه أو عند الخليل هى الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء •

---

(٣) لسان العرب ـ حرف الجيم •
(٤) سر صناعة الاعراب لابن جنى ـ باب الحروف •
(٥) P. 129 The Phonetics of English, Dr. IDA
(٦) كيردنر ص ١٥ ، الاصوات اللغوية للدكتور انيس ص ٢٥ •

وملاك الحروف الرخوة عندهما امكان اجراء الصوت اذا شاء اللافظ .[٧] أما المحدثون فيسمونها احتكاكية Frictives وقد يسمونها Continuants . وملاك الاحتكاكية عند المحدثين كملاك الرخوة عند الخليل وسيبويه . فعند المحدثين أن الهواء فى النطق بها يستطيع المرور من الفتحة الضيقة ، ويحدث فى أثناء مروره حفيفا ، فهو لم يكن محصورا ، وانما يستطيع أن يستمر خلال تلك الفتحة [٨] .

والحروف الاحتكاكية كما هو فى الجدول الذى وضعه Gairdner هى الواو والفاء والثاء والذال والسين والزاى والظاء والصاد والظاء القاهرية (أو الزاى المطبقة) والشين والجيم السوريةوالخاء والغين والحاء والعين والهاء .

وبموازنة عمل الخليل وسيبويه فى هذه الصفات بعمل المحدثين يتضح لنا صدق ملاحظتهما ، ودقة تذوقهما ، بحيث طابق عملهما عمل المحدثين باستثناء الواو التى أضافها المحدثون الى هذه الطائفة وأسقطاها منها .

أما الضاد التى ذكرها كيردنر فى طائفة الحروف الشديدة فليست هى الضاد العربية الأصلية التى ذكرها سيبويه فى طائفة الحروف الرخوة ، لأن الضاد الاأصلية تختلف فى نطقها عن هذه التى ذكرها كيردنر مع الطاء ، فانها تنطق عند العرب القدماء جانبية ، بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس ، كما نص عليه سيبويه [٩] ، وعلى هذا فلا يؤخذ على الخليل وسيبويه أنهما أدخلاها فى طائفة الحروف الرخوة بينما أدرجها المحدثون فى طائفة الحروف الشديدة .

---

(٧) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٨) P. 58 The English Phonetics, Walter Ripman

(٩) الكتاب ج٢ ص ٤٠٥ .

أما العين التى عدها المحدثون رخوة فقد نص سيبويه على أنها بين الرخوة والشديدة •

ولاحظ الخليل أن الفم والشفتين تنطبقان عند التصويت بالميم فسماها مطبقة ، قال الليث : «كان الخليل يسمى الميم مطبقة لأنها تطبق الفم اذا لفظ بها» (١٠) •

ولاحظ الخليل ان بعض الحروف أكثر انطلاقا وسهولة على اللسان من بعض ، وأن أخف الحروف جميعا ستة أحرف ، ثلاثة منها مخرجها ذلق اللسان من طرف غار الفم وهى الراء واللام والنون ، وثلاثة مخرجها الشفتان وهى الفاء والباء والميم • وكان يرى أن هذه الأحرف الستة مما يسهل النطق به ، وهى جميعا تشترك فى الخفة والسهولة لمرونة عضل اللسان والشفتين ، ولذلك سماها جميعا حروف الذلاقة لأنهن قد ذلق اللسان بهن • قال الخليل : «ان الحروف الذلق والشفوية ستة وهى الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، وانما سميت هذه الحروف ذلقا لأن الذلاقة فى المنطق انما هى لطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة ، منها ثلاثة ذلقية وهى الراء واللام والنون ، تخرج من ذلق اللسان من طرف غار الفم ، وثلاثة شفوية الفاء والباء والميم ، مخرجها من الشفتين خاصة • لاتعمل الشفتان فى شىء من الحروف الصحاح الا فى هذه الأحرف الثلاثة فقط ، ولا ينطلق طرف اللسان الا بالراء واللام والنون» (١١) •

فالأحرف الذلق عنده هى الأحرف التى مخرجها ذلق اللسان ، وهو طرفه المستدق ولكنه كان يغلب الذلاقة على هذه الأحرف وعلى أحرف الشفتين فيسميها جميعا ذلقا • وقد علل ذلك كما رأينا «بأن الذلاقة فى المنطق

---

(١٠) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ • لسان العرب ــ حرف الميم •
(١١) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ •

انما هى لطرف أسلة اللسان والشفتين ، وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة» •

وكان ابن جنى يسمى هذه الأحرف حروف الذلاقة أيضا ، للاعتبار الذى أخذ به الخليل • قال ابن جنى : «ومنها حروف الذلاقة وهى ستة ، الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان وهو صدره وطرفه» (١٢) •

أما ماعدا هذه الأحرف الستة فكان الخليل يسميها صتما أو مصمتة ، وكان يقول : «ومهما جاء من بناء اسم رباعى منبسط معرى من الحروف الذلق والشفوية فانه لايعرى من أحد حرفى الطلاقة أو كليهما ، ومن السين والدال أو احداهما ، ولا يضره ماخالطه من سائر الحروف الصتم» (١٣) •

وعلل الخليل وصفه هذه الحروف بأنها صتم أو مصمتة بقوله :«انما سميت مصمتة ، لأنها أصمتت ، فلم تدخل الأبنية كلها ، واذا عريت من حروف الذلاقة قلّت فى البناء • فلست واجدا فى جميع كلام العرب خماسيا بناؤه بالحروف المصمتة خاصة ، ولا كلاما رباعيا كذلك» (١٤) •

وجاءت هذه التسمية على لسان ابن جنى فقال : «ومنها الحروف المصمتة وهى باقى الحروف» وعللها بالتعليل الذى جاء على لسان الخليل فقد قال : «لأنها صمت عنها أن تبنى بها كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلاقة » (١٥) •

وقال الرضى : «المصمتة ضد حروف الذلاقة ، والشىء المصمت هو

---

(١٢) سر صناعة الاعراب ــ باب انقسام الحروف •

(١٣) التهذيب للازهرى جـ١ ص ٢١ ، مخطوطة رقمها (٩ لغة) • لسان العرب ــ حرف الباء •

(١٤) التهذيب جـ ١ ص ٢٤ •

(١٥) سر صناعة الاعراب ــ باب انقسام الحروف •

الذى لاجوف له ، فيكون ثقيلا ، سميت بذلك لثقلها على اللسان بخلاف حروف الذلاقة» (١٦) •

ولاحظ الخليل أن بعض الحروف أخفى صوتا من بعض ، فسمى الخفيّة مهتوتة • والحروف الخفيّة عنده هى الهمزة والهاء والتاء ، فحين عرض للهمزة قال : «أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة» (١٧) ، وحين عرض للهاء قال : «ثم الهاء ولولاهتة فى الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرجها منها» (١٨) • وجاء وصف التاء بالخفاء حين عرض للدال ، وأنها حرف لان عن صلابة لطاء وكزازتها وارتفع عن خفوت التاء (١٩) •

والذى يظهر من كلام سيبويه أنه كان يطلق هذا الوصف على الألف والواو والياء ، فقد قال حين عرض لها : «وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها» (٢٠) •

وابن جنى وابن الحاجب يطلقانه على التاء ، فقد جاء فى سر صناعة الاعراب أن «من الحروف المهتوت وذلك لما فيها من الضعف والخفاء» (٢١) • وجاء فى الشافية : «والمهتوت التاء لخفائها» (٢٢) •

وبعد أن أخرج الخليل الهمزة والألف والواو والياء من طائفة الحروف ذوات المخارج بقى لديه خمسة وعشرون حرفا ، خمسة منها فى الحلق وهى العين والحاء والهاء والغين والخاء ، وستة منها ذلق وهى الراء واللام والنون

---

(١٦) شرح الرضى على الشافية ص ٣٥٥ •
(١٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ •
(١٨) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ ، لسان العرب جـ١ ص ٠٧
(١٩) التهذيب جـ١ ص ٢١ «مخطوطة رقمها (٩ لغة) بدار الكتب» •
(٢٠) الكتاب جـ٢ ص ٤٠٦ •
(٢١) سر صناعة الاعراب — باب انقسام الحروف •
(٢٢) شرح الرضى على الشافية ص ٣٥٢ •

والفاء والباء والميم ، والباقي أربعة عشر حرفا مدارجها على اللسان من أصله عند الحلق الى طرفه • وهذه الحروف اللسانية عنده طائفتان : طائفة مستعلية وهى الطاء والضاد والظاء والقاف ، وسماها المستعلية ، وطائفة منخفضة وهى التسعة الباقية • ولعل وصفه الطائفة الأولى بالاستعلاء ، والطائفة الثانية بالانخفاض أن يكون لما احسّ به فى أثناء تذوقه اياها من ارتفاع اللسان فى بعضها نحو الحنك الأعلى او انخفاضه فى بعضها عنه •

ولسيبويه تسمية أخرى • فما سماه الخليل مستعليا سماه سبويه مطبقا ، مع اخراج القاف من هذه الطائفة ، وما سماه الخليل منخفضا سماه سيبويه منفتحا • وتعليله للاطباق والانفتاح هو ما يعلل به الاستعلاء والانخفاض عند الخليل ، فبعد أن ذكر سيبويه المطبقة أدرج كل ماعداها فى المنفتحة ، وعلل وصفها بالانفتاح بقوله : «لأنك لاتطبق لشىء منهن لسانك ترفعه الى الحنك الأعلى» (٢٣) •

ولاحظ الخليل أن بعض الحروف ضعيف لايقاوم طوارىء الاستعمال ، فلا يكاد يحتفظ ببنيانه ، فهو ينتقل من حال الى حال عند التصرف (٢٤) ، وبعضها هو هو مهما تقلب فى الاستعمال ، وكان يصف الأولى بالاعتدال ، والثانية بالصحة ، وكان يقول : «العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون صحاح لها أحياز ومدارج ، وأربعة أحرف هوائية وهى الواو والياء والألف اللينة» (٢٥) •

والحروف المعتلة عنده هى الهمزة والألف والواو والياء ، والحروف الصحاح هى باقى الحروف ، تبدأ بالعين وتنتهى بالميم ، ووصفت الأحرف

---

(٢٣) الكتاب جـ٢ ص ٤٠٦ •
(٢٤) لسان العرب ـ حرف الواو والياء من المعتل •
(٢٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٨ •
(٢٦) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ •

الأربعة بالاعتدال ، لانتقالها عند التصرف من حال الى حال • أما الهمـــزة فمخرجها عنده «من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة فاذا رفّه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف» (٢٦) ، وكان يسميها جوفاء أيضا لأنها اذا اعتلت خرجت من الجوف فلا تقع فى مدرجة من المدارج وليس لها حيز تنسب اليه غـير الجوف • (٢٧)

وأما الثلاثة الباقية فهى جوف أيضا ، ولا تستقر على حال معينـــة ، فالالف قد تنقلب واوا أو ياء ، والواو قد تنقلب ألفا أو ياءا ، والياء قد تنقلب واوا أو ألفا •

وانجر الوصف بالاعتلال والصحة الى الكلمات التى تتضمن الحروف المعتلة والحروف الصحيحة ، فما فيه أحد حروف العلة فهو المعتل ، وما ليس فيه واحد منها فهو الصحيح • وقد عقد الخليل فى كتاب العين بابا فى الثلاثى الصحيح ، وعرفه بأن يكون ثلاثة أحرف ليس فيها أحد حروف العلة الأربعة وهى الهمزة والألف والواو والياء (٢٨) •

فالخليل على هذا أول من قسم الكلمات الى صحيح ومعتل ، وأول من عرّف الصحيح بأنه ماخلا من أحد حروف العلة ، والمعتل بأنه ماكان فيــه واحد منها ، وقد انفرد ـ فيما أظن ـ باعتبار الهمزة أحد حروف العـــلة ، فغيره يخرج الهمزة منها ، ويقصر الاعتلال على الثلاثة الباقية • قال ابن جنى : «وللحروف قسمة الى الصحة والاعتلال فجميع الحروف صحيح الا ّ الألف والياء والواو اللواتى هن حروف المدّ والاستطالة ، وقد ذكرناهنّ قبل الا

(٢٧) لسان العرب جـ١ ص ٧ • الرضى على الشافية ص ٣٤٨ • الجـــزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ •
(٢٨) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٠ •

أن الألف أشد الحروف امتدادا وأوسع مخرجا وهو الحرف الهاوى» (٢٩).

ولسيبويه لبعض الحروف تسميات أخرى كالمكرر ، وهو الراء ، وهذه التسمية مطابقة لتسمية المحدثين الراء فهم يسمونها : Rolled او Trilled

واللينة وهى الواو والياء ، وكان الخليل يعنى بها الألف ، والهاوى وهو الألف ، وكان الخليل يطلقه على الحروف المعتلة جميعا ، والمطبقة وهى الصاد والضاد والطاء والظاء ، وكان الخليل يسميها مستغلية ، ويطلق وصف الاطباق على الميم وحدها ، والمنفتحة وكان الخليل يسميها منخفضة ، والمنحرف وهو اللام ، وهو قريب مما وصف المحدثون به اللام فقد سموها Lateral جانبية ، وقد أشار الخليل الى هذا الوصف بقوله : «ولا ينطلق اللسان الا بالراء واللام والنون ، وأما سائر الحروف فانها ارتفعت فجرت فوق اللسان من لدن باطن الثنايا من عند مخرج التاء الى مخرج الشين بين الغار الاعلى وبين ظهر اللسان ، ليس للسان فيهن عمل أكثر من تحريك الطبقتين ، ولم ينحرفن انحراف الراء واللام والنون» (٣٠) ، والخليل بهذا لايقصر الانحراف على اللام وحدها بل يدخل فيه الراء والنون أيضا .

واذا تصفحت الكتب العربية التى عرضت للأصوات وصفاتها وأسمائها وجدت أن أصحابها لم يأتوا بجديد ، ولم يزيدوا على ما وضعه الخليل الا قليلا مما جاء عن سيبويه وعن غيره من علماء التجويد ، وما فعلوه يكاد ينحصر فى تعديل بعض تلك الأسماء والصفات ، واخراج بعض الحروف من الأحياز التى أدخلها الخليل فيها ، وادخال بعضها فى الأحياز التى أخرجها الخليل منها .

---

(٢٩) سر صناعة الاعراب — باب انقسام الحروف .
(٣٠) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٤ .

(٣)
ائتلاف الحروف

وقد أفاد الخليل من استخراج هذه الصفات ووضع تلك الأسماء أشياء أخرى مهمة تتصل بالبناء العام للكلمة العربية حين تتألف الحروف بعضها مع بعض ، وزاد هذه الدراسة أهمية معرفته بالنغم وأصول الموسيقى ، وقد هدته هذه المعرفة الى أن اللغة أصوات موسيقية ، وأن الموسيقى مظهر من مظاهر المزاج عند كل أمة ، ولابد أن تختلف اللغات بحسب ما للأمم المختلفة من أمزجة خاصة ، ولاحظ أن ماقد يتلاءم مع أمة لايتلاءم مع أمة أخرى ، وكان له من دقة الملاحظة أن ادرك أن الأذن العربية قد تستسيغ أصواتا معينة لايستسيغها غيرها ، وأن اللسان العربى ينطلق بتركيب خاص لاينطلق به لسان غيره ، وأن العرب قد يأبون تأليفا خاصا لاياباه غيرهم ، كما سيأتى بيانه من ابائهم اجتماع واوين فى أول الكلمة ، وابائهم الابتداء بالساكن ، واسترواحهم مدّ آخر الكلمة حين يوقف عليها ، وابائهم اجتماع حرفين ساكنين فى كلمة واحدة أو فى كلمتين ، وابائهم تكرار الحروف على صورة معينة ، كالتكرار فى (مهما) التى يرى الخليل أن أصلها (ماما) ، وقد كره العرب أن يلفظوها على هذه الصورة ، وكالتكرار فى قول الشاعر :

فلا والله لايلفى لما بى ... ولا للما بهم أبدا دواء

وفى قول الاخر : وصاليات ككما يؤثفين

فقد زاد الأول لاما على لام ، وازد الثانى كافا على كاف ، وقبحه ابن فارس حتى استبعد صدوره عن العرب [١] .

---

(١) الصاحبى لابن فارس ص ٢٧ .

وأدرك الخليل أن اللسان العربى قد ينطلق بأصوات خاصة لاينطلق بها غيره ، كصوت الضاد الذى هو صوت عربى خالص امتازت به العربيــة حتى أضيفت اليه وسميت لغة الضاد ، وكصوت الظاء الذى يرى الخليل أنه حرف عربى خصّ به لسان العرب لايشركه فيه أحد من سائر الأمــم[٢] ، وكغيرها من الأصوات التى عرض لها فقهاء اللغــة ، كابن جنى وابن فارس وغيرهما •

قال ابن جنى : «ان الظاء لاتوجد فى كلام النبط واذا وقعت قلبوها طاءا ، ولهذا قالوا : برطله وانما هو ابن الظل ، وقالوا : ناطور وانما هو ناظور ، فاعول ، من نظر ينظر» [٣] •

وقال ابن فارس : «ومما اختصت به لغة العرب الحاء والظاء ، وزعــم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الامم» •

وروى عن أبى عبيدة أن العرب انفردت بالألف واللام اللتين للتعريف ، كقولنا الرجل والفرس فليسا فى شىء من لغات الأمم غير العرب ، وأن الهمزة لاتكون فى عرض الكلام الا فى العربية •[٤] وهو وهم •

وقد أعار الخليل الحروف الهجائية عناية خاصة ، وامتدت ملاحظتــــه اياها الى أن يتذوقها وينعم النظر فى ملابساتها ومزاياها ، ويلائم بين كل حرف وأخيه ، فأدرك اسرارا لطيفة ، وتوصل الى معرفة المزاج العربى فى تأليف الحروف بعضها مع بعض فوجد :

(١) أن العين لاتأتلف مع الحاء فى كلمة واحدة ، ومرجع الصعوبة فى ائتلافهما كما نص عليه هو تقارب مخرجيهما وتلاصقهما ، «فلولا بحة

---

(٢) لسان العرب ــ حرف الظاء •

(٣) سر صناعة الاعراب ــ حرف الظاء •

(٤) الصاحبى لابن فارس ص ٧١ •

فى الحاء لاشتبهت بالعين لقرب مخرج الحاء من العين» ، اللهم الا اذا كانت العين فى كلمة والحاء فى كلمة أخرى ، ثم اشتق من الكلمتين أو نحت منهما كلمة واحدة كما نحت «تعبقس» من عبدالقيس و (تعبشم) من عبد شمس ، ومثل لهذا بقول العرب : حيعل يحيعل حيعلة كما جاء فى قول الشاعر :

فبات خيال طيفك لى عنيقا　　　الى أن حيعل الداعى الفلاحا

وكما قال الآخر :

ألا رب طيف منك بات معانقى　　　الى أن دعا داعى الصباح فحيعلا

وحيعل منحوتة من كلمتين هما حىّ وعلى .(٥)

وظل يتتبع العين والحاء فوجد أنهما لاتأتلفان وحدهما ولا مع غيرهما من سائر الحروف ، ولذلك لانجد فى كتاب العين فصلا خاصا بالعين مع الحاء لابهما وجدهما ، ولا بهما مؤتلفين مع حرف من حروف الهجاء ، وأدرك من ذلك أن الذوق العربى لا يستسيغ اجتماعهما .

(٢) وأنه لاتأتلف الحاء والهاء فى كلمة واحدة ، لتقارب مخرجيهما وتلاصقهما أيضا «فلولاهتة فى الهاء لاشتبهت بالحاء لقرب مخرج الهاء من مخرج الحاء» ، الا اذا كانت الحاء فى كلمة والهاء فى كلمة أخرى ، ولكل من الكلمتين معنى على حدة ، ثم تآلفتا بطريق النحت على النحو الذى اجتمعت فيه العين والحاء .

قال الخليل : «وبعد الحاء الهاء . ولم يأتلفا فى كلمة واحدة أصلية . وقبح ذلك على السنة العرب ، لقرب مخرجيهما ، لأن الحاء فى الحلق بلزق

(٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٠ ، لسان العرب ـ المقدمة .

العين ، وكذلك الحاء والهاء ، ولكنهما يجتمعان فى كلمتين لكل واحدة معنى على حدة ، كقول لبيد :

ولقد يسمع قولى حيَّهل وتمادى فى الذى قلت له

وانما جمعها فى كلمتين ، حى كلمة ومعناها هلمّ ، وهل حثّيثى فجعلهما كلمة واحدة» (٦) .

(٣) ونستنتج مما ذكره فى كتاب العين فى الفصل الخاص باجتماع العين والهاء فى باب «الثلاثى الصحيح» ، وتمثيله له بالعزهاة «وهو اللئيم من الرجال الذى لايخالط الناس ولا يطرب للسماع ولا يحب اللهو وجمعه عزهون» . (٧) ومن تمثيله له بهطع ، وذكره المهطع ، وهو المقبل ببصره على الشىء لايرفعه عنه ، (٨) . ومما كان يقول من أنه «سمعنا كلمة شنعاء وهى الهعخع فأنكرنا تأليفها» (٩) .

نستنتج من ذلك كله أن الخليل كان يفصل الكلام فى ائتلاف العين مع الهاء ، فان كانت العين قبل الهاء كان ذلك جائزا عنده ، سواء أكانتا متصلتين كما فى قوله تعالى كالعهن المنفوش ، أم كانتا منفصلتين كالعزهاة . وان كانت العين بعد الهاء ، فان كانتا منفصلتين جاز اجتماعهما فى كلمة ، كقوله تعالى : مهطعين مقنعى رءوسهم . وان كانتا متصلتين امتنع اجتماعهما ، ولذلك كان الخليل يقول :«ان الثقات من علماء العربية يعرفون الخعخع ، لأنه أقرب الى التأليف» (١٠) .

---

(٦) لسان العرب – حرف الحاء . «الحثيثى السريع» ق (حث) جـ١ ص ١٦٤ .
(٧) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣٨ .
(٨) المصدر السابق .
(٩) الجمهرة لابن دريد ص ٩ ، ونقلها السيوطى فى المزهر جـ ١ ص ١١٦ .
(١٠) الجمهرة لابن دريد ص ٩ . ونقلها السيوطى فى المزهر جـ١ ص ١١٦ .

(٤) أما العين والغين فيبدو أنهما لايجتمعان أبدا فى لغة العرب سواء أكانت العين متقدمة أم متأخرة ، وسواء أكانت منفصلة عنها أم متصلة بها ، ولم يرد لاجتماعهما فى كلمة مثال فى كتاب العين ولا فى سر صناعة الاعراب فى الفصل الذى عقده ابن جنى فى آخر الكتاب للبحث فى مثل هذه الأمور ، ولا فى الصاحبى فى الفصل الذى عقده ابن فارس للبحث فى امتزاج الحروف وتآلفها .

(٥) وأما العين والخاء فيجتمعان على أن تكون الخاء قبل العين ، اذ لم تسمع كلمة اجتمعتا فيها الا كانت الخاء فيها مقدمة على العين ، نحو : نخع وبخع ، ونحو قوله تعالى : لعلك باخع نفسك على آثارهم .

من هذا يفهم أن حروف الحلق أقل الحروف تآلفا فى الكلام ، وذلك لصلابة عضل الحلق اذا قيست بمرونة عضل اللسان والشفتين ، فليست عضل الحلق من المرونة بحيث تسمح باجتماع حروفه فى كلمة ، ولاسيما فيما تقارب فيه المخرجان تقاربا شديدا ، بحيث لولا الخصائص التى كان الخليل يحسّ بها فى أثناء تذوقه الحروف لاشتبهت هذه الحروف بعضها ببعض ، كما يفهم من قوله : «ولولا بحة فى الحاء لاشتبهت بالعين» ، وقوله : «ولولا هتة فى الهاء لاشتبهت بالحاء» ، فالبحة التى فى الحاء هى التى ميزتها من العين ، والهتة التى فى الهاء هى التى ميزتها من الحاء .

ولهذا لامجال لما ردّ به بعضهم على الخليل من أن قرب المخرج لايقتضى التنافر بين الحروف ، كما هى الحال فى ألفاظ عربية فصيحة مؤلفة من حروف متقاربة المخارج ، كالشجر والفم ، فالجيم والشين من حيز واحد ، والفاء والميم من حيز واحد أيضا ، ولاخلاف فى فصاحة هذه الكلمات فى لغة العرب .(١١)

---

(١١) المزهر للسيوطى جـ١ ص ١١٦ .

أقول : لامجال للرد عليه بهذا لأن المسافة بين العين والحاء ، وبين الحاء والهاء ، ــ كما يرى الخليل ــ أقرب بكثير مما هو بين الجيم والشين أو بين الفاء والميم ، كما هو واضح لمن يتذوق الحروف • هذا بالاضافة الى أن عضل اللسان والشفتين أكثر مرونة من عضل الحلق ، فما يتيسر لهما التصويت به لايتيسر لعضل الحلق التصويت به أحيانا •

واصرار الخليل على التعليل يقرب المخرج فى عدم تآلف العين والحاء والهاء يدل على أن التأليف المقبول عنده ماكان مبنيا على تباعد الحروف • وقد وجدت هذه الفكرة قبولا عند ابن سنان الخفاجى ، فجعل تباعد الحروف شرطا للفصاحة (١٢) •

(٦) والقاف والكاف عند الخليل لايجتمعان الا فى كلمة معربة • وكان يقول : «تأليفهما معقوم فى بناء العربية ، لقرب مخرجيهما» (١٣) •

وأكبر الظن أن عقم تأليف القاف والكاف عند الخليل ليس مرجعه الى قرب المخرجين حسب ، بل يرجع الى صلابة العضل فى أصل اللسان ممـا يلى الحلق الذى هو مخرج القاف والكاف أيضا •

وأيّد ابن جنى الخليل ، فذكر أنه ليس من كلام العرب نحو قج وجق وكج وجك وقك وكق (١٤) • والقاف والكاف عند الخليل لايجتمعان أبدا سواء أكانت القاف متقدمة أم متأخرة •

(٧) والقاف والجيم لايجتمعان ، سواء أكانت القاف قبل الجيم أم بعدها ، ولم ترد الا فى كلمات دخيلة ليست من العربية ، وانما هى مولدة •

---

(١٢) المزهر للسيوطى جـ١ ص ١١٦ •
(١٣) لسان العرب ــ حرف القاف •
(١٤) سر صناعة الاعراب لابن جنى ــ باب تمازج الحروف •

وكان الخليل يقول : «القاف والجيم كيف قلبتا لم يحسن تأليفهما الا بفصل لازم» .(١٥)

وأخذ فقهاء اللغة هذا عن الخليل وزادوا فيما ذكره أشياء وصلوا اليها باستقراءاتهم . وقد عرض ابن فارس ، وهو من علماء القرن الرابع ، لهذا وأمثاله في كتابه الصاحبي ، فذكر أن المهمل على ضربين : ضرب لايجوز ائتلاف حروفه في كلام العرب البتة ، وذلك كجيم تؤلف مع كاف أو كاف تقدم على جيم ، وكعين مع غين أو حاء مع هاء أو غين ، فهذا وما أشبهه لا يأتلف » (١٦) . وقد أثبتنا لابن جنى مثل هذا قبل قليل .

(٨) والضاد والكاف لاتجتمعان وهما متصلتان سواء أكانت الضاد متقدمة أم متأخرة ، ولا يحسن اجتماعهما عند الخليل الا بفصل لازم بحرف أو بحرفين أو أكثر ، نحو الضنك والضحك .(١٧)

ولم ترد الضاد والكاف متصلتين الا في المضعف كالضكضكة والكضكضة وكلاهما ـ كما في القاموس ـ مشى في سرعة .

ومما يؤيد صدق رأي الخليل في عدم اجتماعهما متصلتين أنه لم يورد الفيروزابادى تحت مادة (ضكّ) الا أمثلة كلها من المضعف ، ما عدا مثالا واحدا وهو قوله : «ضكه الأمر ضاق عليه» ، ولم يورد تحت مادة (كض) الا الكضكضة .

وأمثلة المضعف مما نبه الخليل على جواز تأليف الضاد والكاف فيها ، وهما متصلتان ، فقد قال : «وهو ـ يعنى اتصال الضاد والكاف ـ جائز في تأليف المضعف نحو الضكضكة» (١٨) .

---

(١٥) لسان العرب ـ حرف القاف .
(١٦) الصاحبى لابن فارس ص ٤٨ .
(١٧) التهذيب للازهرى ج ١ ص ٢٢ «مخطوطة رقمها (٩ لغة) بدار الكتب» .
(١٨) المصدر السابق .

(٩) ولاحظ الخليل أن فى الصاد قبل القاف ثقلا فى النطق ، وسمع بعض العرب ينطق بالصاد قبل القاف مرققة يشبه صوتها صوت السين ، وسمع بعضهم ينطق بها مفخمة ، فادرك أن بعض العرب أشد تصويتا من بعض ، وأجاز لذلك أن ترقق الصاد وتقلب سينا ، فقال : «كلّ صاد قبل القاف ان شئت جعلتها سينا لاتبال متصلة كانت أو منفصلة ، بعد أن تكون فى كلمة الا أن الصاد في بعض الأحيان أحسن والسين فى مواطن أخرى أجود» .(١٩)

وعقد سيبويه باب ما انقلب فيه السين صادا فى بعض اللغات تقلبها القاف اذا كانت بعدها فى كلمة واحدة ، وذلك نحو صقت وصبقت ، وصقت وصبقت هما سقت وسبقت ، ولكن السين فيهما انقلبت صادا . وقد علل سيبويه هذا بأن القاف من أقصى اللسان فأبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد ، لأنهما جميعا يتصعدان الى الحنك .

(١٠) ولاحظ الخليل أن الألف والواو والياء اللينات لابد أن يحرك ما قبلهن بحركة تناسبهن ، فالألف قبلها فتحة ، والواو قبلها ضمة ، والياء قبلها كسرة ، لأن طبيعتهن تقوم على تحريك ما قبلهن بحركة تناسبهن ، لأنهن لسن أكثر من حركة ممدودة ، فالواو لاتكون مدّا الا اذا ضمّ ما قبلها، والألف لاتكون مدا الا اذا فتح ما قبلها ، والياء قائمة طبيعتها على كسر ما قبلها .(٢٠)

وهذا الأصل الذى جاء عن الخليل من أنه «ليس فى الدنيا حرف تلحقه ياء الاضافة الا كان متحركا مكسورا» يؤيد ما قصدنا اليه من أن الخليل قد فطن لهذه الظاهرة الصوتية ، وليست ياء الاضافة التى جاءت فى كلامه الا نوعا من الياء اللينة أو هى هى بطبيعتها وصفاتها .

---

(١٩) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥٦ .

(٢٠) التهذيب ج ١ ص ٢٤ . «نسخة مخطوطة بدار الكتب رقمها (٩ لغة)» .

وقد ورد هذا الأصل فى الباب الذى عقده سيبويه لعلامة اضمار المنصوب المتكلم والمجرور المتكلم ، وهذا قد يشعر بأن المقصود من هذه الياء هو ياء المتكلم التى نجدها فى قولنا : كتابى ، وعلمنى ، وحدها ، ولكنى أرى أن ياء الاضافة تشمل هذه الياء التى تقع مضافا اليها ، التى تقع مفعولا به ، والياء التى يسميها النحاة ياء النسبة ، فى قولك : هذا مصرىّ وذاك عراقى ، لأن النسبة هى الاضافة وكان سيبويه يقول : الاضافة الى كذا وهو يعنى النسبة الى كذا ، ولم يكن الخليل ولا النحاة فى عهده قد خصصوا هذا اللفظ بهذه العلاقة التى تتحقق بين المضاف والمضاف اليه فى نحو قولك هذا كتابى .

وأرى أن هذه الياء التى تستدعى انكسار ما قبلها أعم من هذه الياءات جميعا ، ومن الياء التى يسمونها ياء المخاطبة ، نحو اضربى وتضربين ، لأن ياء المخاطبة تستدعى انكسار ما قبلها أيضا اذا كانت مدّا ، أى اذا لم تقو بتحريك ماقبلها بحركة لاتناسب طبيعتها ، كما فى قولك : اسعَىْ ياهذه وغيرها .

فالياء اذن سواء أكانت للاضافة أم للنسبة أم للمخاطبة تستدعى انكسار ما قبلها ، لأنها لينة ساكنة ، أما ياء المتكلم فأمرها واضح ، وأما ياء النسبة فهى ياء ثقيلة مكونة من ياءين أولاهما ساكنة ، فاذا اتصلت هذه الياء بكلمة وجب أن يكون ماقبلها متحركا ، والاّ التقى ساكنان ، وهو مالا يألفه العرب فى كلامهم ، ولا تنطلق به السنتهم ، وأن يكون مكسورا لأن طبيعة الياء اللينة تستدعى انكسار ماقبلها ، ليتحقق لها المدّ الذى يقوم عليه كيانها ، كما تستدعى الواو اللينة ضمّ ما قبلها ، والألف اللينة فتح ماقبلها . وأمّا ياء المخاطبة فتكون جامدة قوية حينا ولينة حينا آخر ، ولا تكون جامدة الا اذا اتصلت بفعل آخره ألف نحو اسعَىْ وتسعَيْنَ ، وان لم يسبقها ألف كانت حالها حال الياء اللينة التى التفت الخليل الى أنها تستدعى أن يكون ماقبلها مكسورا ، وذلك نحو اضربى واقعدى وأنت تضربين وكم يكون الأصل الذى

استخرجه جامعا لمسائله لو قال ليس فى الدنيا حرف تلحقه الياء اللينة الا كان متحركا مكسورا •

ويؤيد مالاحظه الخليل من أن الحروف اللينة تستدعى تحريك ماقبلها بحركة تناسبها ما رآه عند من يميلون الألف نحو الياء ، فهم يميلون اذا كان الحرف الذى قبل الحرف المفتوح للمناسبة مكسورا نحو نبال وتلال ، وحملهم على الامالة سبق الكسرة فأمالوا الفتحة التى بعدها نحو الكسرة ، وتبع ذلك امالة الألف نحو الياء لتعذر التصويت بالألف اللينة وقبلها الكسرة أو حركة ممالة نحو الكسرة اذ لابد لها من فتحة قبلها •

(١١) ولاحظ الخليل أن الياء والواو اذا التقتا فى موضع وكانت الأولى ساكنة فان الواو تدغم فى الياء ، سواء أتقدمت الواو على الياء أم تأخرت عنها ، وذلك نحو (الطىّ) ، فانه من طويت ، فالواو هنا قبل الياء ، وقد حولت الواو فيها الى ياء وأدغمت الياء الأولى المنقلبة عن الواو فى الياء الأصلية • ونحو (الحى) فانها من الحيوان ، والياء هنا قبل الواو ، ولكن الواو حولت الى ياء ، وأدغمت الياء الأولى الأصلية فى الياء الثانية المنقلبة عن الواو (٢١) •

(١٢) ولاحظ الخليل أن الهمزة أشد الحروف الشديدة ، لأنها تخرج من أقصى الحلق ، وهو الذى عناه سيبويه بقوله : «انها نبرة فى الصدر تخرج باجتهاد» (٢٢) • وقد التفت الخليل الى هذا حين رأى كثيرا من العرب يستثقلون الهمزة الواحدة فلا يحققونها ، فهم يحذفونها ، وينقلون حركتها الى ماقبلها اذا كان ساكنا فيقولون : مَنَ بُوك فى «من أبوك» ، ويبدلون مكانها حرفا من جنس حركتها اذا كانت ساكنة وكان ماقبلها متحركا ، فيقولون فى رأس وبأس : راس وباس ، وفى بؤس ومؤمن : بوس ومومن ، وفى ذئب ورئم : ذيب وريم • واذا كانت الهمزة مضمومة وقبلها

(٢١) التهذيب جـ١ ص ٢٤ • مخطوطة بدار الكتب •
(٢٢) الكتاب جـ٢ ص ١٦٧ •

ضمة أو كسرة فانك تصيرها بين بين ، وذلك قولك : «هذا درهم اختك ومن عند امك» كما كان الخليل يقول .(٢٣)

ورأى أن أكثر العرب يحذفون الهمزة فى مثل شاك ولاث ، فيقولون شاك" ولاث" (٢٤) ، «لئلا يهمز ماليس أصله الهمز لأن الهمز مستثقل عندهم» .(٢٥)

فاذا كان العرب يتخففون من الهمزة الواحدة فما ظنك بهم اذا اجتمعت همزتان ؟ لاشك أنهم كانوا يستثقلون النطق بهما حتى عند أشد العرب تصويتا بالهمز وهم بنو تميم . والعرب جميعا يلتقون فى تخفيف الهمزة الثانية ، اذ ليس من كلامهم أن تلتقى همزتان فتحققا .

واذا اجتمعت الهمزتان فاما أن تكونا فى مقطع واحد من الكلمة واما أن تكون احداهما فى آخر مقطع والثانية فى أول مقطع يليه ، واما أن تكون الأولى مفصولة عن الثانية بحرف ساكن .

فان اجتمعتا فى مقطع واحد نحو أأدم وأأخر سهلت الثانية ، أو حذفت ومدّت حركة الأولى ، فقيل آدم وآخر .(٢٦)

وان كانت احداهما فى آخر مقطع ، والثانية فى أول مقطع يليه ، أبدلت فيقال فى أئمة : أيمة ، وفى آئب : آيب .

وان كانتا مفصولتين بحرف ساكن ، نحو أرأى مضارع رأى حذفت الثانية ، وألقيت حركتها على ماقبلها اذا كانت كثيرة الدوران فى الكلام ، كهذا المثال الذى ذكرناه ، فقيل : أرى ، ثم سرى هذا الحذف فى نرى ويرى

---

(٢٣) الكتاب جـ٢ ص ١٦٧ .
(٢٤) الكتاب جـ ٢ ص ٣٧٨ .
(٢٥) شرح الرضى على الشافية ص ١٠ .
(٢٦) التطور النحوى للغة العربية لبركستراسر ص ٢٥ .

وان لم يؤد اظهار الهمزة فيها الى اجتماع همزتين ، قياسا على أرى وجريا وراء التخفيف لكثرة الاستعمال •

وبلغ من استثقال العرب الهمز أن كانوا يخففون احدى الهمزتين اذا اجتمعتا فى كلمتين نحو جاء اشراطها ، واختلف العلماء فى التى يخففونها • فأبو عمرو بن العلاء يخفف الأولى ، والخليل يخفف الثانية قياسا على تخفيف الثانية اذا اجتمعتا فى كلمة واحدة • وقد سئل الخليل عن ذلك فقال : «انّما اخترت تخفيف الثانية لاجتماع الناس على بدل الثانية فى قالهم آخر وآدم ، لأن الأصل فى آدم أأدم وفى آخر أأخر»(٢٧) ، وعلى هذا انبنى مذهب الخليل فى القلب •

والقلب ظاهرة لغوية منشؤها ميل العرب الى التخفّف مما يثقل على ألسنتهم ، وأكثر ما تكون هذه الظاهرة فى المهموزات ، بل هو عند الخليل لايكون الا فى المهموزات لأن الهمزة أشد الأصوات الشديدة جميعا ، ومخرجها فتحة المزمار ، والتصويت بها يقتضى اغلاق فتحة المزمار اغلاقا تاما ، والعرب يهربون من الهمزة فيسهلها قوم ، ويبدلها قوم ، ويحذفها آخرون •

والقلب عند الخليل يكون قياسا فى كل كلمة يؤدى ترك القلب فيها الى اجتماع همزتين (٢٨) :

١ ـ كاسم الفاعل من الأجوف المهموز اللام ، نحو جاء وشاء وساء من جاء وشاء وساء ، لأن القياس فى الأجوف الصحيح الآخر أن يقلب حرف العلة همزة اذا صيغ منه اسم فاعل ، كقائل وبائع من قال وباع ، فاذا كانت لامه همزة اجتمع فيه همزتان ، فقلبت اللام الى موضع العين والعين الى موضع اللام ، فيكون فيه همزة واحدة هى لام الكلمة ، وكان الخليل يقول « ان

---

(٢٧) الكتاب جـ٢ ص ١٦٧ ، لسان العرب ـ حرف الهمزة •

(٢٨) شرح الرضى على الشافية ص ١٠ •

قولك جاء وشاء اللام فيهما مقلوبة • وقال : ألزموا ذلك هذا واطرد فيه اذ كانوا يقلبون كراهية الهمزة الواحدة ، وذلك نحو قولهم (العجاج) » :

لاث بها الاشاء والعبرى

وقال «الطريف بن تميم العنبرى» :

فتعرّفونى اننى أنا ذاكُمُ شاكٍ سلاحى فى الحوادث معلم»[29]

٢ ــ وجمع ماكان بوزن فعيلة وهو مهموز اللام ، نحو خطيئة • والخليل يرى أنه لو ترك القلب فيها لأذى تركه الى اجتماع همزتين ، لأن القياس فى جمع فعيلة أن تقلب ياؤها فى الجمع همزة ، فتقول فى صغيرة وكبيرة وعقيلة وجديلة : صغائر وكبائر وعقائل وجدائل ، وهو أكثر من أن يحصى ، وقد قال سيبويه : «ان ياء فعائل أبدا مهموزة لاتكون الا كذلك» [30] ، فاذا كانت فعيلة مهموزة اللام كما فى نحو خطيئة قلت فى جمعها : خطائى فلزم اجتماع همزتين فقلبوا بنقل الهمزة الى موضع الياء والياء الى موضع الهمزة ، ثم قلبت الهمزة المنقولة ياءا مفتوحة ، لوقوعها بعد ألف ، وقلبت الثانية ألفا ، فصارت خطايا •

قال الخليل : «أصلها خطايىء بالهمزة بعد الياء التى كانت فى الواحد ، فجعلت الياء فى موضع الهمزة ، والهمزة فى موضع الياء ، ثم قلبت الهمزة التى كانت لام الكلمة ياء مفتوحة ، فوزنه فوالع» [31] •

٣ ــ وما كان بوزن فعلاء مهموز اللام نحو أشياء •• أشياء عند الخليل بوزن لفعاء ، بنقل الهمزة الأولى الى موضع الفاء ، وأصلها قبل القلب

---

(٢٩) الكتاب جـ٢ ص ٣٧٨ •
(٣٠) المصدر السابق •
(٣١) شرح الرضى على الشافية ص ٢٧١ •

شيئاء ، [٣٢] ، وشيئاء مما اجتمع فيه همزتان ، وليس بينهما حاجز حصين ، على حد تعبير الرضى ، فاضطروا تحاشيا للثقل الناشىء من اجتماعهما الى قلب الهمزة الى موضع الفاء ، فكانت أشياء •

أما ما ذكره ابن فارس من قلب في الكلمة ، ومثّل له بقولهم : جذب وجبذ وبكل ولبك ووصفه بأنه كثير [٣٣] ، وما ذكره الرضى من قولهم اضمحل وامضحلّ ، واكفهرّ واكرهفّ [٣٤] ، فليس بقلب عند الخليل ، لأنه كان يرى أن كل واحدة من هذه الكلمات وغيرها أصل مستقل ، فقد جاء للخليل في نقول سيبويه عنه أن «جذبت وجبذت ونحوه ليس فيه قلب ، وكل واحدة منهما على حدة» [٣٥] •

(١٣) ولاحظ الخليل أن بعض الحروف أشد من بعض وأقوى منه جرسا ، واذا اجتمع في كلمة حرفان ، أحدهما قوى الجرس والآخر ضعيفه ، وتجاورا قدموا الأقوى منهما كما فعلوا في (وتد) و (ورل) ، ولم تستعمل عندهم كلمة فيها الدال مقدمة على التاء أو اللام مقدمة على الراء • وقد أيّد ابن دريد هذا بقوله : «ليس في كلامهم لرّ» [٣٦] •

وكذلك اذا لم يتجاور الحرفان ، بل فصل بينهما أحد الحروف ، لم يخل القوى من تأثير في الضعيف كما مرّ علينا من رأى الخليل وسيبويه في قلب السين صادا اذا وقعت السين قبل القاف في نحو قولهم : سبقت وصبقت ، والسويق والصويق ، وفي قلب الصاد زايا في بعض اللغات اذا كانت الصاد ساكنة ، كما في قولهم فلان يزدق في كلامه يريدون : فلان يصدق في كلامه•

---

(٣٢) الكتاب جـ٢ ص ٣٧٩ • شرح الرضى على الشافية ص ١٢ •
(٣٣) الصاحبى لابن فارس ص ١٧٢ •
(٣٤) شرح الرضى على الشافية ص ٩ •
(٣٥) الكتاب جـ٢ ص ٢٨٠ •
(٣٦) الجمهرة لابن دريد جـ١ ص ١٢ «طبع حيدر آباد» •

وللحرف القوى تأثير فى الضعيف حتى اذا قدم عليه فما يزال يؤثر فيه حتى يزحزحه عن مخرجه الأصلى ويحوله الى حرف أقرب مايكون من مخرجه ، ليكون عمل اللسان فى الحرفين واحدا ، كما كان ذلك فى تاء الافتعال اذا وقعت بعد الطاء والظاء والزاى والصاد والضاد وغيرها ، وكما تقلب نون انفعل واوا نحو اوّجل فى انوجل .(٣٧)

واذا اجتمع حرفان قوى وضعيف فى كلمتين وتجاورا فتأثير القوى فى الضعيف باق على قوته ، كما لوكانا فى كلمة واحدة ، ومن هنا قلبت اللام راء فى قوله تعالى : «كلا بل رّان على قلوبهم» وقلبت اللام الى جنس الحرف الذى يليها اذا كان هذا الحرف أحد الحروف التى سمّاها أهل التجويد الحروف الشمسية وهى التاء والثاء والدال والذال والراء والزاى والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والنون .

والحق أن تأثر الحروف بعضها ببعض ظاهرة معروفة فى اللغات غير العربية أيضا ، فالأصوات الساكنة تؤثر فى أصوات اللين قصرا ومدّا وتفخيما وترقيقا ، والأصوات الساكنة تؤثر فى أخواتها الساكنة كما رأينا من تأثير القاف فى الصاد والسين فيما مرّ من الأمثلة ، وكما يؤثر حرف **P** فى الانكليزية فى حرف ***V*** اذا وقعت قبلها ، كما كان فى كلمة Fivepens فانها تلفظ Fifepens ، وكما تؤثر (n) فى (d) فى كلمة Kindness اذا كانت (d) مسبوقة بـ (n) ومتلوة بها فتحولها الى (n) فتكون Kainness (٣٨) . الى غير ذلك من الأمثلة .

غير أنا لانستطيع متابعة القدماء فى وصف بعض الحروف بالقوة وبعضها الآخر بالضعف ، ولا نستطيع أن ندرك عوامل القوة والضعف كما تراءى لهم،

---

(٣٧) الكتاب جـ٢ ص ٤١٥ .

(٣٨) The Phonetics of English, Dr. IDA C. WARD, P. 190

وكما فعل ابن جنى فى الخصائص ، فقد قال : «متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما الا بتقديم الأقوى منهما ، نحو أرل ، ووتد ، ووطد • يدل على أن الراء أقوى من اللام أن القطع عليها أقوى من القطع على اللام» (٣٩) اللهم الا اذا كان معنى القوة هنا قوة الوضوح فى السمع كما يفهم من قول الخليل من أن العين أنصع الحروف جرسا وألذها سماعا ، والقاف أصح الحروف جرسا ، وأن السين حرف لين هش ، والدال حرف لان عن صلابة الطاء وارتفع عن خفوت التاء •

كل ما هنالك أن الأساس الذى تنبنى عليه هذه الظاهرة هو الاقتصاد فى الجهد العضلى وقد لاحظه الخليل وسيبويه ، وكانا يشيران اليه بين آن وآخر بقولهما : «ليكون عمل اللسان من وجه واحد» ، وهو الذى أقرهما المحدثون عليه ، فقد عقد والتر ريمان Walter Ripman فصلا فى تأثير الأصوات المتجاورة بعضها فى بعض : Influence of adjacent sounds وذكر عدة وجوه للتأثير ، ومنها ما أشار اليه الخليل بقوله « ليكون عمل اللسان من وجه واحد» ، من الاقتصاد فى الجهد العضلى فقد قال ما نصه :

When two kindred sounds come together, those movements that are common to both are made only once. (٤٠)

ولم نعثر للخليل على تصريح يصف به بعض الحروف بالقوة وبعضها الآخر بالضعف كما يعنيه ابن جنى ، وانما هو من عمل المتأخرين عنه ، وكل ما عثرنا عليه فى تعليل هذه الظاهرة هو ما أشرنا اليه من تحقيق الاقتصاد فى الجهد العضلى وتحقيق الانسجام الموسيقى فى أصوات الكلام •

---

(٣٩) الخصائص لابن جنى جـ١ ص ٥٣ •

(٤٠) P. 141, The English Phonetics, Walter Ripman

ومن هنا نرى أن الخليل كان موفقا كل التوفيق فى ادراك الغرض اللغوى الذى استندت اليه هذه الظاهرة ، أعنى تحويل بعض الحروف الى جنس الحروف التى تجاورها مما يسميه علماء الأصوات المحدثون : Assimilation . وقد عرض سيبويه لهذا فى مواضع متفرقة من كتابه ، وعقد له الفصول الخاصة فى آخر كتابه ، فى باب الادغام (٤١) .

وملاك هذه الظاهرة هو أنه اذا اجتمع صوتان أحدهما مهموس والآخر مجهور ، أثر أحدهما فى الآخر بحيث يصبحان مجهورين ، أو مهموسين ، تحقيقا للانسجام الصوتى والاقتصاد فى الجهد العضلى .

وهذا التماثل الذى تتمخض عنه هذه العملية الصوتية يكون جزئيا Partial assimilation ويكون كليا Complete assimilation

أما الجزئى فيبدو فى مثل تأثر تاء (افتعل) بفائها ، أو العكس ، كتحويل التاء بعد الضاد والصاد الى طاء فى نحو اضطرب من اضترب ، واصطلح من اصتلح ومطلب من مطتلب ، وتحويل التاء الى دال بعد الزاى نحو ازداد من ازتاد ، وتحويل الصاد الى زاى قبل الدال اذا كانت الصاد ساكنة ، كقولهم : التزدير فى التصدير ، والفزد فى الفصد ، وتحويل السين الى صاد ، وبالعكس قبل القاف ، كقولهم فى سقت وسبقت : صقت وصبقت ، وكقولهم فى السويق : الصويق .(٤٢)

وأما الكلّى فأشهر حالاته حالة لام التعريف قبل أحد الحروف الشمسية فانها تصير تاءا قبل التاء ، وسينا قبل السين ، وطاء قبل الطاء ، وضادا قبل الضاد ، وهكذا . (٤٣)

---

(٤١) الكتاب جـ٢ من ص ٤١١ — الى آخر الكتاب .
(٤٢) الكتاب جـ٢ ص ٤٢٦ ، كيردنر ص ٥٥ .

ومنه ادغام الطاء والدال والتاء والظاء والثاء والذال «يدغمن كلهنّ في الصاد والزاي والسين لقرب المخرجين لأنهنّ من الثنايا وطرف اللسان نحو قسّمعت من قد سمعت ، ويسّمّعون من يتسمعون ، وابعسّلمة من ابعث سلمة» (٤٤) .

ولاحظ الخليل أن كثيرا ما يألف العربي تحويل حرف معين الى جنس حرف آخر فيحرص عليه ، بالرغم من زوال العامل الذي أدّى الى قلبه وتحويله اذا كانا متجاورين أو يتوهم أنهما من مخرج واحد ، فيتعاقبان على لسانه في كلمة واحدة ، كما فَعل في قلب اللام نونا في أصيلان ، وانما أصله أصيلال (٤٥) . وكما حوّلت تاء عصيت الى كاف فقالوا : عصيكا ، وكما يقال انهم فعلوا في تحويل الألف الى هاء في (مهما) التي يرى الخليل أن أصلها كان (ماما) ، وهو تحول خاص اصطلح المحدثون على تسميته بالتحول التاريخي ، وما عنعنه تميم ، وكشكشة أسد ، وطمطمانية حمير ، وغيرها من اللهجات العربية القديمة ـ في أكبر الظن ـ الا مظاهر للتطور التاريخي للأصوات ، وكان الخليل قد لمح هذه الظاهرة في ألفاظ وتعبيرات كثيرة عرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر .

والتطور التاريخي للأصوات قانون لغوي عام ليس في العربية وحدها بل في سائر اللغات الأخرى أيضا ، ففي الانكليزية أمثلة كثيرة خضعت لهذا القانون العام كما عرض له دارسو الأصوات الانكليزية ، فالأصل الذي كانت عليه كلمة Nature مثلا هو Natiur ولكنها الآن تلفظ Natsher

---

(٤٣) الكتاب جـ٢ ص ٤١٦ .

(٤٤) الكتاب جـ٢ ص ٤١٩ .

(٤٥) الكتاب جـ٢ ص ٤١٥ .

وهكذا غيرها من الكلمات التى تنتهى بالمقطع (Ture) الذى اصبح الآن يلفـــظ (Tsher) .(٤٦)

ومن ذلك ما سار عليه العرب فى قلب النون لاما فى الا ، انما أصلها ان لا وما فعلوه فى عاعيت وحاحيت ودهديت ، فان أصلها ، كما يقول الخليل : عيعيت وحيحيت ودهدهت . ويستدل الخليل على أن عاعيت وحاحيت وأمثالهما لم تكن بوزن فاعلت ، وانما هى بوزن فعللت «بأنك تقول الهـاهاة والحـاحاة والحيحاء كالزلزلة والزلزال (٤٧) ، ولو كانت (فاعلت) لكان مصدرها فِعالا أو مفاعلة ، كقاتل قتالا ومقاتلة .

وقلب أحد الحرفين المضعفين لغة كانت موجودة ولكنها قليلة مال اليها بعض العرب ، لأنهم كانوا يستثقلون التضعيف ، ونصّ عليها سيبويه ، ومثّل لها بقولهم : تسريت وتظنيت وتقصيت (من القصة) .(٤٨)

وظاهرة الابدال من الظواهر اللغوية التى لاحظها الخليل وكان له فيهـا أقوال وآراء . والابدال عنده يتحقق فى حالتين :

(١) أن يستند الابدال فيها الى عنصر القرابة والمشابهة ، أو عنصر الاتصال والجوار ، وهى الحالة التى اصطلح المحدثون على تسميتها :

Juxtapositional assimilation.

(٢) أن يستند الابدال فيها الى عامل التطور التاريخى ، كأن يتطور الصوت تطورا يتزحزح فيه عن مركزه ، فينتقل الى مخرج مجاور قبله أو بعده ، وهى الحالة التى اصطلح المحدثون على تسميتها :

Historical assimilation.

---

(٤٦) P. 185 The Phonetics of English, Dr. IDA C. WARD

(٤٧) الكتاب جـ٢ ص ٣٤٧ .

(٤٨) الكتاب جـ٢ ص ٤٠١ .

أما الحالة الأولى فيندرج تحتها نوعا الادغام اللذان عرضنا لهما ، وهما الادغام الجزئى والادغام الكلى •

وأما الحالة الثانية فتشمل هذه المسائل التى عرضنا لها منذ قليل ، وكان الخليل قد تنبه لها ، ومنها رأى الخليل فى (مهما) وهى كلمة مركبة من مقطعين من جنس واحد ، استهجن العرب نطقها على هذه الصورة ، كما كان الخليل يقول ، فاضطروا الى الابدال ، وهى عنده مركبة من (ما) الشرطية و (ما) التى تلحق (أين) فى قوله تعالى : «أينما تكونوا يدرككم الموت» ، و (أيّا) ما تدعوا فله الأسماء الحسنى •

وقد سأله سيبويه عنها فقال : هى (ما) أدخلت معها (ما) لغوا •••• ولكنهم استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا ، فيقولوا (ماما) فأبدلوا الهاء من الألف التى فى الأولى» (٤٩) •

ومنها رأيه فى ابدال الهمزة من الألف اللينة التى يوقف عليها ، فقد روى أن بعضهم يقول : رأيت رجلأ ، وهذه حبلأ ، وهو يضربهأ ، وعلل هذه الظاهرة بانتقال الألف الى موضع الهمزة «حيث علم أنه سيصير الى موضع الهمزة فأراد أن يجعلها همزة واحدة» • وهذا التعليل الذى علل به الخليل ابدال الهمزة من الألف قريب جدا من مأخذ المحدثين فى تفسير هذه الظاهرة •

وتشمل الحالة الثانية أيضا مايسميه المحدثون Dissimilation اى «مخالفة» ، وهو ما يتوفر فيه التماثل الذى يستدعى الادغام ، ولكن ظروفا خاصا حالت دون أن يستمر التماثل كما مر من قول بعض العرب : تسريت من تسررت ، وتظنيت من تظننت ، وتقصيت من تقصصت • وكما اذا اجتمع

---

(٤٩) الكتاب جـ١ ص ٤٣٣ •

واوان فى أول الكلمة على صورة لم يألفها العرب فى كلامهم ، أو ثقلت على ألسنتهم ، فقد سئل الخليل يوما : «لِمَ قالوا فى تصغير واصل أو يصل ولم يقولوا وويصل ؟ فقال : كرهوا أن يشبه كلامهم بنبح الكلاب» .

الواقع أن مذهب الخليل فى كل كلمة ابتدئت بواوين هو قلب الأولى منهما همزة أو تاءا ، وسواء أقلبت همزة أم تاءا فان الغرض هو التخلص من الواوين ، لأنه وجد العرب يستثقلون اجتماعهما فى أول الكلمة ، فاذا أرادوا أن يصغروا (واصلا) قلبوا الألف واوا ، على مقتضى أسلوبهم فى الكلام حين يصغرون (فاعلا) ، فلابد أن يقولوا : (وويصل) ، ولكنهم استثقلوا هذا ولم يألفوه ولم يستسيغوا موسيقاه ، فأبدلوا الواو الأولى همزة ، فقالوا : أو يصل .
وربما قلبوا الواو الأولى تاءا كما زعم الخليل أن تولج : فوعل وأصلها وولج فأبدلوا التاء مكان الواو .(٥٠)

قال سيبويه : «سألت الخليل عن (فُعْل) من وأيت فقال : وؤى كما ترى ، فسألته فيمن خفف الهمزة فقال : أوى كما ترى فأبدلوا من الواو همزة . فقال : لابد من الهمزة ، لأنه لايلتقى واوان فى أول الحرف».(٥١)
فهو يثبت الواو على لغة من يهمز ، ويقول وؤى ، لأنه لم يجتمع واوان فى أوله ، بل واو وهمزة ، ويبدل على لغة من يسهل الهمزة ، فيقول أوى ، ولم يقل ووى ، لأنه بهذا يجمع بين واوين وهو مالاحظ أن العرب لم يألفوه .
ووجود واوين فى أول الكلمة كاف فى الابدال سواء أكانت الواوان متحركتين كما فى (وويصل) أم كانت ثانيتهما ساكنة كما فى (وولج ، ووى) .

أمّا تعليله الذى أجاب به سائله عن تصغير واصل فلم يقصد به الى تعليل هذه الظاهرة ، بل لايصح أن يكون تعليلا لها ، وكلّ ما قصد اليه هو لفت الذهن الى طبيعة العرب اللغوية وحسّهم الموسيقى .

---

(٥٠) عيون الاخبار لابن قتيبة جـ٢ ص ١٦٠ .
(٥١) الكتاب جـ٢ ص ٣٥٦ .

هذا ما استطعت الوصول اليه من نتائج توصل اليها الخليل ، ومن أقوال وآراء أملاها على تلاميذه فى دراسة مايسمى بعلم الأصوات ، وهى دراسة جديدة كل الجدة بالنسبة الى ما كان يدور فى معاهد البصرة من ثقافات عربية اسلامية • ومهما يقل فى مصدر هذه الدراسة فان الخليل بن أحمد أول من عرض لها بين علماء العربية ، وأول من نبه الأذهان الى ضرورة مثل هذه الدراسة لفهم اللغة وفقه بنائها العام ، وأول من لفت الأنظار الى الصوت وأهميته ، والى دراسة مخارج الحروف وتكوين الأصوات وتمازج بعضها مع بعض ، وما يأتلف منها ومالا يأتلف •

ومهما يكن الدافع الى العناية بهذه الدراسة فانها كانت ذات أهمية بالغة فى تفسير كثير من الظواهر اللغوية ، كالادغام والابدال والامالة والقلب والتضعيف وغيرها •

ويغلب على الظن أن اليونان هم أول من عنى بدراسة الأصوات ، ويعود الفضل فى قيام هذه الدراسة بين اليونانيين الى أمثال أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وكان الدافع الى هذه الدراسة هو حرصهم على سلامة نحوهم وعنايتهم بقواعده •

ويذهب الدكتور فؤاد حسنين الى أن الدارسين اليونان فى الأصوات كانوا يعنون قبل كل شيء ، بالظواهر الصوتية من ناحية السماع ، ولم يعنوا بمخارج الأصوات وأعضاء النطق [٥٢]•

ثم اذا بالشعب الهندى ــ وقد اضطرته رغبته فى اجادة ترتيل الكتاب المقدس المعروف بفيدا Veda ــ يهتم بما خلفه اليونان ، ويضيفون اليه

---

(٥٢) محاضرات الدكتور فؤاد حسنين على طلبة اللهجات العربية ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠ •

دراسة تناولت مخارج الحروف ، فاستكملوا ما فات اليونان استكماله ، وبذلك خلفوا لنا ماسماه المحدثون علم الأصوات الوصفى Discription Phonetics

ثم اذا بهذه الدراسة أو بأصولها تتسرب بواسطة الخليل الى معـــاهد البصرة ، تناولها الخليل على أنها دراسة نحوية خالصة ، وقد سبق أن استظهرنا أن الخليل انتقل بهذه الدراسة النحوية من كونها أداة للعمل القرآنى عند من سبق الخليل من نحويين ، الى كونها دراسة مستقلة عن العمل القرآنى ، وان كانت فى الوقت ذاته أداة صالحة له استفاد منها المهتمون به •

وسبق اليونان والهنود الى هذه الدراسة لايعنى أن الخليل نقل بحوثهم فيها الى العربية نقلا ، فهو اذا أخذ الفكرة الرئيسة منهم فقد أخذ يطبقها عـلى لغة جديدة تختلف عن لغة اليونان ولغة الهنود فى عدد الحروف وفى أصولها وفى مدارجها فى الفم ، وتنبّه الخليل اليها لايعنى أنها كانت معـــروفة كل المعرفة فى المعاهد العلمية البصرية ، فليس كل دارس فى هـــذه المعـــاهد (خليلا) •

يؤيدنى فى ظنى هذا أن الدارسين غير الخليل لم يعرف لهم رأى ، ولم يرو سيبويه فى كتابه لشيوخه الآخرين ما نطمئن الى أنهم كانوا على صـــلة بهذه الدراسة ، وأن هذه المجهودات التى بذلها الخليل ظلت بعد وفاته فى طىّ الكتمان تقريبا ، اللهم الا ماظهر لدارسى القراءات من كتب فى التجويد ليس فيها تجديد ، ولم تبن على غير المنهج الذى سار عليه الخليل ، ثم احتـــواها الخمول ، ولم يتنبه لها العالم العربى الا أخيرا عن طريق الدراسات الحديثـة التى نهضت فى القرن التاسع عشر ، حين عنى المحدثون باللغات اليونانيـــة والهندية السنسكريتية ، ولايزال اقبال الدارسين العرب عليها محدودا ضيق النطاق ، بحيث لم يظهر فيها فى العربية الا كتاب أو كتابان ، والا محاضرات مقصورة على طلبة الكليات التى تعنى بمثل هذه الدراسة •

أقبل الخليل على هذه الدراسة الجديدة يدرسها دراسة ذوقية خالصة ،تستند الى الملاحظة والحسّ اللغوى بوصفه عربى الملكة والسليقة ، وقد عرفنا كيف بدأ بتذوقها ، ووقفنا على كثير من النتائج التى توصل اليها مما نقله الينا تلاميذه •

واذا استطاع الخليل أن يستفيد من مجتمعه ، فيصغى الى حديث المتحدثين من العرب وغيرهم ، ويميز بين الأصوات التى يألفها العرب ، والأصوات التى لا يألفونها ، وأن يحصر الأصوات العربية حصرا مبنيا على فهم الطبيعة العربية ، فيعرف العربى الخالص الذى اختصّ به العرب ولا يشركهم فيه غيرهم ، والأصوات التى يشترك فيها العرب وغير العرب ، اذا استطاع الخليل ذلك فقد جاء بفتح عظيم ، وحق للعالم العربى أن يكبر هذه العقلية النادرة الفذّة •

ولم يستطع الدارسون من بعده أن يواصلوا السير فى الطريق التى رسمها لهم أو يستأنفوا السير من حيث وقف ، وكان الاستمرار فى هذه الدراسة أسهل وأقرب تناولا ، وخاصة بعد اتساع حركة الترجمة ، ووقوف العلماء على ما حولهم من ثقافات الأمم الأخرى ، ومن بينهم نحو اليونان ونحو الهنود •

كان حسبهم أن يقول الخليل شيئا ، فيتناولوه على أنه قضية مسلّم بها ، ولذلك لم نجد عند علماء العربية من بعده زيادات ذات بال ، اللهم الا مسائل جزئية تندرج فى الأصول العامة التى عرض لها الخليل ، ونبّه اليها الأذهان ، كالذى نقرؤه فى كتب ناس عرفوا بأنهم عنوا بهذه الدراسة وأسهموا فى تنظيمها وتهذيب أصولها وتتبع مسائلها كاصحاب التجويد ، وكبعض اللغويين والعلماء ، كابن دريد فى الجمهرة ، والأزهرى فى التهذيب ، وابن جنى فى

سر صناعة الاعراب وفى بعض أبواب الخصائص ، وابن فارس فى الصاحبى وغيرهم •

ونبّه الخليل فقهاء اللغة الى ضرورة هذه الدراسة فى فهم اللغة وفهم بنائها العام ، فاحتذى العلماء خطواته حين شرع بوضع معجم عام يضمنه كلام العرب ، فوضع ابن دريد كتاب الجمهرة ، وصدره بمقدمة يبحث فيها عن الحروف ومخاجها وصفاتها وتمازجها بحثا مقتبسا من كلام الخليل ، فاذا ما شرع فى معجمه بناه على المنهج الذى بنى الخليل عليه كتاب العين • ووضع الأزهرى كتاب التهذيب وفعل مافعله الخليل ، وسرد فى مقدمته أقوال الخليل وآراءه فى الأصوات وَمخارجها وخصائصها وتآلفها ، وأقام ترتيب كتابه على ما أقام عليه الخليل كتاب العين • ووضع ابن جنى «سر صناعة الاعراب» وهو كتاب فى دراسة الحروف وذكر أجناسها وصفاتها وما يأتلف منها وما لا يأتلف، ولم يسر فيه على ما سار عليهالخليل فىترتيب حروفالهجاء ، فقد بدأ بالهمزة وانتهى بالياء ، وكتابه هذا هو أول كتاب عنى فى جميع أبوابه بهذه الدراسة التى وضع الخليل أصولها • وغير هؤلاء كثير ممن نقل أقوال الخليل وغيره ، واكتفى بتدوين هذه الأقوال ، كابن منظور فى مقدمة كتابه (لسان العرب) ، وفى أوائل أبوابه ، وكابن الحاجب والرضى فى متن الشافية وشرحها ، وكالسكاكى فى مفتاحه ، وغيرهم •

وكما كان الدافع الأول الذى دفع الهنود الى تناول هذه الدراسة دافعا دينيا كانت العناية بالقرآن الكريم وقراءته واقرائه دافعا لطائفة القراء الذين أدركوا ضرورة الإنتفاع بهذه الدراسة فى ضبط القراءة وضبط أصولها ، فأخذوا هذه البحوث الخاصة بالأصوات وما بنى عليها من بحوث فى التضعيف والادغام والمخالفة والامالة والابدال ، وأضافوا اليها أحكاما ، ووضعوا لها مصطلحات جديدة ، وكان لديهم مما أخذوه ومما استخرجوه علم

جديد سموه علم التجويد • واذا بحثت فى أصول هذا العلم ومسائله عرفت أنها أصول ومسائل لاتخرج عن كونها في الأصوات ومخارجها وصفاتها وأحوالها المختلفة •

يقول بركستراسر : «كان علم الأصوات فى بدايته جزءا من النحو ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون ، وزادوا فيها تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم» •

وبركستراسر على حق فى هذا ، فان أقدم كتاب لدينا فى النحو هو كتاب سيبويه ، وكانت الدراسة الصوتية مبثوثة فى ثناياه ، والأبواب الخاصة مبحوث فيها على أنها من النحو ، فلما شعر القراء بضرورة الاستفادة منها أخذوها عن النحاة ، وتوسعوا فيها ، وزادوا فيها أشياء جديدة اقتبسوها من القرآن والروايات التى كانوا يتناقلونها خلفا عن سلف ، حتى أصبح علم التجويد علما مستقلا لا علاقة له بالنحو الخاص الاصطلاحى الذى كاد اخيرا ينفصل انفصالا تاما أيضا عما صحبه من فروع الدراسات العربية الأخرى كعلم الصرف وعلم الأصوات •.

(٤)

خطوة نحو التطبيق

لم يكن الخليل يهدف من دراسة الأصوات وتحـديد مخـارجها ، واستخراج صفاتها وترتيبها ترتيبا جديدا الى غرض نظرى أو الى نوع من المعرفة المجردة ، وانما كان يهدف الى تحقيق غرض عملى هو دراسة اللغـة، واستخراج قوانينها العامة ، وجمع مفرداتها فى معجم يسهل على الدارسـين تناوله ، والوقوف على جزئياته ومسائله ، ليتسنى له بذلك التسهيل عـلى الدارسين من جهة ، وحفظ اللغة الأصيلة من خطر الدخيل من جهة أخرى •

أخذ الخليل بعد انتهائه من دراسة حروف الهجاء على تلك الصـورة التى ابتناها يصنف اللغة فى كتاب ولكن لاكما فعل أبو عمرو ، ولا كما فعل أبو زيد والاصمعى وأبو عبيدة •

وقبل أن يصنف الكلمات على حسب الحروف لينشىء كتاب العين عمد الى :

١ ـ جمع اللغة عن طريق الرواية والسماع من فصحاء العرب الوافدين ، والأخذ عن شيوخه كأبى الخطاب وأبى عمرو بن العلاء ، والتجول فى بوادى الحجاز ونجد وتهامة ، وهو فى طريقه الى بيت الله الحرام فى حجاته الكثيرة •

٢ ـ احصاء اللغة احصاءا رياضيا يشمل ما استعمل وما أهمل ، وان كان لم يذكر فى كتاب العين الا ما كان مستعملا •

٣ ـ تصنيف الكلمات بحسب أصولها ، وقد وجد أنها ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ، وأخذ يستخرج الوجوه المحتملة من كل طائفة من هـذه

الطوائف ، فاذا به يجد نفسه أمام عدد هائل من الكلمات .

يروى السيوطى عن حمزة بن الحسن الأصفهانى أن الخليل «ذكر فى كتاب العين أن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى من غير تكرار اثنا عشر ألف ألف وثلاث مائة ألف وأربع مائة واثنا عشر ١٢٫٣٠٥٫٤١٢» [١] .

٤ ـ النظر فى كل طائفة على حدة ، نظر فى الثنائيات فوجد أن كل ثنائية تتصرف على وجهين يتأتيان من صورتها الأصلية ومقلوبها ، نحو قد و دق ، ومن ونم ، وهل وله ، ولم ومل الخ..

ونظر فى الثلاثيات فوجدها تتصرف على ستة أوجه سماها مسدوسة ، كما جاء فى رواية الليث نحو : ضرب ، رضب ، ربض ، ضبر ، بضر ، برض.

ونظر فى الرباعيات فوجدها تتصرف على أربعة وعشرين وجها .

ونظر فى الخماسيات فوجدها تتصرف على مائة وعشرين وجهاً [٢] .

واستطاع بتصريف الكلمات على تلك الصورة الرياضية أن يحصر ما يمكن أن تكون عليه الكلمة من وجوه بحسب ترتيب حروفها ، وهو يعلم أن كثيرا من هذه الصور لم يستعملها العرب فاقتصر على ما استعملوه وحصره وبنى عمله الجديد عليه ، وليس هو الا تخطيطا لمعجم يتضمن مفردات العربية، وهو ما أشار به على تلميذه الليث فى أثناء اقامته فى خراسان أن يقوم به ، ولا يعنينا الآن أن نعرض لصحة نسبة الكتاب الى الخليل وعدم صحتها ، ولكن الذى يعنينا الآن هو هذا التخطيط الذى رسمه الخليل وأبانه لتلميذه ، لأن

---

(١) المزهر للسيوطى جـ١ ص ٤٥ «مطبعة السعادة» .
(٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ .

الذى لانشك فيه كما لم يشك القدماء فيه أن تخطيط الكتاب من عمل الخليل لامن عمل الليث ولا غيره لأنه عمل بعقل الخليل أشبه وألصق •

قال الليث : «كنت أصير الى الخليل بن أحمد فقـــال لي يوما : لو أن انسانا قصد وألّف حروف أ ب ت ث على ما أمثله لاستوعب فى ذلك جميع كلام العرب ، وتهيأ له أصل لايخرج منه شيء البتة • فقلت له : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يؤلفه على الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى ، فانه ليس فى كلام العرب أكثر منه • قال الليث : فجعلت أستفهم ويصف لى ولا أقف عـلى مايصف فأختلف اليه فى هذا المعنى أياما ، ثم اعتلّ وحججت فما زلت مشفقا عليه وخشيت أن يموت بعلته فيبطل ماكان يشرحه لى ، فرجعت من الحج وصرت اليه فاذا هو قد ألّف الحروف كلها على ماهى فى هذا الكتاب ، وكان يملى علىّ ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لى : سل عنه فاذا صح فأثبته الى أن عملت الكتاب» (٣) •

وبقى الخليل يفكر فى رسم هذه الفكرة ، وبعد استقصاء وتدبر رأى أن أصول الكلمات العربية تسعة وعشرون حرفا ، هى حروف الهجاء ، وأن الكلمة العربية لاتخرج أبدا عن كونها مؤلفة من بعض هذه الحروف • وبدأ عمله بتذوق الحروف فهداه تذوقه كما مرّ تفصيل الكلام فيـــه الى ترتيب الحروف ترتيبا جديدا كان أول الحروف فيه هو العين ، وكان هذا الترتيب الجديد مبنيا على مالهذه الحروف من مدارج فى جـوف الفم مـن الحلق الى الشفتين ، ولذلك كان أول باب فى المعجم هو الباب الذى تنطوى تحته الكلمات التى تحتوى على حرف العين سواء أكانت العين مبتدأ بها أم غير مبتدأ بها •

وأول مادة بدأ بها هذا الباب هى العين مع القاف ، ثم القاف مع العين

(٣) معجم الادباء جـ١٧ ص ٥١ •

ثم العين مع الأرفع فالأرفع من الحروف الى أن انتهى الى العين مع الميم وهى آخر الحروف الصحاح عنده •

وكان ربما أضاف الى الأحرف الأصول أحرفا من الزوائد ، فلا يرى أنها تخرج عن أصل المادة المبحوث فيها ، فهو يذكر مثلا مادة (هطع) فيذكر فيها (مهطع) و (مهطعين) و(هطوعا) • وفى مادة (عزه) : العزهاة والعزهون لأن الميم والياء والواو والهاء والنون زوائد ولا عبرة بالزائد عنده •

وقد يذكر العين مع أحد الحروف ولا يعرض لهما منعكسين ، لأن عكسهما مهمل لم يثبت له استعمال فى العربية •

فاذا ما انتهى من الكلام فى العين مع احدى أخواتها فى فصل طويل للثنائيات دخل فى فصل جديد ، وهو : «الثلاثى الصحيح العين» • وأول هذا الباب هو «باب العين والهاء والقاف معهما» ، ولم يذكر من ذلك الا ما استعمل من وجوه هذه المادة ، ولم يستعمل منها كما ذكر الا وجهان فقط هما : هقع وعهق •

وهذا الباب كما رأينا يعتمد على العين وحرفين آخرين معها على أن يكون كل من الثلاثة أصلا لا زائدا ، ولم يورد تحته كلمة الا وهى حاوية لهذه الأصول الأساسية ، وليس معنى هذا أنه اقتصر على الأصول الثلاثة حسب بل كان يشتق منها صيغا تحتوى على زوائد يقتضيها الاشتقاق ، وما دامت هذه الحروف زوائد فلا عبرة بها ، ولا تخرج الكلمة عن الأصل الذى اندرجت تحته • وكان يستشهد على صحة كلمة واستعمالها فى لغة العرب بأبيات من الشعر وبآيات من القرآن الكريم •

هذا هو التخطيط الأساسى لكتاب العين ، وضعه وسار علماء اللغة على مقتضاه زمنا طويلا ، وكان ممن سار على هذه الطريقة ابن دريد فى الجمهرة والأزهرى فى التهذيب •

ثم ابتدعت طريقة أخرى تعتمد على الحرف الأول والثانى وما يثلثهما . وأقدم لغوى سار على هذه الطريقة هو ابن فارس فى كتابه «مقاييس اللغة» ، ولا يبعد أن يكون هو مبتدعها كما يستظهر بعض الدارسين المحدثين(٤) ، وسار عليها أيضا الزمخشرى فى كتابه «الأساس» ، والفيومى فى «المصباح المنير» .

ثم ابتدعت طريقة ثالثة وهى الطريقة الأخيرة التى سار عليها معظم أصحاب المعاجم والموسوعات اللغوية ، ويعتمد ترتيبها على الأصل الأول والأخير ، وسمى الأول فصلا والثانى بابا . وقد ابتدئت بعمل الجوهرى فى «الصحاح» ، وتبع الجوهرى فى هذه الطريقة ابن منظور فى لسان العرب ، والفيروزابادى فى القاموس المحيط .

وهذه الطريقة الثالثة كالطريقة الثانية مبنية على معرفة الأصول التى تبنى منها الكلمة ، هذا مع الرجوع الى ترتيب الحروف الذى نسبناه الى نصر ابن عاصم فى عهد الحجاج بن يوسف . ولم يتأت الظهور لهاتين الطريقتين الا بعد نضج دراسة الصرف واكتمالها ، ولم تنفصل هذه الدراسة بوصفها علما خاصا له موضوعه الخاص الا بعد زمن الخليل ، والصرف فى عهده لم يخرج عن كونه بحثا نحويا ، وكتاب سيبويه وهو كتاب فى النحو يتناول الموضوعات التى تتعلق بدراسة الحرف ، ودراسة البناء العام للكلمة ، ودراسة التأليف ، ولم يفصل دراسة عن أخرى من هذه الدراسات .

وقد ساعدت دراسة الصرف علماء اللغة على تأليف كتبهم فى نهج جديد، لعله أن يكون أسهل من النهج الذى ابتدعه الخليل ، وسار عليه فى كتاب العين . وطريقة الخليل فى كتاب العين سليمة لاغبار عليها ، بالرغم من أنها تمثل الطور الأول من الأطوار التى مرّ عليها جمع اللغة فى معجم .

---

(٤) مقدمة لدرس لغة العرب «عبدالله العلايلى» ص ١١٠ «المطبعة العصرية» .

وقد أخذ الأستاذ أحمد أمين على كتاب العين عيوبا ثلاثة ، بعضها يتناول المادة ، وبعضها يتناول الصورة ، أما مايتناول الصورة فهو أول العيوب وثانيها ، وأما ما يتناول المادة فهو العيب الثالث .

قال الأستاذ فى ضحى الاسلام : «وكان فى كتاب العين جملة عيوب :

١ ـ صعوبة الأخذ منه لصعوبة ترتيبه ، لأنه رتب حروفه حسب المخارج كما علمت ، ومن الصعب تتبع هذا ، ولأنه خلط بين الثلاثى المضاعف والرباعى المضاعف ، وفيه أيضا خلط كثير نبّه عليه الزبيدى فى مختصر العين .

٢ ـ أنه يذكر الكلمة ومقلوبها ، فيذكر فى مادة (ع ب د) مثلا : (ب ع د) ، (د ب ع) الخ .. فمن الصعب عند البحث عن كلمة معرفة أيّها الأصل وأيّها المقلوب .

٣ ـ أنه وقع فيه تصحيف كثير ، لما علمت من أن الكتابة فى ذلك العصر لم تكن تنقط ، وحروف اللغة العربية فضلا عن ذلك متقاربة فى الشكل» (٥) .

وقبل أن نعقب على مقالة الأستاذ فى أمر هذه العيوب نريد أن نقول : اننا لا نريد أن نعرض لكتاب العين شكا وريبة ، أو تصحيحا وتقبلا لصحة نسبته الى الخليل ، فقد يطول بنا الوقوف عند هذه المسألة فنبعد عن الموضوع الذى بنيت عليه هذه الرسالة .

ومهما يقل فيه فانهم لايختلفون فى أن طريقة الكتاب التى بنى عليها هى من عمل الخليل ، كما لايختلفون فى أن الخليل لو مدّ فى أجله ، وتعهّد الكتاب بنفسه لما وقع فيه ما وقع من خلط ، فهو فى نظر الدارسين أبعد من أن يقع فى مثل هذه الغلطات التى استدركها علماء اللغة على كتاب العين .

---

(٥) ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين جـ٢ ص ٢٦٩ .

يقول أبو بكر محمد بن حسن الزبيدى فى أول كتابه «استدراك الغلط الواقع فى كتاب العين» ـ كما يروى السيوطى ـ : «ونحن نربأ بالخليل عن نسبة الخلل اليه ، أو التعرض للمقاومة له ، بل نقول ان الكتاب لايصح له ، فتعاطى اتمامه من لايقوم فى ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه أو ولا يثبت عنه ، وأكثر الظن فيه أن الخليل سبب أصله ، ثم هلك قبل كماله ، الخطأ الموجود فيه» .

وروى عن الصولى أنه قال : «سمعت أبا العباس ثعلبا يقول : انما وقع الغلط فى كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو أن الخليل هو حشاه مابقّى فيه شيئا لأن الخليل رجل لم ير مثله» .(٦)

فالخلط الذى لاحظه الأقدمون ، واستند اليه الأستاذ فى سرد عيوبه لم يكن ليكون ـ فيما رأوا ـ لو أن الخليل تعهّد الكتاب بنفسه ، ولكنه كما يكاد العلماء يجمعون من صنع تلاميذ الخليل ، ولعلهم لم يفهموا قصد الخليل فى ترتيبه فوقع ما وقع فيه من خلط .

أما من ناحية الطريقة فكونها علمية أمر لاغبار عليه ، وليس كون الكتاب مبنيا على مخارج الحروف مما يعاب به ، فلو اصطلح الدارسون على اعتبار المخارج أساسا لترتيب الحروف لما شعروا بالصعوبة التى ذكرها الأستاذ .

وأما أنه يذكر الكلمة ويذكر مقلوبها فتصعب عند البحث عن كلمة معرفة أيّها الأصل وأيّها المقلوب ، فهو أمر قد احتاط الخليل له ، واحتفظ لنفسه بالاجابة عنه ، فقد صرح فى الكتاب أن مثل جذب وجبذ ليس فيه قلب وانما كل واحدة منهما على حدة (٧) . وهذا يتمشى مع جميع ماذكره ، فليست هذه الوجوه المتفرعة من تقليب الكلمة فى وجوهها المحتملة الا أصولا قائمة بذاتها .

---

(٦) المزهر للسيوطى جـ١ ص ٥٠ ، ٥١ «مطبعة السعادة» .
(٧) الكتاب جـ٢ ص ٢٨٠ .

وأما أنه وقع فيه تصحيف فأمر لايمسّ الطريقة التى نرى أنها علميـة لاغبار عليها •

هذا مع العلم بأن العلماء كانوا قد فرغوا من نقط الكلمات اعرابا منذ عهد أبى الأسود الدؤلى فى ولاية زياد على المصرين (من ٤٩ـ٥٣ للهجرة) ، ومن نقط الحروف اعجاما منذ عهد نصر بن عاصم فى ولايـة الحجـاج بن يوسف الثقفى •

ثم خطا الخليل فى ذلك خطوة أخرى فوضع مكان نقط الاعراب رموزا لهذه الحركات المعروفة ، من ضمة وفتحة وكسرة ، ووضع علامات أخرى كالهمز والتشديد[٨] • وقد سبق تفصيل ذلك فى فصل سابق •

فلا وجه اذن لما ذكره الأستاذ من «أن الكتابة فى ذلك العصر لم تكن تنقط • وحروف اللغة العربية فضلا عن ذلك متقاربة الشكل» •

هذا وقد استفاد أصحاب المعاجم المتأخرون من الخليل فى كتـاب العين أمورا ، منها :

(١) فكرة جمع اللغة فى كتاب ، وعمل الخليل فى هذا الشأن أول عمل من نوعه •

(٢) وأنهم بنوا فصول معاجمهم على الاصول فاذا أرادوا أن يعرضوا لكلمة (أقاويل) مثلا ، عرضوا لها فى مادة (ق و ل) ، مما بابه اللام ، وفصله القاف ، ولم يعدّوا الهمزة فصلا لأنها زائدة ، ولم يأخذوا الزوائد بنظر الاعتبار كما كان الخليل يفعل تماما •

---

(٨) المقنع لابى عمرو الدانى ص ١٢٥ «مطبعة الترقى بدمشق» •

(٣) وأنهم كانوا يستعينون ـ كما كان الخليل يفعل ـ على توضيح المعنى بايرادهم كثيرا من الشواهد من الشعر والأمثال ومن القرآن الكريم .

وقد تنبه «بروكلمان» لهذا كما نصّ عليه فى كتابه الذى ظهرت ترجمته حديثا ، وهو «تاريخ الشعوب الاسلامية» .(٩)

---

(٩) تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ٢٧ «طبع بيروت» .

الفصل الخامس

البناء العام للكلمة العربية

فاذا ما انتهى الخليل من تذوق الحروف ، والوقوف على خصائصها وطبائعها ، وما يتألف منه الكلام وما لايتألف ، انتقل الى الخطوة التالية وهى البناء العام للكلمة العربية ، ولم تتهيأ له دراسة البناء العام قبل أن ينتهى من دراسة الحرف على النحو المذكور .

وقد مر بنا أن استظهرنا أن الخليل كان ينظر الى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية ، فلابد أن تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية الأخرى ، ولابد أن يدرسها دراسة علمية طبيعية قائمة على الاستقراء والتجربة .

وقد تتبع الخليل كلام العرب فى مظانه ، فكان يخرج الى المربد يسمع من الاعاريب الوافدين اليه ، وكان يتنقل فى البوادى العربية خلال حجاته ، وكان الكسائى قد سأله ، وقد بهره منه علمه الجم ، واطلاعه الواسع ، عن المصادر التى استقى منها علمه ، فأجابه الخليل بأنها بوادى نجد والحجاز وتهامة (١) .

ولما اجتمع له هذا المقدار الضخم من المرويات والمسموعات ، أخذ يطيل النظر فيها ، ويتعرف خصائصها ، كمافعل فى دراسته للحروف .

وكان الخليل يعلم أن اتصال العرب بالأجانب فى الأمصار المفتوحة وفى التعامل التجارى معهم كان قد أدخل على لغتهم كثيرا من الكلمات الأجنبية التى أخذ العرب يستعملونها ، ويخضعونها لطبيعتهم اللغوية وأساليبهم فى

---

(١) نزهة الالباء ص ٨٣ .

التأليف حتى أثر الاستعمال فيها وغير شيئا من ملامحها ، وكادت تخفى حتى على علماء اللغة الذين اهتموا برواية اللغة عمن يثقون بسلامة لغته وصحة ملكته ، وهذه تبعة ثقيلة نهض بها الخليل فيما نهض به من تبعات ، واستطاع أن يضع موازين يعرف بها العربى من غيره ، مستنبطا هذه الموازين من طبيعة اللغة وحسّ العربى فى لغته :

(١) لقد سبق أن بينا أن الخليل استطاع أن يحصر الأصوات العربية، وأن يميز بين ماهو عربى خالص وما هو مشترك بين العرب وغيرهم ، وأن يقف على ماكان يألفه العرب وما لم يألفوه من تمازج بين الحروف ومن عادات صوتية تعودها العرب ، فاستطاع وهو يصرف النظر فى اللغة أن يستبعد منها الكلمات التى تتألف من أصوات لاتنطلق بها ألسنتهم ، ولا يألفها حسهم ، كما اذا اجتمع فيها خاء وغين أو خاء وهاء أو قاف وكاف أو قاف وجيم ، الى غير ذلك مما كان الخليل يرى أنه ليس من طبيعة لغتهم .

(٢) وكان الخليل قد التفت الى أثر الاستعمال فى اللغة وعرف أن العرب كانوا يميلون الى التخفف من كل ما يثقل على ألسنتهم ، خصوصا اذا كان كثير الدوران فى الكلام ، والتفت الى أن أخف التراكيب عند العرب ماكان مؤلفا من ثلاثة أصوات ، فاذا زاد على الثلاثة ثقل على ألسنتهم ، ولذلك كانت الكلمات التى تزيد أصولها على ثلاثة أقل من الثلاثيات ، وكانت الخماسيات أثقل التراكيب جميعا ، ولكن العرب مضطرون أن يستعملوا مازاد على ثلاثة أصول ، ولم يعدموا الحيلة فى ان يخففوا شيئا من ثقل هذه الأبنية ، فكانوا يضمنونها حروفا تنطلق بها ألسنتهم بخفة ويسر ، وهى الحروف التى سماها الخليل حروف الذلاقة ، أعنى الراء واللام والنون والفاء والباء والميم، «فليس شيء من بناء الخماسى التام يعرّى منها أو من بعضها ، قال الخليل :

فان وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من الحروف الذلق والشفوية ، فاعلم أنها مولدة وليست من صحيح كلام العرب»[٢] .

أما الأبنية الرباعية فلها حكم آخر ، لأنها وسط بين الثلاثية والخماسية ، فاذا كانت أثقل من الأولى فهى أخف من الثانية ، ولذلك وجد الخليل أن من الأبنية الرباعية ما يخلو من هذه الحروف أو احدها ، ولكنه رأى أنها اذا خلت من أحرف الذلاقة فلابد أن يعوض عنها بالعين والقاف أو احداهما ، وبالسين والدال أو احداهما ، وكان يقول : «مهما جاء من بناء اسم رباعى منبسط معرّى من الحروف الذلق والشفوية فانه لايعرى من أحد حرفى الطلاقة أو كليهما ومن السين والدال أو احدهما ، ولا يضر ما خالطه من سائر الحروف الصتم»[٣].

أما العين والقاف فكان يسميها حرفى الطلاقة ، لأن العين عنده أنصع الحروف جرسا وألذها سماعا ، والقاف عنده أصح الحروف جرسا .

وأما السين والدال فهما حرفان لينان ، فالسين حرف هش قد استخفته العرب فى بناء استفعل ، والدال حرف لان عن صلابة الطاء وارتفع عن خفوت التاء .

فالذى خفف مثل كلمة (عسجد) عنده وان خلت من أحد أحرف الذلاقة هو وجود العين والسين والدال فيها .

فلو جاءت أبنية رباعية خالية من أحد أحرف الذلاقة ، وفيها العين وحدها ، أو السين وحدها ، نفى أن تكون عربية ، ولو جاءت روايتها عن ثقة ، ولذلك كان يعدّ مثل (قعثج) بناء دخيلا لم يألف العرب أمثاله .[٤]

---

(٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص٥ . لسان العرب ـ حرف الباء .
(٣) الجزء المطبوع من كتاب العين ، ص٦ . لسان العرب ـ حرف الباء .
(٤) التهذيب للازهرى جـ١ ص ٢١ مخطوطة بدار الكتب رقمها : «٩ لغة» .

وسأله الليث : « كيف تكون الكلمة المولدة المتبدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف ؟ فقال : نحو الكشعثج والخضعثج والكشعضج وأشباهنّ ، فانهنّ مولدات لاتجوز فى كلام العرب لأنه ليس فيهن شيء من الحروف الذلق والشفوية ، فلا تقبلنّ منها شيئا ، وان أشبه لفظهم وتأليفهم ، فان دخيل النجار يرميهم بها ، اذ ربما أدخلوا على الناس ماليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنيت» .(٥)

(٣) وكان الخليل قد استطاع باستقرائه الطويل الدائب أن يحصر الأمثلة والأوزان التى بنيت عليها الكلمات العربية ، وأن يطمئن الى أن ما يخالف هذه الأمثلة ليس من الأبنية التى يألفها العرب ، وانما هو مولد ، ولذلك جاء فى الكتاب : أنه ليس فى الكلام فاعَيْل ولا فاعَوْل ولا فاعلاء ولا فِعَنْلى ولا فِعُنلى ولا فعلوان .(٦)

وجاء فى الجمهرة عن الخليل أنه «ليس من كلامهم فَعْيَل الا مصنوعا» .(٧)

فللخليل لمعرفة الدخيل من الأصيل ثلاثة موازين ، توصل اليها بدراسة الحروف وخصائصها واستقرائها فى ثنايا الكلمات ، وتتبع الأمثلة التى بنيت عليها الكلمات العربية :

(١) أن يجتمع فى الكلمة حرفان لم يألف العرب اجتماعهما .

(٢) وأن تكون الكلمة رباعية أو خماسية وليس فيها حرف أو اكثر من أحرف الذلاقة .

(٣) أن تكون الكلمة على مثال خاص لم يبن العرب كلامهم على مثله .

---

(٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص٥ .

(٦) الكتاب ، جـ٢ ص ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٧) الجمهرة ، لابن دريد جـ١ ص ٤ .

(١)

كيف تتألف الكلمات

تتألف الكلمات عند الخليل بضم بعض الأصوات الى بعض وهى انما تتألف من الحروف الصامتة الساكنة ، وهى ساكنة خلو من الدلالة على معنى من المعانى ، بل لايستطاع النطق بها ، حتى يتوصل الى ذلك بحروف اللين أو بالحركات التى هى أبعاض حروف اللين ، فضرب مثلا تتألف من (ضْ رْ بْ) ، ومن الحركات التى تعين على النطق بها ، واذا كانت الضاد والراء والباء سواكن ليس فيها حركات تعذر النطق بها ، وخلت من الدلالة على المعنى الذى تدل عليه كلمة (ضَرَبَ) . فاذا أريد النطق بها جىء بحروف اللين أو بالحركات تفصل بينها ، وتمكنّ للسان أن ينطلق بها ، كضَرَبَ و ضُرِبَ و ضارب .

قال الخليل : «ان الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهنّ يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذى لازيادة فيه ، فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو ، فكل واحدة شىء مما ذكرت لك» .(١)

فالحركات عنده ليست الا أصوات مدّ كالألف والواو والياء ، الا أنها مدّ قصير ، فالفتحة ألف قصيرة ، والضمة واو قصيرة ، والكسرة ياء قصيرة ، وهذا ـ فيما رأينا ـ هو الذى أوحى له حين أعرب القرآن أن يرمز للفتحة بألف صغيرة توضع فوق الحرف ، وللضمة بواو صغيرة توضع فوق الحرف ،

---

(١) الكتاب جـ٢ ص ٣١٥ .

وللكسرة بياء صغيرة توضع تحت الحرف ، بعد أن كانت هذه العلامات تعتمد على النقط الذى اصطنعه أبو الأسود الدؤلى •

واذ عرف أن الحروف الصامتة الساكنة هى البناء الذى لازيادة فيه انفسح المجال له لدراسة البناء من نواح متعددة ، من حيث عدد الحروف التى يتألف منها البناء ، ومن حيث دلالة هذه الحروف على معانيها المجردة ، ومن حيث ما طرأ عليها من حروف زائدة ومعان زائدة •

فقرر أن الكلمات العربية من حيث عدد أصولها أربعة أنواع : ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ، «فالثنائى على حرفين ، نحو قد ولم وهل ولو وبل، ونحوه من الأدوات والحروف • والثلاثى من الأفعال نحو قولك : ضرب ، خرج ، دخل ، مبنى على ثلاثة أحرف ، ومن الأسماء نحو عمر وجمل وشجر ، مبنى على ثلاثة أحرف • والرباعى من الأفعال نحو دحرج وهملج وقرطس ، مبنى على أربعة أحرف ، ومن الأسماء نحو عقرب وعبقر وجندب وشبهه • والخماسى من الأفعال نحو اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكرّ ، مبنى على خمسة أحرف ، ومن الاسماء نحو سفرجل وهمرجل وشمردل وكنهبل وقرعبل وعقنقل وقبعثر وشبهه[٢] والألف فى اسحنكك واقشعر واسحنفروا سبكرّ ليست من أصل البناء ، وانما دخلت هذه الألفات فى الأفعال وأمثالها من الكلام ، لتكون الألف عمادا وسلّما للسان الى الحرف

---

(٢) هملج : ذلل ، وأمر مهملج مذلل منقاد ، وقرطس : أصاب القرطاس ، وعبقر : موضع كثير الجن •

واسنكك : الليل اظلم ، واقشعر : أخذته قشعريرة أى رعدة ، واسحنفر : مضى مسرعا ، واسبكر : اضطجع وامتد •

وهمرجل : الجواد السريع ، وشمردل : الفتى السريع من الابل وغيرها ، وكنهبل شجر عظام ، وقرعبل دويبه عريضة بطيئة • وعقنقل: الوادى العظيم المتسع والكثيب المتراكم ، وقبعثر : العظيم الخلق • «القاموس المحيط» •

الساكن ، لأن حرف اللسان لاينطلق بالساكن من الحروف فيحتاج الى ألف الوصل ، الا أن دحرج وهملج وقرطس لم يحتج بهن الى الألف» .[٣]



وقرر أن الاسماء فى العربية لاتقل عن ثلاثة أصول ولا تزيد على خمسة أصول ، وقال : «ليس للعرب بناء فى الأسماء ولا فى الأفعال أكثر من خمسة أحرف ، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف فى فعل واسم فاعلم انها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة ، مثل قرعبلانة ، انما أصل بنائها قرعبل ، ومثل عنكبوت انما أصل بنائها عنكب »[٤].

وقال : «ان الاسم لايكون أقل من ثلاثة أحرف ، حرف يبتدأ به ، وحرف تحشى به الكلمة ، وحرف يوقف عليه ، فهذه ثلاثة أحرف مثل سعد وعمر ونحوهما من الأسماء ، بدىء بالعين وحشيت الكلمة بالميم ووقف على الراء»[٥] .

وهذه الملاحظة ـ فى أغلب الظن ـ كانت مفتاحا لعقد الابواب فى المجرد والمزيد وأقسامهما ، وللكلام فى الأصول والزوائد ، ولاستقراء الزوائد التى جمعها قولهم «سألتمونيها» .

والأصول هى التى تشترك فى الدلالة على المعنى الأساسى للكلمة ، والزوائد يجاء بها للدلالة على معان زائدة عن المعانى الأساسية ، كالمشاركة المستفادة من الألف فى فاعل ، أو يجاء بها للاستعانة بها على النطق بالساكن، كالألف فى اقشعر واقتطع ، وفى ابن واسم وغير ذلك من المواضع التى يضطرون فيها الى الاستعانة بها على النطق بالساكن .

---

(٣) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٥ .
(٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ .
(٥) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣ .

واعترضته أسماء شاذة عن هذا الأصل الذى قرره يدل ظاهرها على أنها تألفت من أصلين اثنين كيد ودم وفم ، فأخذ فى تأويلها ليستقيم له عموم الأصل ، فذهب الى أن بعض الحروف يُعتل ويضعف ، فلا يثبت فى بعض الأحوال لكثرة الاستعمال ، ووجد أن العرب اذا جمعوا هذه الأسماء قالوا : أيدى ودماء وأفواه ، مما يدل على أن هناك حرفا ثالثا سقط منها بالاستعمال ، وفطن الى أن بعض الحروف التى تعتل وتسقط فى الاستعمال تظهر فى التثنية والجمع والتصغير وغيرها ، فاستطاع أن يستخرج مقياسا لمعرفة السواقط .

قال : «وقد تجىء أسماء لفظها على حرفين وتمامها ومعناها على ثلاثة أحرف ، مثل يد ودم وفم ، وانما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكن وخلفها السكون ، مثل بايد وبادم فى آخر الكلمة ، فلما جاء التنوين ساكنا اجتمع ساكنان ، فثبت التنوين لأنه اعراب ، وذهب الحرف الساكن . فاذا أردت معرفتها فاطلبها فى الجمع والتصغير ، كقولهم : أيديهم فى الجمع ، ويُديّة فى التصغير ، ويوجد أيضا فى الفعل مثل دميت يده» .(٦)

وتفرعت عن هذا الأصل مسألة عقد لها سيبويه بابا خاصا هو باب تسمية الحروف والكلم التى تستعمل وليست ظروفا ولا أسماء غير ظروف ولا أفعالا .(٧)

وهذه المسألة هى التسمية بالحروف سواء أكانت ثنائية أم ثلاثية أم اكثر . والتسمية بالحروف الثنائية قد تخالف بظاهرها الأصل العام الذى قرره الخليل ، من ان الأسماء فى العربية لاتقل عن ثلاثة أحرف ، ولكنّ

---

(٦) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣ .

(٧) الكتاب ج ٢ ص ٣١ .

الخليل استطاع أن يدخل هذه الأسماء فى الأصل الذى قرره ، وموجز رأيه فيهـــا :

أن الحروف الثنائية اذا سمى بها ضعّف الحرف الثانى ، لتصبـــح الكلمة مكونة من ثلاثة أحرف ، لأن الحرف المضعف عبارة عن حرفين أولهما ساكن ، فاذا سميت انسانا ببل أو هل أو قد قلت : هذا بلٌّ وهلٌّ وقدٌّ .

ومذهب الخليل فى الثنائى المختوم بواو أو ياء ، نحو أو ولو وكى هو مذهبه فى الثنائى الصحيح الآخر ، فاذا سمى انسان بأو أو لو أوكى ضعفت أواخرها كما ضعفت أواخر بل وهل وقد ، فقيل : هذا أوّ ولوّ وكيّ ، بدليل ما رواه الليث عنه، فقد زعم أن الخليل قال : «ان صيرت الثنائى مثل قد وهل اسما أدخلت عليه التشديد ، فقلت هذه لوْ مكتوبة ، وهذه قدٌّ حسنة ، زدت واوا على واو ، ودالا على دال ، ثم أدغمت وشددت . فالتشديد علامة الادغام والحرف الثالث كقول ابن يزيد الطائى : (٨)

ليت شعرى وأين منى ليت   ان ليتا وانّ لوّا عناء» (٩)

وبدليل ما صرح به سيبويه فى حرف آخر يشبه (لو) ، فذكر أن مذهب الخليل فيه اذا سمى به ، تضعيف آخره فقال : « كان الخليل يقول : هذا ذَوّ بفتح الذال لأن أصله الفتح» (١٠) . وقال : «وسألته عن رجل اســمه (فو) فقال : العرب قد كفتنا أمر هذا ، لمّا أفردوه قالوا : فم ، فأبدلوا الميم مكان الواو حتى يصير على مثال تكون الأسماء عليه ، فهذا البدل بمنزلة تثقيل لوّ ، ليشبه الأسماء ، فاذا سميته بهذا فشبهه بالأسماء كما شبهت العرب ، ولولم يكونوا قالوا فم لقلت فوه ، لأنه من الهاء . قالوا أفواه كما قالوا سوط واسواط» (١١) .

---

(٨) لعله أبو زبيد الطائى كما ذكره الاعلم فى هامشه على الكتاب جـ٢ ص ٣٢ .
(٩) الجزء المطبوع من كتاب العين ص٣ .
(١٠) الكتاب جـ٢ ص ٣٣ .
(١١) الكتاب جـ٢ ص ٣٣ .

ولكن ابن منظور يزعم أن الخليل كان يهمز ما ختم بواو . قال : « وأما الخليل فانه يهمز هذا النحو اذا سمى به [١٢] ، وهو وهم ، لأن ما ذكره الليث ، وما ذكره سيبويه يدفعان كل زعم من هذا القبيل ، على أن ما زعمه ابن منظور ونسبه الى الخليل قد عرض له سيبويه أيضا ، ولكنه نسبه الى بعض العرب ، فقال : «وكان بعض العرب يهمز كما يهمز النؤور فيقول لوء»[١٣].

ومهما يكن من أمر فان الأصل السامي في الغالب يتكون من ثلاثة أصوات [١٤] ، والعربية احدى هذه اللغات السامية ، وقد مرت في تطورها بمراحل كانت مفرداتها في المرحلة الأولى مبنية على مقطع واحد بسيط ، مثل يا ، تا ، وفي المرحلة التي تلي هذه أصبحت مفرداتها مبنية على مقطعين ، وقد أراد الانسان في هذه المرحلة الحاق مقطع بمقطع ، ليحاكي الطبيعة في أصواتها المختلفة ، وهذه المرحلة وان كانت هي الثانية تعد الأولى بالنسبة الى اللغة ، بوصفها آلة قصد بها الدلالة على معنى من المعاني ، ولذلك يقول بركستراسر : « أقدم الأسماء صيغة هي الأسماء الثنائية» .[١٥]

وفي المرحلة الثالثة كان الانسان يجمع من المقاطع البسيطة ليؤلف دلالة مركبة ، ونشأت بذلك المفردات الثلاثية ، ومن المفردات في هذا الدور اتخذت العربية كأخواتها الساميات وحدتها ، واستقرت في الثلاثي .[١٦]

---

(١٢) لسان العرب جـ٢٠ ص ٣٥٨ .

(١٣) الكتاب جـ٢ ص ٣٣ . النؤور كصبور حصاة كالاثمد تدق فتسفها اللثه (ق ـ نور) .

(١٤) نشوء اللغة العربية «الكرملي» ص ١٠٧ ، فقه اللغة «وافي» ص ١٢ ، مقدمة لدرس لغة العرب ص ١٢٤ .

(١٥) التطور النحوي للغة العربية لبركستراسر ص ٦١ .

(١٦) مقدمة لدرس لغة العرب ، للعلايلي ص ١٢٤ ، التطور النحوي ص ٦١.

ولكن القوانين اللغوية ليست عامة عموم القوانين الطبيعية والرياضية ، ولذلك وجدنا جانبا من المفردات شذ عن هذا الأصل اللغوي العام متمثلا في أدوات وأسماء نحو هو وهم وهي ، وذا وذه ، ومن وما ، ويد ودم وفم ، أي أن هذه الأدوات والأسماء المكونة من حرفين لم يلحقها التطور ، بل احتفظت بتأليفها وهي في المرحلة الثانية ، فلم تلحق بأخواتها التي اكتملت بدخولها في المرحلة الثالثة واستقرارها على ثلاثة أصول ، ومع ذلك فان العربية اشتقت من بعضها صيغا جديدة بزيادة أحد حروف العلة ، أو بزيدة همزة أو هاء ، كأخوات وأبوة وأفواه وأبو زيد ، مما يعده الخليل أصلا كان ملحقا بها ، ثم سقط منها في مطاوي الاستعمال •

وقد قسم الخليل كلام العرب الى أربعة أصناف ، الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي ، ولكنه قصر الثنائي على الحروف والأدوات •

أما الأسماء المؤلفة من أصلين فقد أوله بما سبق بيانه لأنه كان يرى ـ وقد أيدته البحوث الحديثة ـ أن أقل ما يتألف منه الاسم ثلاثة أصول •

وأما الأسماء المبهمة المؤلفة من حرفين نحو ذا ومن ، والضمائر المؤلفة من حرفين نحو هي وهو ، فلم أعلم أن للخليل فيها رأيا ، ولم يحاول اخضاعها لتأويلاته ، كما فعل في يد وفم ونحوهما ، وهي عنده ـ فيما نظن ـ علامات أقرب منها أسماءا وان عوملت معاملة الأسماء في الاعراب •

ويقوى هذا الظن قوله الذي سبق ذكره : «فالثنائي على حرفين نحو قد ولم وهل وبل ونحوه من الادوات والحروف» ، فلعله كان يريد بالأدوات هذه الأسماء المبهمة والضمائر المبنية على حرفين •

وكأنه باصراره على تأويل هذه التي شذت عن الأصل ، وبقيت على حرفين كان يرمي الى أن يؤكد أن الوحدة في اللغة العربية كلمة مؤلفة من ثلاثة أصوات صوت يبدأ به ، وصوت يوقف عليه ، وصوت تحشى به الكلمة•

(٢)

حول الاصول الثلاثة

ثم أخذ ينظر فى أبنية الكلمات فى أوائلها وأواخرها نظرة فاحصة ، ليعرف ما ألفه العرب ، وما لم يألفوه ، فانتهى الى هذه النتائج :

(١) رأى أن العرب يستثقلون اجتماع الواوين كما يستثقلون اجتماع الهمزتين ، فلم يجىء فى كلامهم واوان فى أول الكلمة ، وبنى على هذه الظاهرة اللغوية مذهبه فى ابدال الهمزة مكان الواو ، اذا اضطرهم التأليف الى اجتماع واوين ، كما مرّ من ابدال الهمزة مكان الواو فى مصغر واصل ، فكان العرب يقولون : أويصل ، مع أن ظاهر القياس يقتضى أن يقولوا : وويصل كما يقولون : قويعد فى قاعد وسويكن فى ساكن .

وكما مرّ من ابدال الهمزة مكان الواو اذا صيغ فُعْل من (وأيت) فيمن خفف الهمزة ، فقد كان الخليل يقول : أوى كما ترى ، وكان يقول : «لابد من الهمزة ، لأنه لايلتقى واوان فى أول الحرف» .(١)

وقد يبدلون التاء مكان الواو فى مثل هذه المواضع ، وان لم يكن ذلك مطردا ، كما فى تولج فانها فى رأى الخليل فوعل ، فأبدلوا التاء مكان الواو ، وانما جعلها فوعلا ، ولم يجعلها «تفعل» ، لأنه ـ فى أغلب الظن ـ رأى أنّ تفعل انما تجىء فى أبنية الأفعال لا أبنية الأسماء .(٢)

(٢) ورأى أنه لم يجىء فى كلامهم حرف آخره واوان متحركان ،

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) المصدر السابق .

واذا اقتضى التأليف ذلك أبدلوا ، ولذلك كانوا يصوغون ما جاء فى آخره واوان متحركان من الأفعال على فَعِلت (بفتح فكسر) ، حتى يتيسر لهم قلب الثانية ياءا كما فى قويت وحويت ، وهما من القوّة والحوّة ، ولم يصوغوه على فَعَلت (بفتحتين) ، أو فَعُلت (بفتحة فضمة) ، لئلا يعدموا الحيلة فى قلب الثانية ، فثبت لهم الواوان •

وقد سأله سيبويه عن عدم اجراء العرب (قويت وحويت) مجرى غزوت ، فلم يقولوا قووت وحووت ، فأجابه بأنهما من المضاعف ، فيضطر المتكلم الى أن يرفع لسانه ثم يعيده ، وفى ذلك من الثقل ما يتجنبه العرب فى كلامهم • أمّا غزوت فليس فيها الا رفعة واحدة ، ولذلك أجازوا أمثالها •(٣)

أما اذا كانت الواو الأولى ساكنة فلا مانع يمنع من اجتماعهما ، لخلوه اذ ذاك من المحذور الصوتى الذى عرض له الخليل ، نحو قوّه و حوّه ، لأن اجتماع الواوين أولاهما ساكنة وثانيتهما متحركة يئول الى الادغام • والحرفان المدغم أولهما فى ثانيهما بمنزلة الحرف الواحد فى تحريكة اللسان ، فكأن اللسان فيهما يرتفع رفعة واحدة •

(٣) ورأى أنه لم يجىء فى كلامهم كلمة فاؤها واو ، ولامها واو ، فليس من كلامهم مثل وعوت ، وقد «كرهوا ذلك كما كرهوا أن تكون العين واوا واللام واوا ثانية» (٤) ، فاذا اقتضى التأليف ذلك لجئوا الى الابدال فى الثانية •

وعلى هذا لانكاد نفرق بين مالامه واو ، ومالامه ياء ، من مثل قولهم : وعيت ووفيت ونيت ووقيت ووشيت ، الى غير ذلك من المعتلات التى هى

---

(٣) الكتاب ج ٢ ص ٣٩٠ •
(٤) الكتاب ج ٢ ص ٣٩٠ •

من اللفيف المفروق ، لأنهن جميعا على فَعَل يَفْعِل ، ولا تثبت الواو فى الماضى كما لا تثبت فى المضارع ، أما فى الماضى فلفتح ما قبلها ، وسيجىء الآن أنه ليس فى كلامهم كلمة آخرها واو مفتوح ماقبلها ، وأما فى المضارع فلكسر ما قبلها .

(٤) ورأى أنه ليس فى كلامهم حرف آخره واو أو ياء مفتوح ما قبلهما (٥) ، واذا اضطرهم التأليف الى مثله لجئوا الى الابدال ، فأبدلوا الألف مكان الواو والياء .

وعلى هذا الأصل بنى جميع المقصورات فى الكلام العربى ، وألحق بها الأفعال المضارعة المعتلة الآخر بالواو أو بالياء اذا بنيت لما لم يسمّ فاعله ، نحو قولهم : يُنوى ويروى ويقتضى ويستقصى ، وأسماء المفعول من غير الثلاثى كالمصطفى والمستقصى .

وكان الخليل وسيبويه يسميان المقصورات منقوصات ، وذلك يرجع الى «أن تبدل الألف مكان الياء والواو ، فلا يدخلها نصب ولا رفع ولا جر» (٦) . ومن هذه المقصورات «أشياء يعلم أنها منقوصة ، لأن نظائرها من غير المعتل انما تقع أواخرهنّ بعد حرف مفتوح ، وذلك نحو معطى ومشترى وأشباه ذلك ، لأن معطى مُفْعَل ، وهو مثل مُخْرَج ، فالياء بمنزلة الجيم والراء بمنزلة الطاء ، فنظائر ذا تدلك على أنه منقوص ، وكذلك مشترى ، انما هو مفتعل ، وهو مثل معترك ، فالراء بمنزلة الراء والياء بمنزلة الكاف .

ومثل هذا مغزى وملهى انما هما مَفْعَل ، وانما هما بمنزلة مَخْرَج فانما هى واو وقعت بعد مفتوح ، كما أن الجيم وقعت بعد مفتوح ، وهما لامان،

---

(٥) الكتاب جـ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٦) الكتاب جـ ٢ ص ١٦١ .

وأنت تستدل بذا على نقصانه»[7] .

وقد تفرع عن هذا الأصل العام أصل آخر تردد على ألسنة النحاة كثيرا ، وهو أنه اذا تحركت الواو والياء وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفا ، سواء أكانت الياء والواو متطرفين كما مرّ أم كانتا فى وسط الكلام ، كما فى نحو مختار فأصله عندهم مُخْتَيَر أو مُختَيَر .

ومن أجل أنه ليس فى كلامهم واو أو ياء مفتوح ما قبلها ، ومن أجل أن الأسماء فى العربية لاتقل عن ثلاثة أصول ، كما هو رأى الخليل ، ذهب الخليل الى تضعيف آخر الحروف الثنائية من بنات الواو والياء نحو لو وكى اذا سمى بها ، كما سبقت الاشارة اليه ، فاذا ضعفت الواو والياء أصبحت الحروف من الثلاثيات ، واتسقت مع طبيعة العرب فى بناء كلامهم ، وكانت أيضا بمنأى عما لم يألفه العرب فى كلامهم من واو أو ياء قبلهما حرف مفتوح ، لأن تثقيل الواو فى (لوّ) ينحل الى واوين أولاهما ساكنة ، وتثقيل الياء فى (كى) ينحل الى ياءين أولاهما ساكنة ، وقد سبق أن العرب لايستثقلون اجتماع واوين فى آخر الكلمة اذا كانت الأولى ساكنة كما فى مثل قوّة وجوّة وغيرهما .



أرأيت الآن كيف أن الخليل كان على حق فى تمهيده الدراسة اللغوية والنحوية بالدراسة الصوتية . ودراسة الحروف ومخارجها ، واستقراء ما ينطلق على ألسنتهم وما لاينطلق ، فكثير من الظواهر اللغوية مرجعها الطبيعة الصوتية .

وقد سمعنا الآن كيف أن الخليل كان يذهب الى قلب الواو الثانية ياء فيما ختم بواوين متحركين ، وعرفنا من تعليله ذلك أن ابدال الثانية انما

---

(٧) المصدر السابق .

مرجعه ما يشعر به العرب من ثقل لو تركت الواوان على حالهما ، «لأنه يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد ، ثم يعودوا اليه ، فلما صار ذلك تعبا عليهم أن يداركوا فى موضع واحد ولا تكون مهلة كرهوا وأدغموا ، لتكون رفعة واحدة ، وكان أخف على ألسنتهم» (٨) .

وعلى هذا الذى أدركه الخليل بنيت ظاهرة الادغام فى اللغة العربية ، لأن الادغام فيها مبنى على اجتماع حرفين متماثلين ، فاذا جاءت كلمة عينها ولامها من جنس واحد ، وهما متحركان استثقلوا ، فحذفوا حركة الأول منهما ، وأدغموه فى الثانى ، لئلا يستعملوا ألسنتهم فى مخرج معين ، ثم يعودوا اليه ، وليتحرك اللسان بعد الادغام مرة واحدة ، لأن الحرف المثقل المكون من حرفين ساكن ومتحرك عندهم بمنزلة الحرف الواحد ، ولم يتركوا الحرفين المتحركين اللذين هما من جنس واحد على حالهما الا فى مواضع معينة يضطرهم التأليف فيها اليه ، كما اذا قصدوا الحاق بنات الثلاثة ببنات الأربعة ، كالحاق قردد بجعفر وقُعْدَد بُجنْدَب ، وجلبب بدحرج ، لأن الغرض من الالحاق هو التماثل بالوزن فاذا أدغموا فاتهم هذا الغرض .

وبالاضافة الى أن فى اللغة ظواهر لاتفسر الا بالوقوف على طبائع الأصوات ، فان دراسة الأصوات تعين على :

(١) تجويد القرآن وترتيله ترتيلا حسنا .

(٢) واخراج لغة التخاطب اخراجا حسنا ترتاح له الأذن .

(٣) وتحصين اللغة العربية ضد أصوات طارئة حملتها الى البيئات العربية عناصر أجنبية اضطرت الى مشاركة العرب فى حياتهم ولغتهم ، ولم تستطع أن تتخلى عن الرواسب اللغوية المتبقية من لغاتها الأصلية التى نشأت عليها .

---

(٨) الكتاب ج ٢ ص ٣٩٨ .

وقد قرأت وأنا بصدد هذا فقرة كيتها Walter Ripman في مقدمة كتابه : The English Phonetics ص٩ عارضا فيها لنوعى الكلام ، أعنى الكلام المقنن Standard ، واللهجة Dialect وقد قصر القول فى هذه الفقرة على الفوائد التى تجنى من النـــوع الأول ، وذكر أن لهذا النوع فوائد ، بعضها يحقق غرضا اجتماعيا ، وبعضها يحقق غرضا جماليا ، وبعضها يحقق غرضا تربويا ٠

أما الفوائد الاجتماعية فتتمثل بما يجنيه الفرد فى عمله وفى معاملاته مع مواطنيه ، فان الرجل الذى لا يعرف الا العامية سيجد نفسه معطلا متلددا فى عمله وفى معاملاته مع مواطنيه ، وبما يجنيه العامل والواعظ والمحامى والسياسى وغيرهم ممن يريد أن يوصل أفكاره الى جماعات تجمع بين مستويات عقلية مختلفة ، فان هؤلاء جميعا يحتاجون الى هذه اللغة ، لكى يحققوا ما يريدون ٠

وأما الفوائد الجمالية فتتمثل بهذه المتعة التى يحسّ بها من يستمع الى قراءة جيدة واضحة ٠

وأما الفوائد التربوية فتتمثل بالاقتصاد فى الجهود التى يبذلها المعلم فى تلقين تلاميذه مايريد تلقينهم اياه ٠ ويرى أن من التبذير للجهود أن لاينطـق المعلم والطلبة بلغة واضحـة بحيث لاتنتسب الى لهجـة معينـة من لهجـات التلاميذ المختلفة ٠

(٣)

الابتداء والوقف

كان الخليل كما استظهرنا ــ يرى أن الوحدة التى استقر عليها الكلام العربى هى الثلاثى ، والثلاثى عنده أبسط أنواع الأبنية ، وهو مؤلف من ثلاثة أحرف ، حرف يبتدأ به ، وحرف يوقف عليه ، وحرف يتوسط ما يبتدأ به وما يوقف عليه •

وكان قد عرض لبناء الكلمات ، فذكر أنها تبنى من الحروف الصامتة الساكنة ، وأن هذه الحروف هى أصل البناء ، ولما لم يمكن النطق بها استعانوا على ذلك بزيادة حروف المدّ أو الحركات •

واتماما لدراسة هذه الأصول عرض لظاهرتين ، هما الابتداء والوقف ، وللعرب فيهما أسلوب خاص •

أ ــ الابتداء

ألقى الخليل على اللغة نظرة عامة فوجد أن ألسنة العرب لاتنطلق بالساكن من الحروف ، واذا فرض عليهم ذلك فى بعض حالات التأليف استعانوا بحرف متحرك ، يجعلونه عمادا وسلّما للوصول الى النطق به ، فقرر أن «حرف اللسان لاينطلق بالساكن من الحروف ، فيحتاج الى ألف الوصل» (١) •

وليس يعنى كل لسان ، انما هو اللسان العربى فان الألسنة الأجنبية تستسيغ ذلك ، وهو موجود فى كثير من اللغات •

---

(١) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ •

ولهذا رأيناه فى أثناء تذوقه الحروف لتحديد مخارجها يستعين بالهمزة المفتوحة متخذا منها سلّما وعمادا الى النطق بالحرف الذى تعمد اسكانه ، ليتمثل ويتشخص •

وكان يقول - بعد أن مثل للخماسى من الأفعال - : «ألالف التى فى اسحنكك واقشعرّ واسحنفر واسبكرّ ليست من أصل البناء ، وانما أدخلت هذه الألفات فى الأفعال وأمثالها من الكلام ، لتكون عمادا وسلما للسان الى الحرف الساكن» •

وجلس الخليل مع أصحابه يوما فسألهم : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامى وباء اضرب ودال قد ؟ فقالوا له : نقول : ياء وباء ودال ، فلم تعجبه اجابتهم ، لأنهم انما لفظوا بالاسم ولم يلفظوا الحرف ولم يحكوه ، كما هو فى غلامى واضرب وقد • فقال لهم : «أقول : اب واى واد ، فألحق ألفا موصولة • قال : كذلك أراهم صنعوا بالساكن ، ألا تراهم قالوا : ابن واسم حيث أسكنوا الباء والسين ، وأنت لاتستطيع أن تكلّم بساكن فى أول الاسم ، كما لاتصل الى اللفظ بهذه السواكن ، فألحقت ألفا حتى وصلت الى اللفظ بها ، فكذلك هذه الألفات حتى تصل الى اللفظ بها ، كما ألحقت المسكن الأول فى الاسم» (٢) •

وهذه الهمزة التى يستعان بها على النطق بالساكن فى الابتداء يؤتى بها مكسورة أو مفتوحة ، الا اذا كان الحرف الذى يلى الحرف الساكن مضموما ، كاستنصر واعتلى ، فتضم الهمزة ، ليتماثل الصوت ، ويكون العمل فيهما من وجه واحد (٣) •

---

(٢) الكتاب ج ٢ ص ٦٢ •

(٣) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٢ •

واذا وقعت هذه الكلمات المبدوءة بالساكن ، والمستعان على ساكنها بالهمزة فى الوصل أسقطت الهمزة لزوال الحاجة اليها ، فان كان آخر الكلمة التى سبقتها ساكنا ألقيت حركتها عليه ، كما فى قولنا : ان استنصرك فانصره .



التقاء الساكنين :

ويلحق بهذا التقاء الساكنين سواء أكانا فى كلمة أم كلمتين ، فاللسان العربى كما لاينطلق بالساكن ابتداءا لاينطلق بالساكنين فى وصل الكلام .
وقد عرض الخليل لهذه الظاهرة التى تعرض فى الكلام العربى ، فرأى أنه اذا التقى ساكنان حرك أحدهما ، ابعادا لما لاتنطلق به ألسنتهم ، فان استتبع التحريك ثقلا ، كما اذا كان الحرف المحرك ياءا حذفوه ، كما فى الأسماء المنقوصة المنونة ، نحو أيد وادم ، حذفوا التنوين لأن التنوين اعراب كما كان الخليل يقول ، وان لم يستتبع ثقلا حرك الأول منهما .

أما الحركة التى يحرك بها فهى الكسرة لأنهم يلجئون اليها فى أكثر الحالات التى يستدعى التأليف فيها اجتماع ساكنين ، كما فعلوا فى قولهم : اقبلت الوفود ، من كسر التاء وهى تاء ساكنة للتأنيث ، فلما التقت وهى ساكنة بهمزة الوصل التى تسكن اذا وقعت فى وسط الكلام اضطروا الى كسر التاء .

الا اذا كانت مختومة بالواو ضميرا ، نحو : لاتنسوُا الفضل ، واخشوُا الله فتحرك بالضم .

وقد علل الخليل ذلك بقوله : «انهم جعلوا حركة الواو منها ، ليفصل بينها وبين الواو التى من نفس الحرف نحو واو لو و أو» (٤) .

---

(٤) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٦ .

واذا الجأهم الوقف الى حذف الحركة التى ليست اعرابا ، وكان الحرف الذى قبل الآخر ساكنا وهم انما يريدون تبيين الحركة استعانوا بهاء السكت، فقالوا : كيفَهْ وليتَهْ ولعلّهْ وانطلقتُهْ ، «لأنها ليست بناء اعراب وما قبلها ساكن» (٥) .

ب ـ الوقف :ـ

أما الوقف فالعرب يفرقون بين ما كان منه فى الشعر وما كان منه فى النثر ، فان كان فى الشعر فالوقف يكون على الروىّ الذى هو بمنزلة الاستراحة التى تمهد للبيت الثانى ، أو على الصلة التى تلحق الروىّ فى القصائد التى تبنى على الروىّ الموصول بأحرف الوصل .

وللعرب فى حرف الروىّ مذاهب ثلاثة ، نصّ عليها الخليل فيما روى ابن كيسان ، فمن العرب من ينوّن القوافى كلها سواء أكان منها ما يدخله التنوين أم مالا يدخله التنوين ، فهم ينونون مثل قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وينونون مثل قول زهير :

ألا عم صباحا أيّها الربع واسلم

ومثل قوله أيضا :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلّم   بحومانة الدرّاج فالمتثلّم

ومن العرب من يقف على حركات الروىّ دون مدّ لها ، أو زيادة تنوين فيها ، فيقولون : فحوملِ واسلمِ ، ولم تكلمِ ، فالمتثلّمِ .

---

(٥) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٩ .

ومن العرب من يميل الى مدّ الحركة ، يمدّ الضمة حتى يجعلها واوا ، كقـــول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح   سقيت الغيث أيتها الخيامو

ويمدّ الفتحة حتى يجعلها ألفا ، كقول عمرو بن كلثوم :

اذا بلغ الفطام لنا صبى   تخر له الجبابر ساجدينا

ويمدّ الكسرة حتى يجعلها ياء كقول النابغة :

يا دارميّة بالعلياء فالسندى   أقْوت وطال عليها سالف الأمدى

وهذا المدّ نوع من الاشباع الموسيقى ، تتحقق به الاستراحة التى يميل اليها الشاعر فى نهاية كل بيت ، ويكون بمنزلة السكتة الزمنية فى الايقاع .

وقد يستعينون بالهاء والالف ، أو بالهاء والواو ، أو بالهاء والياء ، كقول لبيـــد :

عفت الديار محلها فمقامها   بمنى تأبّد غولها فرجامها

وكقول ابن زريق البغدادى :

لاتعذليه فان العذل يوجعهو   قد قلت حقا ولكن ليس يسمعهو

وكقول الآخر :

قف فى ربى الخلد واهتف باسم شاعرهى   فسدرة المنتهى أدنى منا برهى

وتسمى هذه الحروف عند أهل القافية حروف الوصل [٦] ، ويسميها الخليل حروف الترنم [٧].



(٦) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٥٦ .
(٧) لسان العرب جـ ٢٠ ص ٣٨٣ .

أما فى النثر فيقف العرب اختيارا حينا ، واضطـــرارا لانقطاع النفس حينا آخر ، وفى كلتا الحالين يقفون باسكان آخر ما يقفون عليه .

والكلمة التى يقفون عليها تارة تكون صحيحة الآخر ، وتارة تكون معتلة الآخر ، وتارة تكون مختومة بتاء التأنيث ، وتارة مختومة بضمير .

فان كانت صحيحة الآخر وقف عليها بحذف حركتها ، وحذف التنوين معا ، اذا كانت مرفوعة أو مجرورة ، وان كانت منصوبة حذفوا التنوين منها ووقفوا عليها بالألف .

وان كانت معتلة الآخر فان الخليل يرى أنّهم يقفون عليها بهـــذه الحروف ساكنة ، واذا كانت هذه الحروف قد حذفت لتنوينها حذف التنوين ، وأعيد الحرف المحذوف لذهاب المقتضي حذفه وهو التنوين ، فيقولون : أيدى وأدمى وقاضى وفتى ومصطفى .

وينجر هذا الحكم الى المنقوص والمقصور اذا نوديا مناداة يا رجـــل ، فالخليل يقول : «أختار يا قاضى لأنه ليس بمنون ، كما أختار هذا القاضى» [8].

ويونس بن حبيب يبقيه على حذفه فيقول يا قاضْ ، وسيبويه يقـــوى رأى يونس فى هذا فيقول : «وقول يونس أقوى لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا فى غير النداء كانوا فى النداء أجدر لأن النداء موضع حذف» [9] .

غريب جدا أن يفوت سيبويه أن الياء فى المنقوص انما حذفت لتنوينه ، فاذا ذهب التنوين فليس هناك ما يمنع من اعادة الياء ، هذا الى أن النداء يقتضى مدّ الصوت ، فالخليل يكتفى بالياء الأصلية يستعين بها عـــلى مدّ الصـــوت ،

---

(٨) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٩) المصدر السابق .

وسيبويه ويونس يضطران الى مدّ حركة الآخر حتى يجعلاها ياءا ، وحينئذ يتلاقيان مع الخليل فى نهاية الطريق •

وان كانت الكلمة مختومة بتاء التأنيث قلبوا التاء هاءا سواء أكانت نحو (فاطمة) أم نحو (حياة) • قال الخليل : «وسائر الحروف الصحاح لاتتغير عن حالها أبدا ، غير الهاء المؤنثة فانها تصير فى الاتصال تاءا كقولك : هذه شجره ، فتظهر الهاء ثم تقول : هذه شجرتك شجرةٌ طيبة ، فتذهب الهاء وتستخلف التاء ، لأن التاء مؤنثة ، وانما فعلوا ذلك بهاء التأنيث ليفرقوا بينها وبين الأصلية فى بناء الكلمة» (١٠)•

وان كانت الكلمة منتهية من الضمائر بألف أو واو أو ياء ، فان وقف عليها امتدت حتى تصل الى مخرج الهمزة من أقصى الحلق ، وان لم يوقف عليها لم تمتد اليه ، لأن اللسان يأخذ حينئذ فى حرف آخر ، «ولذلك قالوا : ظلموا ورموا ، فكتبوا بعد الواو ألفا» (١١) •

وبعض العرب يقلب الألف همزة فعلا ، وقد سمع الخليل هذه اللغة فكان يقول : «ان بعض العرب يقول : رأيت رجلأ فيهمز ، وهذه حبلأ فيهمز ، لقرب الألف من الهمزة ، حيث علم أنه سيصير الى موضع الهمزة ، فأراد أن يجعلها همزة واحدة ، وكان أخف عليهم • وسمعناهم يقولون : هو يضربهأ فيهمز كل ألف فى الوقف» (١٢) •

ولا يقفون على الكلمة بالحاق هاء السكت الا فى حالات خاصة : منها : أن تكون الكلمة قد جار عليها الاستعمال فحذف من أصولها ولم يبق منها

---

(١٠) تهذيب اللغة للازهرى ج ١ ص ٢٣ مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقمها (٩ لغة) •
(١١) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٥ •
(١٢) المصدر السابق •

الا حرفا أو حرفين ، كالأمر والمضارع المجزوم من رأى ووعى ، فيقولون اذا وقفوا عليهما : ره وعِه ، ولم يره ولم يعه ، ليتحقق اشباع الصوت ، ويتحقق ما ينشده العرب من مطل حركة الآخر •

ويدخل فى هذا ، الوقف على (ما) الاستفهامية فى نحو لمه وكيمه ، ويدخل فيه الوقف على الحروف المتحركة التى يلفظ بها على سبيل الحكاية ، كالتلفظ بكاف ملك وباء ضرب ، وقد سأل الخليل أصحابه ، فقال : «كيف تقولون اذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التى فى (لك) والكاف التى فى (مالك) ، والباء التى فى ضرب ؟ فقيل له : نقول : باء ، كاف • فقال : انما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف • وقال : أقول : كَهْ وبَهْ • قالوا : لِمَ ألحقت الهاء ؟ فقال : رأيتهم قالوا : عِهْ فألحقوا هاءا حتى صيروها يستطاع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف ، فان وصلت قلت : كَ و بَ فاعلم يافتى ، كما قالوا : عِ يا فتى • فهذه طريقة كل حرف كان متحركا» (١٣) •

ومنها : أن تكون حركتها حركة بناء لا اعراب ، وأن يقصد الى الاحتفاظ بحركتها ، كما جاء فى قراءة الكسائى : ماهيه نار حاميه •(١٤) وكالوقف على هو ، نحو هُوَهْ •

ومنها : أن تكون حركتها حركة بناء ، ولو وقف عليها بالطريقة المألوفة لزم اجتماع حرفين ساكنين ، لأن ماقبل الآخر فيها ساكن ، كالوقف على ليت وكيف ولعلّ وأين وثم وهلمّ ، فانهم يقولون : ليته ، وكيفهْ ولعلّهْ ، وثمّهْ ، وهلمّهْ ، كقول الراجز :

يا أيّها الناس ألا هلمّهْ (١٥)

---

(١٣) الكتاب ج ٢ ص ٦٢ •

(١٤) الاشمونى ج ٤ ص ٢٢٨ •

(١٥) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٩ •

وكالوقف على الكلمات التى آخرها نون الاثنين أو الجمع ، نحو مسلمان ومسلمون ، فانّهم يقولون : مسلمانه ومسلمونه . ومثلها نون المؤنثات نحو ضربتنّ وذهبتنّ ، فانهم يقولون فى الوقف عليهما : ضربتنّهْ وذهبتنّهْ . وكل ما كانت حركته بناءا لو وقف عليه بالسكون لاجتمع فيه ساكنان ، نحو لم يرم ولم يخش فانهم يقولون : لم يرمهْ ولم يخشهْ ، ومنه قراءة الكسائى : لم يتسنّهْ (١٦).

ومنه الوقف على ان فى قول الشاعر :

ويقلن شيب قد علاك　　　وقد كبرت فقلت انّه(١٧)

ومنه الوقف على ذهبت وانطلقت ، وقد سبق ذكر رأى الخليل فيهما .

---

(١٦) الاشمونى ج ٤ ص ٢٢٨ .
(١٧) الكتاب ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٤)

البناء العام والموسيقى

ولم يكن الخليل عالما وقف بحثه على ظواهر اللغة وصفها وتعليلها فحسب ، ولكنه كان ذواقة ، درس اللغة دراسة فنية ، ووصل الى ادراك الحس اللغوى عند العرب ، وعرف أن اللغة العربية لغة موسيقية ذات أنغام خاصة .

ان ادراك موسيقى اللغة يتوقف على توفر حس موسيقى ، وملكة موسيقية ، وهو ما توفر للخليل ، فقد عرض للايقاع والنغم ، ووقف على أصولهما المعروفة ، حتى يكاد المؤرخون يجمعون على أن له كتابا فى النغم وكتابا فى الايقاع ، كما سبقت الاشارة اليه .

ويذهب بعضهم الى أن كتابه فى الموسيقى كان مصدرا للموسيقيين المؤلفين فى صدر الدولة العباسية ، كما يزعم أنه «لما وضع اسحاق بن ابراهيم كتابه فى النغم واللحون عرضه على ابراهيم بن المهدى فقال : أحسنت يا أبا محمد ، وكثيرا ما تحسن . فقال : بل أحسن الخليل لأنه جعل السبيل الى الاحسان» (١) .

ولاشك أن الناس كانوا يفرقون بين طائفتين كبيرتين من الكلام ، طائفة الشعر وطائفة النثر ، وسهل جدا أن يميز الشعر من النثر ، لما فى الشعر من جرس لاذ ونغم جميل ، ولم يهيأ للشعر أن يدرس جانبه الموسيقى دراسة فنية محكمة الا فى عهد الخليل وعلى يد الخليل نفسه .

---

(١) طبقات النحويين للزبيدى ــ ترجمة الخليل ــ «نسخة مصورة بدار الكتب» .

أخذ الخليل يدرس الشعر دراسة فاحصة ، شأنه مع كل موضـــوع يتناوله بالدرس ، ومكنّه من هذه الدراسة معرفة بالنغم واللحون

تناول الخليل من الشعر جانبه اللفظى الموسيقى ، فرأى أن الشـــعر العربى كله لايخرج عن كونه قائما على وزن من ستة عشر وزنا سماها بحورا ، ووضع لكلّ بحر اسما خاصا يميزه عن غيره ، وقسم كل بحر منهـــا الى وحدات ، وعبّر عنها بـ (ف ع ل) ومشتقاتها من فاعلن ومتفاعلن ومستفعلن وغيرها ، حتى اكتمل له من ذلك دراسة تامة الأجزاء سماها «عروضا» .

ورأى للقافية أثرا واضحا فى موسيقى الشعر ، فهى تكوّن جزءا هاما منها ، ثم هى تتضمن الروىّ الذى تنسب اليه القصيدة ، وتلقب به ، فأخـذ يدرسها تتمة لدراسة العروض ، فقسمها ، ووضع لأقسامها أسماءا وألقـابا ، فسمّى الكلمة التى هى القافية ضـربا ، والحـــرف الـذى تنتهى به رويّا ، «وسمى الحركات التى تلزم القوافى بأسماء ، كما سمّى هذه الأشياء بأسمائها ، فقال فى هذه الحروف : القافية والردف والصلة والخروج ، والتأسيس ، فكانت خمسة أحرف بخمسة أسماء ، فسمّى معها خمس حركات بخمسة أسماء ، فقال : الرسّ والحذو والتوجيه والمجرى والنفاد ، فالرسّ اسـم للحركة التى قبل التأسيس ، والحذو اسم للحـركة التى قبـــل الردف ، والتوجيه حركة ماقبل القافية المقيدة ، والمجرى حركة القافية المطلقة ، والنفاذ حركة الهاء التى يتبعها الخروج» (٢) .

وقد تناولهما الدارسون وهم مأخوذون بهذه العقلية وهذه الدراسات ، وكان ظهورهما حدثا لافتا للأذهان ، فأقبل كثير من الأدباء والشعراء عـلى دراستهما ، وعيّت على ناس آخرين كانوا يعدون العروض نوعا من الطلاسم

(٢) تلقيب القوافى وتلقيب حركاتها لابن كيسان ص ٤٨ (طبع أوروية) .

والمعميات ، حتى قيل ان الأصمعي ـ على جلالة قدره ـ حاول دراسته فلم يقع له ، وصرفه الخليل عنه • طلب اليه أن يقطّع هذا البيت :

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

ففهم الاصمعى قصده وانقطع عن دراسته •[٣]

ومن طريف مايروى فى هذا ما كان بين محمد بن مناذر الشاعر البصرى ، ومحمد بن عبدالوهاب الثقفى ، «وكان هذا يعادى محمد بن مناذر بسبب ميله لأخيه عبدالمجيد ، وكان ابن مناذر يهجوه ويسبه ويقطعه ، وكل واحد منهما يطلب لصاحبه المكروه ، ويسعى عليه فلقى محمد بن عبدالوهاب ابن مناذر فى مسجد البصرة ، ومعه دفتر فيه كتاب العروض بدوائره ، ولم يكن محمد ابن عبدالوهاب يعرف العروض ، فجعل يلحظ الكتاب ويقرؤه ولا يفهمه ، وابن مناذر متغافل عن فعله ، ثم قال له : ما فى كتابك هذا ؟ فخبّأه فى كمّه وقال : وأى شيء عليك مما فيه ؟! فتعلق به ولبّبه • فقال له ابن مناذر : يا أبا الصلت، الله الله فى دمى ، وطمع فيه ، وصاح يا زنديق فى كمّك الزندقة» [٤]•

وظل الدارسون من بعده يتناولونهما ، لم يزد واحد منهم شيئا على ما أثبته الخليل ، اللهم الا ما شاع عند القدماء من أن البحور التى توصل اليها الخليل هى خمسة عشر بحرا ، ثم استدرك الأخفش الذى نقل الينا علم العروض البحر السادس عشر وسماه المتدارك ، ووزنه : فاعلن ثمانى مرات غير أن (فاعلن) هنا تجيء اما (فَعَلن) أو (فَعْلن) •

غير أن القفطى يقول : ان للخليل بن أحمد قصيدة على (فَعَلن) ثلاث متحركات وساكن ، وله قصيدة أخرى على (فَعْلن) متحرك وساكن • فالتى على ثلاث متحركات وساكن قصيدته التى فيها :

---

(٣) الخصائص لابن جنى جـ١ ص ٣٦٧ ، نزهة الالباء ص ١٥٤ •
(٤) الاغانى جـ ١٧ ص ١٨ (ساسى) •

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا   فلبئس لعمرك ما فعلوا

والتى على فعلن ساكنة العين قوله :

هذا عمرو يستعفى من   زيد عند الفضل القاضى
فانهوا عمرا انى أخشى   صول الليث العادى الماضى(٥)

وسواء أكانت التفعيلة مكونة من ثلاث متحركات وساكن أم من متحرك وساكن ، فان الأبيات من وزن المتدارك ، مما يؤيد الذاهبين الى أن البحور الستة عشر كلها من وضع الخليل .

ولم تقتصر عناية الخليل على موسيقى الشعر وحدها ، بل جاوزته الى النثر ، فللنثر جرس موسيقى كما للشعر جرس موسيقى ، بل لقد توغل فى تلمس هذه الموسيقى فى الألفاظ المفردة ، فأحس بما لها من موسيقى تتمثل فى تأليفها على صورة معينة .

أليس فيها من الحروف ماهو مجهور وما هو مهموس ، وماله جرس قوىّ وما ليس له هذا الجرس ؟ ثم أليس فيها من الحركات التى تكسب الحروف أصواتا لها جرس ونغم ؟

وهكذا هدته ملكته الفنية الى أن الكلمات لم تخل من موسيقى ، ولذلك وزنها بالميزان الذى وزن به الشعر نفسه ، فاعتبر (ف ع ل) ومشتقاتها ميزانا يزن بها الكلمات ، وهو الميزان الذى أفاد منه علماء الصرف فى دراسة أبنية الكلمات .

وظل هو يتتبع كلام العرب حتى استطاع حصر أوزان الكلمات كما استطاع حصر أوزان الشعر من قبل ، وذكر سيبويه للأسماء فقط ـ وما

---

(٥) انباه الرواه على أنباه النحاة ص ٣١٩ ج ١ «مخطوطة بدار الكتب» .

ذكره سيبويه ، فى رأينا ، فهو من عمل الخليل ـ نحو ثلاث مائة وزن وبضعة أوزان .[٦] واستطاع أن يلم بجميع الأوزان التى ألفها الطبع العربى ، فجرت على لسانه ، وأصبح من اليسير مقارنة الصيغ العربية بغيرها ، وأن يحكم على صيغة معينة بأنها عربية أو غير عربية ، كما سبقت الاشارة اليه .

والتفت الى أن كثيرا من الظواهر اللغوية يمكن ارجاعه الى اهتمام العربى بموسيقى اللفظ ، كالاتباع والادغام والابدال ، فلم يحرك حرف من أجل حركة حرف آخر ، ولم يبدل حرف من حرف آخر الا لتحقيق الانسجام الموسيقى فى الكلام .

ولم تكثر المزاوجة فى كلامهم الا لهذا الغرض ، والمزاوجة تتحقق بوجهين : أحدهما : أن تكون الكلمتان المتواليتان على روىّ واحد ، كما فى «ليرجعن مأزورات غير مأجورات » .

وثانيهما : أن يؤتى بكلمة ، ثم تردف بكلمة أخرى قد تكون واضحة المعنى ، وقد تكون غير واضحة المعنى ، ولا بيّنة الاشتقاق [٧] ، كحسن بسن وشيطان ليطان ، وحيّاك الله وبياك ، اتباعا لحيّاك ، وان ضعفها الفيروزابادى ، وغيرها من أمثلة كثيرة وضع لها ابن فارس كتابا سماه «الاتباع والمزاوجة» ، وعقد لها السيوطى فصلا فى كتابه «المزهر» .

وأكبر الظن أن شيوع هذه الظاهرة فى العربية يؤيد عنايتها بالموسيقى ، وقد استعمل العرب هذا النوع من الألفاظ التى ليس لها معنى واضح ولا اشتقاق بيّن ، اشباعا لنغم الكلام ومدًّا لموسيقاه .

وقد روى ابن فارس أن بعض العرب سئل عنه فقال : «هو شىء نتد به كلامنا» [٨] .

---

(٦) المزهر للسيوطى ج ٢ ص ٢ .
(٧) الاتباع والمزاوجة لابن فارس ص ٢ (طبع أوروبة) .
(٨) المصدر السابق .

فدراسة الخليل اذن لم تكن نظرية خالصة تعنى بوصف ظواهر اللغة ، واستخراج الاصول ، ولكن فيها جانبا فنيا لايخضع لاعتبارات عقلية بحتة ، وانما يخضع لاعتبارات فنية مآلها الحس والذوق ، ولذلك كانت دراسته للغة أبعد أثرا ، وأكثر جدوى ، لأنها ملاحظ فيها الحسّ اللغوى عند العرب فى أساليبهم وتعبيراتهم •

ولا أريد أن أترك هذا الفصل قبل أن أعرض لقضية تدور فى أذهان الدارسين ، ويقف منها الباحث موقفا كله حيطة وحذر ، وهى قضية العروض العربى أو قضية تأثره بعروض أجنبى •

من الثابت أن الخليل هو صاحب العمل الأول فيه ، اليه ينسب العروض العربى ، واليه ينسب استخراج أوزان الشعر العربى ، وتلقيبها بألقابها الخاصة ، ووضع المصطلحات التى تتصل بالعلل والزحافات ، كما صرّح الجاحظ به فى قوله : «وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك» • وكما أشار اليه ابن كيسان هنا فى كتابه «تلقيب القوافى» •

والشىء الذى هو مدار الشك فى نفوس الدارسين هو أن الخليل قد وضع العروض العربى وضعا ، واستنبطه استنباطا ، دون أن يستفيد من أعمال من سبقه من علماء الأمم الأخرى كاليونان والهنود ، مع أن لهؤلاء اتصالا قديما بالبيئة التى نشأ فيها الخليل ، ولهم فيها آثار باقية ، ولهم فيها مدارس نشأت فيها وفى الجهات القريبة منها كالديارات المحيطة بها •

ان قضية العروض واقتباس الخليل اياه من جهة أجنبية ــ من اليونان كما كان الجارم يقول ، أو من الهنود كما يظن بعض الباحثين ــ كقضية النحو وتأثر النحاة العرب بنحو اليونان •

أكبر الظن أن العروض قضية اجتماعية تدفع الى تحقيقها حاجة اجتماعية عارضة ، وتحدو اليها الرغبة فى المحافظة على سلامة التراث القومى ، وان أمة من الأمم لاتشعر بضرورتها الا حين تحيط بها ظروف يخشى منها على كيان أو تراث ، وأن اليونان لم يشعروا بالحاجة الى العروض الا بعد أن أخذت اليونان تتوسع وتختلط بأهل البلاد المفتوحة ، الذين أخذوا يشاركونها ثقافتها وعلومها ، ويحاكونها فى فنونها ، ومنها الشعر ، ولا يخفى ما يستتبع ذلك من أخطار تهدد سلامته .

وأن الهنود كانوا يعنون بالشعر عناية فائقة حتى انهم كانوا ينظمون كتبهم وعلومهم وفلسفاتهم ليسهل حفظها واستظهارها ، بل لقد شعر البيرونى بان «أكثر الهنود يُهْتَرون لمنظومهم ويحرصون على قراءته ، وان لم يعرفوا معناه ، ويفرقعون أصابعهم فرحا به ، واستجادة له ، ولا يرغبون فى المنثور وان سهلت معرفته» (٩) .

والشعر فى كل أمة ينزع أول أمره منزعا فطريا توحى به الفطرة ، وتدفع اليه السليقة ، والشعراء منهم يقولون الشعر فيأتون به سليما وفق القوانين الذوقية العامة المستنبطة من ذوق الأمة العام ، قبل أن يفكروا فى القوانين أنفسها ، وقبل أن يعرفوا الأوزان التى ينظمون عليها ، والعيوب التى تعرض للشعر قوافيه وأوزانه ، ويبقى الشعر هكذا فطريا سليقيا مادامت لغة الأمة بعيدة عن التعرض لخطر يهدد كيانها بتهديد تراثها .

وأكبر الظن أن الهند لم تتعرض للخطر الا بعد أن اجتاح العرب قسما من أراضيها فى عهد الحجاج ، وعلى يد محمد بن القاسم الثقفى القائد العربى المعروف ، فليس الدارس بمتجن اذا قال بان الهنود لم يفكروا

---

(٩) تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى ص ٦٦ (لايبزج) .

بالعروض ، ولم يشعروا بضرورة وجوده الا بعد أن شعروا بالخطر يتهدد كيانهم وتراثهم الذى يعتزون به •

والبيرونى قد عرض للعروض عند الهنود ، وعرض لأوزانه وتفعيلاته وأجزاء تفعيلاته ، ويبدو مما ذكره أن عملهم فى العروض يشبه عمل العرب ، فكما أن العرب «عملوا من التفعيلات قوالب لأبنية الشعر ، وأرقاما للمتحرك منها والساكن ، يعبرون بها عن الموزون ، فكذلك سمى الهند لما تركب من الخفيف والثقيل ••• القابا يشيرون بها الى الوزن المفروض!» (١٠) •

والعروض العربى لم ينشأ الا حين دعت اليه الحاجة ، ولم تتّسم هذه الحاجة بالضرورة الا بعد أن اختلط العرب بغيرهم ، وعاشوا فى بيئة واحدة ، يتبادلون فى العيش والعادات والثقافات ، والا بعد أن أخذت تفد على المجتمعات العربية مع الوافدين الأجانب أوزان لم يكن للعرب بها عهد • وكان الخليل ابن أحمد فى هذا هو المتحمل لهذه التبعة ، والمنقذ للتراث العربى ، حين شعر بالخطر يهدده •

ولا شك أن هناك تشابها بين عروض اليونان وعروض الهند من جهة ، وعروض العرب من جهة أخرى ، وأن مصطلحات يونانية ترددت على لسان بعض العرب ، كلفظة (ميتر) اليونانية التى تؤدى معنى التفعيلة فى العربية •

أقول : لاشك أن هناك تشابها فى ذلك ولكن مجرد التشابه لايثبت قضية ، فكثير من أوجه الشبه بين عاملين ناتج عن تشابه القوانين التى يسير عليها الفكر البشرى ، فاذا ما عرضت للفكر العربى حاجة عرضت مثلها لليونان والهنود ، فادّت الى وجود النحو العربى أو العروض العربى ، فان ذلك لايعنى أن ماقام به العرب من أعمال متأثر تأثرا مباشرا أو مقتبس اقتباسا من أعمال اليونان أو الهنود •

---

(١٠) المصدر السابق •

هذا الى أن أسماء الأوزان وأسماء العلل والزحافات والعيوب كلهـــا عربية خالصة ، واذا ورد اسم (ميتر) على لسان الباقلانى ، كما يقول الجارم، فان ذلك بعد أن ترجم عروض اليونان ، وأخذت المصطلحات اليونانية تتردد على ألسنة الدارسين ، كما أن اسم (العروض) عربى خالص وهو اسم مكة ، وقد زعم المؤرخون أن الخليل سمّى هذا العلم عروضا تيمنا باسم مكة التى شعر أنها ألهمته هذا العلم ، وهدته الى السير فيه حتى أتمه .

وليس ببعيد أن يكون قد وصل الى الخليل أن لليونان أو الهنود عروضا وأدرك ضرورة مثل ذلك للشعر العربى وخاصة حين أحسّ بالحاجة اليه . وقد يكون الخليل قد وقف على الأسس التى قام عليها عروض اليونان ، وان كنا لانعرف كيف كان هذا ، ولا عن طريق من تحقق له معرفة ذلك ، فلم يقع فى أيدينا بين من صاحب الخليل ولازمه من عرف بعـــروض يونانى أو هندى (١١) .

---

(١١) ان المصادر التى أمكن الوقوف عليها تتفق على أنه من عمل الخليـــل ومن استنباطه واختراعه .

فابن سلام يقول : «استخرج الخليل العروض ، واستنبط منه ومن علمه مالم يستخرج أحد ولم يسبقه الى علمه سابق» . (طبقـــات الشعراء ص١٥) .

وابن النديم يقول : «وهو أول من استخرج العروض ، وحصن به أشعار العرب» . (الفهرست ص ٦٤) .

والزبيدى يقول : «واستنبط من العروض ومن علل النحو مالم يستنبط احد ومالم يسبقه الى مثله سابق» . (طبقات النحويين «نسخة مصورة بدار الكتب») .

والقفطى يقول : «استنبط من العروض وعلله مالم يستخرجه أحد ، ولم يسبقه الى علمه سابق من العلماء كلهم» . (انباه الرواه جـ١ ص ٣١٩ «مخطوطة بدار الكتب») .

وياقوت يقول : «هو أول من استخرج العروض وضبط اللغة وحصر أشعار العرب» ، وينسب استخراجه العروض الى معرفته بالايقاع والنغم . (معجم الادباء جـ١١ ص ٧٢) .

(٥)

الاستعمال وأثره فى البناء

أ ـ لا أريد أن أثبت هنا أنّ للخليل رأيا منظما فى التطور التاريخى للّغة العربية ، ولكنى بصدد الزعم بأن فكرة تطور اللغة من الأفكار التى اطمأنت اليها نفس الخليل ، وان لم يدرسها دراسة علمية ، وكل ما هنالك اشارات منه تقنع الدارس بوجود هذه الفكرة فى ذهنه •

وحمزة بن الحسن الاصفهانى يقول : « وبعد فان دولة الاسلام لم تخرج أبدع للعلوم التى لم يكن لها عند العرب أصول من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذى لا عن حكيم أخذه ولا على مثال تقدمه احتذاه ، وانما اخترعه فى ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست» • (التنبيه على حدوث التصحيف «نسخة مصورة بدار الكتب» ص١٢٣) •

وبروكلمان يصرح أن الروايات تنسب الى الخليل اختراع العروض ولم يتناول الروايات بالتوهين والتكذيب • (تاريخ الشعوب الاسلامية ج٢ ص ٢٧ طبع بيروت) •

وجول روانيت يقول : «وكان العرب يصنعون الشعر بغير أن يعرفوا قواعده وبغير عامل سوى سجية القياس الشعرى الموجودة فى غريزتهم ، الى أن جاء الخليل بن أحمد فى القرن الثامن ووضع قواعد العروض • ومنشأ هذه الفكرة أنه رأى طائفة من الحدادين يطرقون الحديد بمطارقهم بحركة متزنة منتظمة » • (دائرة المعارف الموسيقية ص٤٢) •

حتى البستانى الذى يزعم أنه كان له المام تام باليونانية يستبعد أن يكون قد اطلع على عروض أرسطو «لان هذه الكتب لم تترجم ولم تختلط علوم اليونان بعلوم العرب الا فى زمن المأمون وبعده ، والخليل مات قبل ذلك الزمان» • (دائرة المعارف ج١ ص ٤٦١) •

وغير هؤلاء كثير وقالوا بالمقالة نفسها •

ثم أرجع الى الخليل نفسه ، فأجد من أعماله ، ومما أمتاز به من عقل خالق مبتكر ما يؤيد آراء القدماء فى أنه واضع علم العروض ومبتكره ومستنبطه •

فمن هذه الاشارات رأيه في زيادة الألف على كلمات مبدوءة بساكن، كاقشعر وغيرها ، وعلى أسماء زيدت فيها همزات الوصل بشكل دائم ، كاسم وابن وامرىء ، كأنه كان يرى ما يظنه المحدثون الآن من أن اللغة مرت فى مراحلها التطورية بمرحلة كانت أوائل كلماتها ساكنة ، ويفسر هذا الكثرة الهائلة من المفردات التى استعين أخيرا على الساكن المبتدأ به فيها بهمزات كان الخليل أيضا يرى أنها ألحقت للتوصل بها الى النطق بالساكن .

وكان بين النحويين خلاف فى همزة (اسم) فالخليل يذهب الى أن الهمزة زيدت للتوصل الى النطق بالساكن [1] ، أما غيره من النحاة سواء أكانوا بصريين أم كوفيين فانهم يذهبون الى أنها عوض عن الحرف المحذوف ، فالبصريون ـ غير الخليل ـ يرون أنها عوض عن الواو ، لأن الاسم من السمو، والكوفيون يرون أنه عوض عن الواو أيضا ، لأن الاسم من الوسم [2] .

ان القول بالتطور اللغوى فرع القول بأن اللغة ليست توقيفا ، وانما هى من صنع البشر ، وأنها اصطلاح جماعى لاتنسب الى واضع بعينه ، وقد سبق لأصحاب الكلام أن تناولوا هذه المسألة ، فقالوا بأن اللغة اصطلاح ، ليست توقيفية وليست من وضع واضع معين ، ولذلك كان مذهبهم يسمى مذهب الاصطلاح .

وأقوال الخليل تشعرنا أنه كان يذهب مذهب أصحاب الكلام من المعتزلة وكان له فى بداية نشأتها رأى صائب طريف فقد استظهرنا فيما سبق أن اللغة عنده أصوات نشأت ساذجة وقصد بها الى محاكاة أصوات الطبيعة والانسان والحيوان ، ثم أخذت تتعقد شيئا فشيئا تبعا لتعقد المجتمعات

---

(١) الكتاب جـ٢ ص ٦٢ .

(٢) الانصاف في مسائل الخلاف . المسألة الاولى جـ١ ص ٤ .

الانسانية ، وتبعد عن مدلولاتها الأصلية شيئا فشيئا ، تبعا لما تحمله معها في تطورها من دلالات جديدة وما يحف بها من أجواء طارئة •

وقد رأينا أن الخليل كان يرى أن اللغة مجموعة من الأصوات الصامتة الساكنة ، ثم زيد فيها حروف المد أو الحركات التي هي أبعاض حروف المدّ ، واستعين بهذه الحروف والحركات على النطق بتلك الأصوات ، لأنها ، وهي ساكنة ، لايمكن النطق بها ، ولا دلالة لها على معنى من المعاني • فمادة (ق ت ل) مثلا هي البناء الأصلي لقتل و قَتَل ويقْتُل ، وقاتل وقُتِل وقتّال وقتيل ، ولولا توسط حروف المد أو أبعاضها لما أمكن النطق بها ولا فهم منها معنى من المعاني المستفادة من هذه الأبنية ، وليس لازما أن يستعان على النطق بهذه الأصوات الساكنة بحروف المدّ ، فالحركات تقوم مقامها عند الخليل لأنها أبعاضها •

وكأنّ الخليل قد راودته فكرة أن اللغة في بداية أدوارها كانت تعتمد على الأصوات الساكنة المجردة ، وما أن تقدمت الحياة بالانسان وشعر بالحاجة الى التفاهم حتى أدرك صعوبة النطق بها أو تعذره ، فلجأ الى حروف المدّ يستعين بها على النطق بأصول البناء الساكنة ، ثم شعر بطول هذه الحروف اللينة فعمل على تقصيرها ، فكانت الحركات ، ولم يكن ذلك ليكون دفعةواحدة، وانما اقتضى ذلك فترات طويلة •

ولبعض المحدثين معالجات لهذه الفكرة ، وصل منها الى ما يؤيد الخليل فيما نظن أنه فكر فيه ، فذهب الى أن اللغة قد مرت بمراحل كانت حروف المدّ في مراحلها الأولى جزءا من أصولها ، ثم أخذت تتحلل منها شيئا فشيئا حتى اقتصرت على أبعاض منها ، وهي الحركات •

ونقل للشيخ مصطفى الغلاييني فقرة من بحث نشر له في مجلة الكشاف• قال الشيخ فيه : «الحركات في العربية أحرف مد في عهد اللغة القديم ،

فالمضموم والمفتوح والمكسور كان يعتمد على حرف من أحرف المدّ ، وبعد فقد تهذيت اللغة لسنة تغلب القوى على الضعيف ، وأقوى دليل أن العبرية لم تزل تعتمد على أحرف المدّ ، في حين أن هذه الألفاظ قد فقدت الحـــروف في العربية» (٣) .

ويبنى هذا الباحث ظنه على ما وجد من ألفاظ عربية تخلفت عن السير مع أخواتها ، فظلت تحمل معها بقايا عهد قديم كانت أخواتها مثلها فيه .

ويذكر منهـــا : يسروع ويعسوب ويربوع ويعتيد ويعضيد ويقطين ، وكان السيوطى قد عقد في المزهر فصلا خاصا بهذه الصيغة ، ذكر فيها هذه المفردات وغيرها (٤) ، ويمكن ارجاعها الى ماذكر .

والاستعمال عند الخليل في مقدمة الاعتبارات التى يضعها نصب عينيه لفقه اللغة وفهم تطورها ، فله أقوال كثيرة فى تعبيرات وصيغ أثر فيها الاستعمال، فحذف بعض أجزائها أو غيّر فيها شيئا ، وكان الخليل يلجأ الى التأويل في ارجاع ماحذف منها ، كأنه كان يرصد مراحل استعمالاتها المختلفة التى مرت بهـــا .

وله آراء كثيرة في أدوات كثيرة كانت الواحدة منها قد جاورت صاحبتها في الاستعمال ، وظل هذا التجاور بينهما ، وأثر فيهما الاستعمال معـــا ، فلاحا كأنّهما أداة واحدة ، وخدع وضعهما الأخير من تناولهما بالدرس ، فتناولهما على أنهما أداة واحدة بسيطة لاتركيب فيها .

ولكن الخليل المتفقه فى اللغة والمؤمن بالاستعمال وأثره لم يخـــدعه مظهرها الأخير ، فأدلى فيها بأقوال كان ينسبها كثير من النحـــاة الى كــلام

(٣) مقدمة لدرس لغة العرب للعلايلي ص ١٧٨ «المطبعة العصرية» .
(٤) المزهر للسيوطي جـ٢ ص ١٠١ «مطبعة السعادة» .

المتصوفة ، أو الى المعميات ، أو الى الشذوذ ، لعدم ادراكهم المنهج الذى سار عليه الخليل والفكرة التى كان يؤمن بها فى دراسته اللغوية ، كرأيه فى لن وليس وغيرهما من الأدوات التى سنعرض لها فى هذا الفصل ، هادفين ، الى تثبيت الفكرة فى الأذهان ، مطمئنين الى أنها كانت تراود نفس الخليل •

ونحن لانطالب الخليل أن يخطو أكثر مما خطاه فى هذا الموضوع ، فحسبنا منه ما أدلى به من آراء ، وما أملاه على تلاميذه من أقوال ، وحسبه أن كان الدارس الأول والأخير ـ فيما نظن ـ فى الوقت الذى لم تتهيأ له الظروف ليجعل من هذه الفكرة نظرية تامة البناء ، ويكفيه منها أنها تحمل فى ثناياها نظرية تامة التكوين ، وان لم يتح لها الحياة ، اذ لم يتح لها الخالقون من علماء اللغة طوال هذه القرون •

ويمكن استنتاج هذه النظرة التاريخية من أقواله فى صيغ وأدوات كثيرة الدوران فى الكلام ، وكلها مما يندرج تحت هذه الظاهرة اللغوية التى سنتناولها وهى ظاهرة النحت والتركيب •

ب ـ النحت والتركيب

هاتان كلمتان تتلاقيان فى معنى واحد هو استخلاص كلمة من أصلين أو أكثر • والظاهر أن بينهما فرقا ينبغى الا يهمل • فالنحت يتحقق باستخلاص كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر لكل واحدة معنى مستقل بعد اقتطاع بعض أجزائهما • والتركيب يتحقق باستخلاص كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر للدلالة على معنى مركب ، كأنواع التركيب المعروفة فى العربية ، وهى التركيب المزجى والتركيب الاضافى والتركيب الاسنادى •

والتركيب ظاهرة فى اللغات لاتختص بها العربية ، بل هى فى العربية أو فى اللغات السامية أقل منها فى اللغات الهندية الأوروبية ، ولاسيما الحديثة منها ، فقلّما تجد فى هذه اللغات كلمات ترجع الى أصل واحد •

وأمثلة التركيب فى اللغات الاوروبية الحديثة كثيرة جدا ، ففى الانكليزية مثلا نحو : Pickpocket ، doorkeeper ، allright ، Postoffice ، وغيرها مما يؤدى الى كلمة واحدة .

ومن هذه المركبات الانجليزية ما ألحق به صلة سواء أكانت فى أوله Prefix أم فى آخره Suffix .(٥)

وهذا كله لم يمرّ بالعمليات التى مرت بها الكلمات المنحوتة فى العربية مما سنعرض له ، فينبغى ألا نخلط بين هذا النوع وبين المركبات التى لم يعرض الحذف لأصولها ، كما عرض لأصول المنحوتات ، كما فعل الدكتور على عبدالواحد وافى فى كتابه «فقه اللغة» .(٦)

ولعل أكثر ما وجد من النحت فى العربية كان فى عصر متأخر ، فلو تتبعت الكلمات التى أثبت القدماء أنها منحوتة لوجدتها اسلامية بحتة كالبسملة والحمدلة والحوقلة والهيللة والحسبلة والحيعلة والسمعلة ، فانها منحوتة من : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، لاحول ولا قوة الا بالله ، لا اله الا الله ، حسبى الله ، حىَّ على الصلاة ، سمع الله لمن حمده . اللهم الا ما قل من مثل عبشمى وعبدرى وعبقسى ، نسبة الى عبد شمس وعبدالدار وعبد القيس ، فلا نستطيع تحديد تاريخها ، ولا القطع بقدمها أو حداثتها .

وقد تناول الخليل هذه المنحوتات ، فذكر أمثلة لبعضها سبق أن عرضنا له ، كالحيعلة والحيهلة . وزعم ابن فارس أن الخليل أنشد :

أقول لها ودمع العين جار ... ألم يحزنك حيعلة المنادى(٧)

---

(٥) راجع كلمة Compound فى :
Webster's Students Dictionary, P. 169

(٦) الطبعة الثانية ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(٧) الصاحبى لابن فارس ص ٢٢٧ .

وجاء الدارسون فعرضوا لها أيضا ، وغلا بعضهم ، فذهب الى أن أكثر الأبنية التى تزيد أصولها على ثلاثة منحوتة من كلمتين ، «مثل قول العرب للرجل الشديد : ضبطر ، من ضبط وضبر ، وفى قولهم صهصلق : انه من صهل وصلق ، وفى الصلدم : انه من الصلد والصدم» (٨) .

ويظن بعض الدارسين أن النحت انما يكون بين اسمين فأكثر ، ولايكون بين الحروف والأدوات ، ويعدّ رأى الخليل فى ذهابه الى أنه قد يكون بين الحروف ، نوعا من الآراء التى انفرد بها ، وشذّ عن جمهرة الباحثين (٩) .

والحق أننا لم نعثر للخليل على كلام مفصل فى نحت الكلمات غير الأدوات والحروف الا ما أثبتناه له فيما سبق من أمثلة التفت الى مافيها من نحت ، ولعل عدم تفصيله الكلام فى المنحوتات غير الحروف والأدوات أن يرجع الى قلة ذلك فى اللغة العربية ، وندرة الأمثلة التى خضعت لعملية النحت .

ولكن الأصل الذى استخرجه ، والذى رأينا أن له اتصالا وثيقا بالنحت لايختص بطائفة معينة من الكلمات ، فكما يصدق على الأدوات والحروف يصدق على الأسماء أيضا .

كان الخليل يرى «أن الكلمتين اذا ركبتا ، ولكل منهما معنى وحكم أصبح لهما بالتركيب حكم جديد ، وقد أدخل فى هذا الأصل جميع الأدوات التى رأى أنها مركبة من أداتين .

ويحسن بنا أن نفرق بين طائفتين من هذه الأدوات التى أدخلها فى هذا الاصل بين طائفة انبنى تركيبها على أساس النحت ، وطائفة انبنى تركيبها على

---

(٨) المصدر السابق .

(٩) تاريخ علوم اللغة العربية ، لطه الراوى ص ٢٨ .

الاتصال المحض والتلازم المحض ، وكلتا الطائفتين عنده تشترك فى أنهـــا اصطنعت لنفسها حكما جديدا •

أما أدوات الطائفة الأولى فهى : لن وليس واذن •

(١) لن :ـ

ذهب الخليل الى أن أصلها : لا أن ولكنّهم حذفوا لكثرته فى كلامهم ، كما قالوا : ويلمّه يريدون : وي لأمه ، وكما قالوا : يومذ • وجعلت بمنزلة حرف واحد فانما هى هل ولا »(١٠) •

قال ابن جنى فى سر صناعة الاعراب ، بعد أن عرض لكأن وذكر أن أصل (كأن زيدا عمرو) : ان زيدا كعمرو ، ثم قدمت الكاف على ان فانفتحت همزتها ، لأنها ركبت مع ان ، فصار لها معها حكم جديد •

قال : «ونظير هذا الكلام فى أنه قد خلط بعضه ببعض وصار فيه كأنه حرف واحد مذهب الخليل في لن ، وذلك أن أصلها عنده :(لا أن) ، وكثـر استعمالها ، فحذفت الهمزة ، فالتقت ألف (لا) ونون (لن) ، وهما ساكنتان ، فحذفت الألف من (لا) ، لسكونها وسكون النون بعدها ، فصـــارت (لن) ، فخلطت اللام بالنون ، وصار لهما بالامتزاج والتركيب الذى وقع بينهما حكم آخر • يدلّك على ذلك قول العرب : زيدا لن أضرب ، فلو كان حكم (أن) المحذوفة الهمزة مبقى بعد حذفها ، وتركيب النون مع لام (لا) قبلها ، كما كان قبل الحذف والتركيب لما جاز لزيد أن يقدم على (لن) ، لأنه كان فى التقدير من صلة أن المحذوفة الهمزة ، ولو كان من صلتها لما جاز تقدمه عليها عـــلى

---

(١٠) الكتاب جـ١ ص ٤٠٧ •

وجه ، فهذا يدلك على أن الشيئين اذا خلطا حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمتزجا»(١١) .

واتخذ ابن جنى من هذا الذى لمحه من مذهب الخليل ردّا على سيبويه فى ردّه على الخليل اذ قال : «ولو كانت ـ يعنى لن ـ على ما يقول الخليل لما قلت : أما زيدا فلن أضرب ، لأن هذا اسم والفعل صلة له ، فكأنه قال : أما زيدا فلا الضرب له» (١٢) .

وقال الليث : «زعم الخليل فى لن أنه (لا أن) ، فوصلت لكثرته فى الكلام . ألا ترى أنها تشبه فى المعنى (لا) ، ولكنها أوكد . تقول : لن يكرمك زيد . معناه كأنه كان يطمع فى اكرامه ، فنفيت ذلك ووكدت النفى بلن فكانت أوجب من لا» (١٣) .

وذهاب الخليل الى أن (لن) أصلها (لاأن) يستند فيما أرى الى شيئين : أحدهما : أنه فهم منها النفى كما صرح به فى رواية الليث ، وحروف النفى الأصلية فى العربية هى لا وما ، وهما ينفيان الاسم كما ينفيان الفعل ، ونظر فى الحروف المشتركة والحروف المختصّة فرأى أن المختصة هى العاملة دون المشتركة ، و (لن) خاصة بالأفعال المضارعة ، واختصاصها بها يلفت الذهن الى أن هذا الحرف مركب لا بسيط ، وذهابه الى أنها مركبة من (لا وأن) يفسر هذا الاختصاص وافادة النفى لأن (أن) معها دائما ، وهى المختصة بالفعل وتعمل فيه النصب ، و (لا) معها دائما وهى التى يفهم منها النفى .

وثانيهما : أنه أدرك بحسّه اللغوى أن (لن) من الأدوات التى ترك فيها الاستعمال أثره ، والاستعمال عند الخليل دائما عامل من عوامل

(١١) سر صناعة الاعراب ـ حرف الكاف .
(١٢) الكتاب جـ١ ص ٤٠٧ .
(١٣) لسان العرب ـ مادة لن .

التخفيف ، وهو الذى أسقط من هذين الأصلين اللذين ركبت منهما (لن) بعض حروفهما ، ووصل ماتبقى من الثانى بما تبقى من الأول ، كما أن هذه العملية الاستعمالية هى التى أسقطت الهمزة من (ويلمه) •

وجاء الباحثون المحدثون فأيّدوا الخليل فى ذهابه الى تركيب (لن) الذى كان القدماء من النحويين يعدونه قولا شاذا ، لأنهم كانوا ينزعون الى بساطتها • وقد بحث المحدثون فيها وفى أمثالها من الحروف فى اللغات السامية الأخرى التى تكوّن مع العربية عائلة لغوية واحدة لها صفات عامة ولها معالم مشتركة ، فذهبوا مذهب الخليل فيها ، فصرح بركستراسر : «أن لن مركبة من لا وأن» ، ووجد أن للن شبيها وهو لم وكم ، فقال : «كما أن (لم) أصلها la-ma لاما ، وكم أصلها Kama ، ولكن مركبة من لا وكن المقابلة لكلمة Ken العبرية التى معناها هكذا» [١٤] •

(٢) ليس :

وأما ليس فقد ذهب الخليل الى أن أصلها «لا أيس» ، ثم طرحت الهمزة والألف وألزقت اللام بالياء •

ثم جاء الفراء ليتابعه فى هذا فقال : «أصل ليس لا أيس ، ودليل ذلك قول العرب : ائتنى به من حيث أيس وليس ، وجىء به من حيث أيس وليس ، أى من حيث هو وليس هو» [١٥] •

واذ نحتت ليس من لا وأيس أصبح لها حكم جديد ، وهو هذا الأسلوب المعروف لها فى النحو ، واتخذت مكانا لها بين كان وأخواتها ، فدخلت على المبتدأ والمبنى عليه فرفع المبتدأ ونصب المبنى عليه •

---

(١٤) التطور النحوى للغة العربية ص ١١١ •

(١٥) لسان العرب ـ مادة ـ ليس •

ولعلّ ما فيها من معنى الوجود الذى لمحه الخليل ، وأشار اليه الفراء حين فسّر قول العرب : «جئنى به من حيث أيس وليس» بقوله : «أى من حيث هو وليس هو» ، لعل ذلك هو الذى هيّأ لها أن تنضم الى عائلة الأفعال الدالة على الوجود فى زمن من الأزمان ، وأصبح لها أسلوبها ، وأخذت لنفسها أحكامها كالاتصال بالضمائر ، وان أختلفت عنها بعض الاختلاف من حيث تقديم مابعدها عليها أو تقديم ماله صلة بما بعدها عليها .

ولعل معنى الوجود الذى يلمح فيها يؤيد ظن من يظن أن (أيس) هو فعل الكينونة ، كما كان فى أخواتها من اللغات السامية الأخرى ، ولكنه انقرض من العربية .

وأيّد البحث الحديث مذهب الخليل فى ليس ، فزعم بركستراسر أنه «اشتقت من (لا) أدوات أخرى للنفى لاتوجد فى سائر اللغات السامية الا ليس، فيقابلها فى الآرامية ليت lait ، وهى مركبة من لا واسم معناه الوجود ، يحتمل أن يكون لفظه القديم iitai ، أو قريبا من ذلك ، وهو أيس ies فى العبرية ، وايتى itai فى الآرامية العتيقة ، ويقاربها فى الأكدية فعل وهو isu ايسو ، أى يملك الشىء وهو له ، فمعنى Lait : لايوجد ، وهذا هو معنى (ليس) الأصلى غير أن حروفهما لاتتطابق تماما ، فانا كنّا قد بينا أن السين العربية لا يقابلها فى اللغات السامية الشمالية الا السين أو الشين ، ولا يقابلها التاء أو الثاء الآراميّتان ، ولا يوجد بين الحروف العربية حرف يقابله فى الآرامية التاء أو الثاء ، وفى العبرية والأكدية الشين أو التاء ، فكان يلزم أن تكون (ليت) Lait فى العربية ليت ، وقيام السين فى ليس مقام التاء نقض لقوانين الأصوات السامية» (١٦) .

---

(١٦) التطور النحوى للغة العربية ، ص ١١١ .

أكبر الظن أن (ليس) عربية ليس لها ما يقابلها فى الساميات الأخريات • أما (ليت) الآرامية ففى العربية ما يماثلها ، وهو (لات) ، و (لاث) تستعمل فى العربية استعمال ليس ، وهى فيما نرى الأداة العربية التى تماثل (ليت) الآرامية مع اختلاف فى صوت اللين •

ونحن هنا لانريد أن نبعد فى التكهن ، أو نقف طويلا على أصالة السين وعدمها ، أو على وجود مايقابلها فى الساميات الأخريات أو عدمه ، لأن المسألة هنا تتعلق فى تركيب ليس وعدمه ، وقد ذكرنا أن الخليل والفراء كانا يذهبان الى أن ليس مركبة من لا وأيس ، وأن الاستعمال أثر فى هـــذين الأصلين وحذف بعض حروفهما كما أثر فى (لا وأن) وأسقط بعض حروفهما •



(٣) اذن :ـ

وأما اذن فأداة اختلف فيها النحاة اختلافا كبيرا ، فمنهم من ذهب الى أنها بسيطة ، ومنهم من ذهب الى أنها مركبة من (اذ وأن) • والقائلون ببساطتها اختلفوا فيما بينهم ، فمن قائل انها هى الناصبة ، ومـــن قائل ان النصب بأن مضمرة بعدها • (١٧) •

أما الخليل فلم أقف له على رأى صريح فيها ، ولكنى أظن أنه ممـــن يذهب الى تركيبها من اذ وأن ، مستندا فى ذلك الى شيئين :

(١) أنى رأيته يذهب الى تركيب لن ، واذن من حيث حسّها اللغوى تشعر بتركيبها من أذ وأن •

(٢) أنى وقفت على رأى له فى نصب الفعل المضارع ، رواه أبو عبيدة عنه

(١٧) ابن هشام فى مغنى اللبيب ، جـ١ ص ١٩ •

قال : قال الخليل : «لاينتصب شيء من الأفعال المضارعة الا بأن مضمرة أو مظهرة فى كى واذن ولن وغير ذلك» (١٨) •

فلا ينتصب الفعل المضارع عنده الا بأن ، وأن تنصبه ظاهرة حينا ومضمرة حينا آخر • أما (لن) فقد عرفنا مذهب الخليل فيها ، فاذا نصب الفعل المضارع بعدها فالنصب لأن التى نحتت (لن) منها ومن لا •

وأما كى فأكبر الظن أنه يذهب الى أنها لاتنصب هى الفعل المضارع ، لأنها غير مختصة به ، ولا يعمل الا الحرف المختص ، لأنه وجدها تدخل فى لغة صحيحة على الأسماء ، فى قولهم : كيمه بمعنى لمه •

وأما (اذن) فنصب الفعل بعدها ــ بناء على ما زعم الخليل ــ يرجع الى أنْ ، وأن هذه لاتظهر بعد اذن ناصبة للفعل المضارع ، فاما أن تذهب الى أنّ (أن) مضمرة بعد اذن وهذا بعيد ، ولا أظن الخليل كان يذهب اليه ، وسيبويه لم يسمعه منه ، واما أن نذهب الى أنها مركبة من اذ وأن ، وأن نصبها الفعل يرجع الى أن التى نحتت (اذن) منها ومن اذْ ، وهو أقرب الاحتمالين ، وألصق بمذهب الخليل •

وقد يعترض على هذا بأن (اذن) اذا كانت مركبة من اذ وأن ، فما معنى الغاء عملها فى المواضع التى نصّ بها على الغائه ؟ ولكن لاينبغى أن ننسى رأى الخليل فى المركبين المتلازمين من أن التركيب يمنحهما حكما خاصا •

وأما أدوات الطائفة الثانية فكثيرة ، منها مالازمته كاف التشبيه ، ومنها مالازمته (ما) ، ومنها ما لازمته (لا) ، ومنهامالازمه غير ذلك ••• وكلها مما ينزله الخليل منزلة الكلمة الواحدة ، وان لم ينظر اليها على أنها أصبحت بهذا التلازم والاتصال مركبة تركيب لن وليس واذن ، أو تركيب حضرموت وغيرها •

---

(١٨) شرح السيرافى على الكتاب جـ١ ص ٣٢ «مخطوطة لاستاذنا» •

أما الأدوات التى لازمتها كاف التشبيه ونزلت منها منزلة الجزء فهى كأنّ وكأىّ وكذا ٠

(كأنّ) : عند الخليل مركبة من كاف التشبيه وانّ ٠ قال سيبويه : «سألت الخليل عن كأنّ فزعم أنها انّ لحقتها كاف التشبيه ، ولكنها صارت مع انّ بمنزلة كلمة واحدة ، وهى نحو كأىّ رجلا ، ونحو له كذا أو كذا درهما» [19] ، ثم صار لهما بالتركيب حكم جديد هو عدم احتياجهما الى متعلق لها ولمجرورها ، كما احتاجت اليه سائر الحروف الجارة ، وقد أشار ابن جنى الى هذا حين قال : «انّ أصل قولنا كأنّ زيدا عمرو انما هو : ان زيدا كعمرو ، ثم انهم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذى عقدوا عليه الجملة ، فأزالوا الكاف من وسطها ، وقدموها الى أولها ، لافراط عنايتهم بالتشبيه ، فلما أدخلوها على انّ من قبلها وجب فتح انّ ، لأن المكسورة لايتقدمها حرف الجر ، ولا تقع الا أولا أبدا ، وبقى معنى التشبيه الذى كان فيها ، وهى متوسطة بحالها فيها وهى متقدمة ، وذلك قولهم ، كأنّ زيدا عمرو ، الا أنّ الكاف لما تقدمت بطل أن تكون متعلقة بفعل ، ولا معنى فعل ، لأنها فارقت الموضع الذى يمكن أن تتعلق فيه بمحذوف» [20] ٠

(كأىّ وكذا) : مركبتان عند الخليل ، أمّا الأولى فمركبة من كاف التشبيه وأىّ ، وأما الثانية فمركبة من كاف التشبيه أيضا و (ذا) ، ولكن كثرة استعمالهما متصلتين بالكاف نزلت كلاّ منهما مع الكاف منزلة الكلمة الواحدة ٠

قال الخليل فى تأويل كأى وكذا : «كأنهم قالوا : له كالعدد درهما ، وكالعدد من قرية ، فهذا تمثيل وان لم يتكلم به ، وانما تجىء الكاف للتشبيه ، فتصير وما بعدها بمنزلة شىء واحد ، من ذلك قولك كأنّ ، أدخلت الكاف على

---

(١٩) الكتاب جـ١ ص ٤٧٤ ٠

(٢٠) سر صناعة الاعراب ــ حرف الكاف ٠

ان للتشبيه»[٢١] ، وكان من أثر التركيب فيهما أن حصلا على معنى جديد واستعمال جديد ، فقد عدهما النحويون من الألفاظ التي يكنى بها عن العدد ، وقد لزما الجمود فلم يتصرفا تصرفهما قبل التركيب ، فلم تصبح (أيّ) في كأيّ مثل (أيّ) التي تضاف الى الضمائر ، ولم تصبح (ذا) في (كذا) مثل (ذا) التي تتصرف في التذكير والتأنيث والافراد التثنية ، فلا يقال فيها كذين ولا كذه ، كما يقال في ذا : ذان وذه .

وأمّا الأدوات التي لازمتها (ما) فهي :

(مهما) : هي عند الخليل أداة مركبة من (ما) الشرطية و (ما) التي تلحق لغوا بمتى في قولك متى ما تأتني آتك ، وبأين في قوله تعالى : «أينما تكونوا يدرككم الموت» ، وبأيّ في قوله تعالى : «أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى» .

ولكن ما شأن هذه الهاء ؟ يقول الخليل : «انهم استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا ، فيقولوا (ما ما) ، فأبدلوا الهاء من الألف في الأولى»[٢٢] . ولا يريد الخليل قطعا الى أنهم يستقبحون مجرد التكرار ، ولكنه يرمي الى نوع منه يستقبحه العرب ، ولا يدرك الا بالذوق . وليس قوله : «كرهوا أن يشبه كلامهم بنبح الكلاب»[٢٣] ، حين سئل عن السبب الذي دعا العرب أن يصغروا (واصلا) على (أويصل) ، مع أن القياس يقتضي ظاهره أن يصغر على (وويصل) . وتعليله بانهم استقبحوا أن يقولوا (ما ما) ، أو بأنهم كرهوا أن يشبه كلامهم بنبح الكلاب لايستند الى أصل علمي ، ولكنه يستند الى حسّ لغوي ، وذوق موسيقي ، وليس تعليله هذا بأكثر من تعليل استحسانيّ .

(انّما وأنّما) : وهما عنده مركبتان من انّ وأنّ ، و (ما) ألحقت بهما

---

(٢١) الكتاب ج ١ ص ٢٩٨ .

(٢٢) الكتاب ج١ ص ٤٣٣ .

(٢٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ج٢ ص ١٦٠ .

لتلغي عملهما فيما بعدهما ، فقد قال : «انما لاتعمل فيما بعدها كما أنّ (أرى) اذا كانت لغوا لم تعمل ، فجعلوا هذا نظيرها من الفعل ، كما أن نظير انّ من الفعل ما يعمل »[٢٤] .

(امّا) : وهذه الأداة ان كانت مكسورة الهمزة فالميم فيها مشدّدة ، وهى اذا كانت كذلك ، مركبة عند الخليل من (ان) و (ما) ، ويستدل على أن (ما) هنا ضمت الى (ان) بقول الشاعر :

لقد كذبتك نفسك فاكذبنها　　　فان جزعا وان اجمال صبر[٢٥]

وان كانت مفتوحة فهى مشددة الميم حينا ، ومخففة الميم حينا آخر . أما المشددة فهى عند الخليل مركبة حينا ، وبسيطة حينا آخر ، فالمركبة هى التى فى قولك : أمّا أنت منطلقا انطلقت ، فهى عنده مركبة من (أن وما) ، والبسيطة هى التى فى قولك : أمّا زيد فمنطلق ، وهى التى يقول النحويون عنها : أما كمهمايك من شيء ، وهى التى يقول فيها الخليل : «انها بمنزلة شروى» [٢٦] .

وأما المخففة الميم فهى عنده مركبة وبسيطة أيضا ، فالمركبة هى التى تستعمل فى الاستفهام فى قولك : أما تذهب ؟ وانت تستفهم ، وهى عنده مركبة من همزة الاستفهام وما النافية . والبسيطة هى التى تستعمل فى الابتداء ، وهى التى يقول النحويون فى اعرابها انها للاستفتاح ، كما فى قولك : أما انه ظريف ، ولذلك كان الخليل يقول : «هى بمنزلة قفا ورحى» [٢٧] .

---

(٢٤) الكتاب جـ١ ص ٢٨٣ .
(٢٥) الكتاب جـ ٢ ص ٦٧ .
(٢٦) المصدر السابق .
(٢٧) المصدر السابق .

(لوما) : ولوما عند الخليل مركبة من لو وما ، ولو هى الشرطية التى تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط ، ولكنها اذ دخلت عليها (ما) ولازمتها، وكثر استعمالها ملازمة اياها تغير معناها واستعمالها ، واندرجت فى هذا الأصل الذى نتحدث عنه ، وهو «أن الكلمتين اذا ركبتا ، ولكل منهما معنى وحكم ، أصبح لهما بالتركيب حكم جديد» •

(حيثما) : وحيثما عنده مركبة من حيث وهى ظرف زمان أو ظرف مكان يبنى على الضم وعلى الفتح ، ومن (ما) التى لحقت بها لتضمنها معنى جديدا هو المجازاة ، قال سيبويه : «سألت الخليل عن انما وأنماء وكأنما وحيثما وان ما ، فى قولك أما أن تفعل واما أن لاتفعل ، فقال : هن حكايات ، لأن (ما) هذه لم تجعل بمنزلة (موت) فى حضرموت ، ألا ترى أنها لم تغير حيث عن أن يكون فيها اللغتان الضم والفتح ، وانما تدخل لتمنع (أنّ) من النصب ، ولتدخل حيث فى الجزاء ، فجاءت مغيرة ولم تجىء كموت فى حضر ولا لغوا» (٢٨) •



وأمّا الأدوات التى لازمتها (لا) فهى :

(لولا) :ـ ولولا عند الخليل مركبة من (لو) الشرطية و (لا) ، لكنى تستعمل استعمالين جديدين :

أحدهما : كالذى يبدو فى قوله تعالى : لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصّدّق •

وثانيهما : كالذى فى قولهم : لولا على لهلك عمر • فلولا هنا يجازى بها أيضا ، ولكنها تدل على امتناع الجزاء لوجود الشرط ، ولم تكن لتكون كذلك لولا الحاق (لا) بها •

---

(٢٨) الكتاب جـ ٢ ص ٦٧ •

يقول ابن جنى : فى تأيد مذهب الخليل فى أن الكلام اذا خلط بعضه ببعض صار له بالامتزاج والتركيب حكم آخر : «ألا ترى أنّ (لولا) مركبة من (لو) و (لا) ، ومعنى (لو) امتناع الشىء لامتناع غيره ، ومعنى لا النفى أو النهى ، فلما ركبا معا حدث معنى آخر وهو امتناع الشىء لوجود غيره» (٢٩).

(هلّا) :ـ وهلا عنده مركبة من (هل) الاستفهامية و (لا) النافية ، فلما لحقت لا بهل ، ولازمتها اكسبتها هذه الملازمة معنى جديدا هو الحض والحث اذا دخلت على الماضى كقولك : هلا قمت اذا لم يكن قام وأردت حمله على الندم. اذا دخلت على المضارع كقولك : هلا تقوم اذا كنت تحثه على القيام ، والتنديم

قال الخليل فى معرض الكلام على لن : «وجعلت بمنزلة حرف واحد ، كما جعلوا هلا بمنزلة حرف واحد ، فانما هى هل ولا» (٣٠).

(الاّ) : والا مكسورة الهمزة مشددة اللام عنده بسيطة حينا ومركبة حينا آخر .

أما البسيطة فهى (الا) الاستثنائية ، فى قولك نهض القوم الا زيدا ، ولذلك كان الخليل يقول : «الا التى للاستثناء بمنزلة دفلى» (٣١).

وأما المركبة فهى (الا) التى للجزاء ، فى قولك : أسرع والا فاتك القطار ، لأنها مركبة من (ان) الشرطية و (لا) النافية .

وأما (ألا) المخففة فهى عنده على وجهين أيضا بسيطة ومركبة ، فالتى للاستفتاح فى قولك : ألا انه ظريف ، بسيطة وكان يقول عنها : «أمّا قولك ألا انه ظريف وأما انه ظريف فبمنزلة قفاورحى» (٣٢) . والتى للاستفهام

(٢٩) سر صناعة الاعراب ـ حرف الكاف .
(٣٠) الكتاب جـ١ ص ٤٠٧ .
(٣١) الكتاب جـ ١ ص ٦٧ .
(٣٢) المصدر السابق .

فى قولك ألا تذهب ؟ مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية •

وهناك كلمات وأدوات اختلف الدارسون فيها ، فمن ذاهب الى أنها بسيطة ، ومن ذاهب الى أنها مركبة ، وللخليل فيها آراء ندرجها فى هـــذا الفصل ، لما بينها وبين سابقاتها من علاقة ظاهرة ، ومن هذه الأدوات :

«أنت وفروعها» :ـ

ذهب الخليل الى أن الضمير فيها هو (أن) ، وأن التاء لحقته كما لحقت الكاف (ذاك) ، أى أن التاء التى لحقت (أن) ، والكاف التى لحقت (ذا) ، انمـا قصد بهما الى الدلالة على الخطاب • ورأيه هذا هو الأساس الذى انبنى عليه مذهب البصريين من أن الضمير هو (أن) ، والتاء حرف دال على الخطاب ، فهى عنده وعندهم مركبة لابسيطة ، كما ذهب اليه الفراء (٣٣) •

قال الخليل : «أما التى فى الاستفهام حـــكاية ، وألا التى فى الاستفهام حكاية ، وأمّا قولك : ألا انه ظريف ، وأما انه ظريف فبمنزلة قفا ورحى ونحو ذلك ، ولعل حكاية ، لأن اللام ههنا زائدة بمنزلتها فى لأفعلنّ ، ألا ترى أنك تقول علّك ، وكذلك كأنّ • الكاف دخلت للتشبيه • ومثل ذلك كذا وكأىّ • وكذلك (ذلك) ، لأن هذه الكاف لحقت للمخاطبة ، وكذلك (أنت) التاء بمنزلة الكاف» (٣٤) •

وكلام الخليل هذا فى معرض التسمية بالحروف والأدوات • وهذا هو المعنىّ بقوله حكاية ، يريد أن يقول : اذا سميت بأما التى فى الاستفهام ، وألا التى فى الاستفهام ، وبلعلّ وكأن وبذلك وأنت ، فانك تسمى بها على نحـو الحكاية ، كما تسمى انسانا بجملة مركبة نحو تأبط شرا ونحوه •

---

(٣٣) الاشمونى جـ ١ ص ١٢٧ •

(٣٤) الكتاب جـ٢ ص ٦٧ •

ومهما يكن من أمر فالذى يعنينا هنا هو اعتبار الخليل (أنت) مركبة من (أن) والتاء ، وذهابه الى أن التاء جيء بها للدلالة على الخطاب وحالها فى ذلك حال الكاف فى (ذلك) •

ويخيل الىّ أن الخليل انما ذهب الى تركيبها ، لأنه رأى التاء متغيرة بحسب نوع المخاطب وعدده ، فيقال أنت للمخاطب ، وأنت للمخاطبة ،وتضم التاء معزيادة تلحق بها فىالتثنيةوالجمع ، فيقالأنتما لمثنىالمذكّر والمؤنث،وأنتم للمخاطبين ، وأنتن للمخاطبات ، ورأى أن الجزء الذى سلم من هذا التغير هو (أن) • ورأى أن له نظيرا فى العربية ، وهو (ذاك) ، وهو اسم اشارة مركب من (ذا) وكاف الخطاب • وحال الكاف حال التاء تتغير بحسب حال المخاطبين وعددهم ، فيقال ذاكَ للمفرد المخاطب وذاكِ للمخاطبة ، وذاكما للمثنى ، وذاكم وذاكنّ للجمع ، واسم الاشارة واحد لايتغير •

وأيّد المحدثون الخليل فى تركيب (انت) من (أن) والتاء ظانين أن (أن) اسم اشارة ، وأن التاء هى الضمير المتصل الذى يستعمل فى الماضى ، نحو ذهبت ، والذى تبدأ به صيغة المضارع نحو تذهب • (٣٥) •

(وحبذا) :- وليس نصيب حبذا بعد تركيبها من (حب وذا) وتنزيل الكلمتين منزلة الكلمة الواحدة بأحسن من نصيب كأى وكذا ، فقد لازمت هى الجمود أيضا ، فلم تعد (حب) تتصرف تصرف الأفعال ، ولم تعد (ذا) تتصرف تصرف أسماء الاشارة • قال الخليل : «ان حبذا بمنزلة حبّ الشىء ، ولكن (ذا وحب) بمنزلة كلمة واحدة ، نحو لولا ، وهو اسم مرفوع كما تقول : يابن عمَّ ، فالعم مجرور • ألا ترى أنك تقول للمؤنث حبذا ، ولا

---

(٣٥) التطور النحوى للغة العربية لبرجستراسر ص ٢٦ ، ٤٨ •

تقول حبّذه ، لأنه صار مع حبّ على ما ذكرت لك ، وصار المذكر هو اللازم لأنه كالمثل» (٣٦) .

(واللّهم) :ـ وهى عنده مركبة من (الله) وميم مشددة تقوم مقام (يا) فى النداء ، وقد لازمت الميم المشددة ذلك اللفظ حتى أصبحت جزءا منه مبنيا عليه ، كما أصبحت النون فى المثنى والجمع جزءا مبنيا عليهما ، وليس (الله) هنا الا منادى ، ولكن تنزيل الميم المشددة منزلة جزئه منعه من أن يتصرف تصرف المناديات ، فلم يوصف كما توصف ، ولم يبدل منه كما يبدل منها . أما «اللهمّ فاطر السماوات» فيجيب الخليل عنه بأنه على تقدير (يا) ، أى لم يكن بدلا أو نعتا ، وانما هو منادى آخر حذف منه حرف النداء . (٣٧) .

(وايّاك) :ـ ويرى النحويون أن (ايّا) ضمير . وعلى هذا فالكاف التى اتصلت بها حرف دال على الخطاب ، وليست اسما ، لأنها اذا كانت اسما وجب أن تكون مضافا اليها والضمائر لاتضاف .

ولكن الخليل ـ مع أنه يرى أنها ضمير ـ يرى أنّها اسم مبهم يحتاج الى مايزيل عنه الابهام ، كالأسماء الموصولة ، وأسماء الاشارة ، فهى اذن محتاجة الى التخصيص وقد خصصت هنا باضافتها الى ضمير المخاطب ، وقد سمع الخليل العرب يقولون : «اذا بلغ الرجل الستين فايّاه وايّا الشوابّ» (٣٨) ، فاضافة (ايّا) الى الشواب تدل على أن الهاء المتصلة بايّا الأولى ضمير ، وهو مضاف اليه ، ولذلك كان يقول : «لو أنّ رجلا قال اياك نفسك لم أعنّفه ، لأن هذه الكاف مجرورة» (٣٩) .

---

(٣٦) الكتاب جـ١ ص ٣٠٢ .
(٣٧) الكتاب جـ١ ص ٣١٠ .
(٣٨) الكتاب جـ ١ ص ١٤١ .
(٣٩) الكتاب جـ ١ ص ١٤١ .

وعرض النحاة آخرون لرأى الخليل ، فضعّفوه وعدوه شاذا • قال ابن جنى : «أما قول الخليل ان ايا ضمير مضاف فظاهر الفساد ، وذلك أنّه اذا ثبت أنه مضمر فلا سبيل الى اضافته على وجه من الوجوه ، لأن الغرض فى الاضافة انما هو التعريف والتخصيص ، والمضمر على نهاية الاختصاص فلا حاجة به الى الاضافة» (٤٠) •

ونحن نرجح رأى الخليل بثلاثة أمور :

(١) أنه سمعهم يقولون : اذا بلغ الرجل الستين فاياه وايّا الشواب ، واستعمالهم اياها مضافة الى الظاهر يشعر بجواز استعمالهم اياها مضافة الى المضمر •

(٢) أن ايا فى استعمالها خالفت أخواتها من الضمائر ، لأنها مبهمة تحتاج الى ما يخصصها بالحاق علامة التكلم والخطاب والغيبة بها ، وذلك يشعر بأنها تختلف عن سائر أخواتها ، وأنها ليست بمنزلتها فى التعريف ، ويشعر بقوة رأى الخليل فى ابهامها واحتياجها الى ما يزيل الابهام عنها باضافتها •

(٣) أن الحروف التى تلحقها كما يزعم النحويون هى بعينها التى تستعمل أسماءا ، فكيف يفرقون بين استعمالها حروفا واستعمالها اسماءا ، وليس ذلك الا لذهابهم الى أن ايا ضمير معرفة • فلما عدوها من المعارف أحالوا اعتبار العلامات بعدها أسماءا لأن كونها أسماءا يستدعى أن يكون لها محل من الاعراب ، ولا محل لها الا أن تكون مضافا اليها • وهذا مالا يستطيعون تصوره ، لأن الضمائر عندهم لاتضاف ، لغنائها عن التعريف والتخصيص •

---

(٤٠) سر صناعة الاعراب ـ حرف الكاف •

(وألْ) :ـ وأل هو الحرف الذى يعرّف به ، وهو فى رأى الخليل بسيط غير مركب ، والتعريف عنده مستفاد من الهمزة واللام معا لا من اللام وحدها ، كما يذهب اليه نحاة آخرون يقولون ان اللام وحدها للتعريف ، وهى ساكنة ابدا ، وجيء بالهمزة توصلا الى النطق بها • قال الخليل : «ان الألف واللام اللتين يعرفون بهما حرف واحد ، كقدوأن ، ليست واحدة منهما منفصلة عن الأخرى» (٤١) • وكان يرى أن (أل) ليست جزءا من الكلمة التى اتصلت بها ، وانما هى كلمة مستقلة يؤتى بها للتعريف اذا أريد وتترك اذا لم يرد • واستدل على انفصالها واستقلالها عن مدخولها بقول الشاعر :

دع ذا وعجّل ذا والحقنا بذا ال ... بالشحم انا قد مللنا بجل

فقال : «هى ههنا كقول الرجل وهو يتذكر : قدى قد فعل ، ولا يفعل مثل هذا علمناه بشيء مما كان من الحروف الموصولة» (٤٢) • ولأنها بسيطة عنده «كان يسميها (أل) ، كقولنا (قد) ، وأنه لم يكن يقول الألف واللام ، كما لايقول فى قد القاف والدال» (٤٣) •

والذى يستفاد من أقوال المحدثين صحة رأى الخليل فأداة التعريف موجودة فى ثلاث من اللغات السامية ، وهى العبرية والآرامية والعربية ، وهى فيها جميعا مكوّنة من حرفين ، وليست أداة التعريف فى هذه اللغات تؤدى بلفظ واحد ، فهى فى العبرية والآرامية : ha ، الا أنها فى العبرية تلحق بأول الكلمة ، فاذا أرادوا أن يقولوا : (الملك) قالوا : ها ملك hammelek • وفى الآرامية تلحق بآخر الكلمة ، فيقولون : ملكا ،

---

(٤١) الكتاب جـ٢ ص ٦٣ •
(٤٢) الكتاب جـ٢ ص ٦٤ •
(٤٣) سر صناعة الاعراب ـ حرف اللام •

وأصلهـا malkha • وهى فى العربية أل (al) [٤٤]، وهو يؤيد الخليل فى ذهابه الى أنها بسيطة مؤلفة من حرفين كقد وأن •

ويصدق مذهبه الذى صدرنا به هذا الفعل الخاص بالتركيب على جميع المركبات الأخرى ، غير الأدوات والحروف ، سواء أكانت من المركبـات المزجيّة كحضرموت وبعلبك ومعديكرب ، أم من المركبات العددية ، كخمسة عشر وأخواتها ، أم من المركبات الظرفية ، كصباحَ مساءَ ، وبينَ بينَ أم غيرها ، كحيصَ بيصَ ، وشَذَرَ مَذَرَ ونحوها • فكلها يشترك فى أنهـا حصلت بتركيبها على أحكام خاصة لم تكن للأجزاء التى ضم بعضهـا الى بعض ، وان تكن هذه المركبات تختلف فيما بينها فبعضها متمكن ، وهو المركب المزجى ، وبعضها غير متمكن كخمسة عشر وبينَ بينَ وغيرهما •

وقد سأل سيبويه يونس بن حُبيب عن منع المركبات المزجية من الصرف اذا كانت عربية الأصل ، فاجابه يونس بقوله : «ليس شىء يجتمع من شيئين فيجعل اسما سمى به الا لم يصرف» [٤٥] •

ان يونس فى هذا ذاهب الى ماذهب اليه الخليل فى المركبات من أنهـا تتخذ لنفسها بعد جعلها اسما واحدا حكما جديدا ، ولكنه لم يكن مأخذه كمأخذ الخليل • فالخليل ينسب هذا الى استعمال الجزءين متلازمين ، أو منزلين منزلة الكلمة الواحدة ، ويونس يرجعه الى عامل آخر هو شذوذها عن البناء الذى ألفه العرب ، فان بناء المركبات ليس من أصل بناء الأسماء ، ولذلك لم يصرف بعضه ، وبنى بعضه الآخر • ويستدل على شذوذه عن أصل البناء بقلته فى كلامهم • [٤٦]

---

(٤٤) التطور النحوى للغة العربية لبركستراسر ص ٩٣ •

(٤٥) الكتاب جـ٢ ص ٥٠ •

(٤٦) الكتاب جـ٢ ص ٥٠ •

بعد هذا كله نستطيع أن نؤكد الفرق بين النحت والتركيب وان كانا يلتقيان فى استخلاص كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر ، وكان لهذه الكلمة المستخلصة حكم جديد ، ذكرنا فى صدر هذا الفصل • فالنحت ينبنى على أساس اقتطاع بعض أجزاء الكلمتين المنحوت منهما ، كما هو ظاهر فى مثل قولهم عبشمى من عبدشمس وعبقسى من عبدالقيس ، وعبدرى من عبدالدار ، والبسملة من بسم الله الرحمن الرحيم ، ولن من لاأن ، وليس من لاأيس ، وغيرها • والتركيب ينبنى على أساس الاتصال والتلازم بين الجزءين ، وعلى أساس تنزيلهما منزلة الكلمة الواحدة ، على أن لاتفقد المركبات بعض أجزاء الأصول التى ركبت منها ، كما هو واضح فى حضرموت وبعلبك وصباحَ مساءَ ، وبينَ بينَ وغيرها •

ثم ان المركبات عند الخليل تختلف فيما بينها ، فبعضها منزّل منزلة الكلمة الواحدة واذا سمى به لم تكن التسمية على نحو الحكاية ، لأن الجزءين فيه معدودان كلمة واحدة ، كالتسمية بحضرموت ومعديكرب •

وبعضها لم ينزل منزلة الكلمة الواحدة واذا سمى به كانت التسمية على نحو الحكاية ، لأن كلا من الجزءين فيه لم يفقد استقلاله ، ولم يتجرد عن شخصيته ، كما اذا سمى بحيثما وانما ومهما وغيرهما • (فما) فى هذه الأدوات عند الخليل جاءت لمعنى ، وجاءت مغيرة لحكم ما اتصلت به ولازمته ، ولم تكن لغوا ، ومع ذلك لم تكن بمنزلة (موت) من حضرموت ، ولا بمنزلة (بك) فى بعلبك ، ولا بمنزلة (كرب) فى معديكرب •(٤٧)

---

(٤٧) الكتاب جـ ٢ ص ٦٧ •

الفصل السادس

الاعـراب

أو النحو بمعناه الخاص

(١)

لم يترك الخليل لنا كتابا خاصا ألّفه بنفسه نقف منه على تفاصيل أقواله وآرائه فى المسائل النحوية المختلفة ، أو نعرف طريقته فى تبويب هذه المسائل وتناولها بالدرس ، وكل ما للخليل من أقوال جاءت على لسان سـيبويه فى كتابه .

كان سيبويه ينقل عنه وعن شيوخه الآخرين ، كعيسى بن عمر ويونس ابن حبيب ، وسيبويه ثقة فيما كان يحدث به عن شيوخه ، وقد وثقه وشهد بصحة ماروواه يونس بن حبيب ، فقد قيل له يوما : «ان سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة فى علم الخليل . فقال يونس : ومتى سمع سيبويه من الخليل كل هذا ؟ جيئونى بكتابه . فلما نظر فى كتابه ، ورأى كل ما حكى ، قال : يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه كما صدق فيما حكى عنى» (١) .

وقد تردد اسم يونس فى ثمانين ومائة موضع من كتابه ، وربما أورد ليونس فصلا كاملا كما جاء فى بحث التصغير ، فقد ختم سيبويه الباب الخاص بتصغير نحو حمراء وصفراء ، مما كان على ثلاثة أحرف ، ثم لحقته همـزة

---

(١) طبقات النحويين للزبيدى «نسخة مصورة بدار الكتب» ص ٣٧ . نزهة الالباء ص ٧٣ ، أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٤٨ .

التأنيث بعد ألف ، فصار على خمسة أحرف ، بقوله : «وجميع ماذكرت لك ، وما أذكر لك فى الباب الذى يليه قول يونس» [٢] .

ومع كثرة مارواه عن يونس فان مارواه عن الخليل أكثر كثيرا ، فقد تردد اسم الخليل فى اثنين وثلاثين وثلاث مائة موضع ، عدا ما كان يرويه عنه بقوله : سألته أو زعم أو قال أو يقول ، وقد ذكر السيرافى وغيره أنه متى قال وسألته أو زعم أو قال من غير أن يذكر اسم المسئول أو الزاعم أو القائل فالخليل هو المقصود . فاذا أضيف عدد المواضع التى لم يذكر فيها اسمه الى عدد المواضع التى صرح فيها باسمه بلغ عدد مروياته عنه قرابة ثمانين وثلاث مائة ، وكان هذا العدد الضخم مشجعا للقائل بأن أصول الكتاب ومسائله للخليل .

على أننا نرجح أن يكون للخليل آراء وأقوال كثيرة بل أكثر مما نسبه سيبويه اليه ، وهى مثبوتة فى الكتاب ، بل لانستثنى من الكتاب شيئا الا ما نقله عن يونس وعيسى بن عمر وعبدالله بن أبى اسحاق وأبى عمرو بن العلاء وغيرهم ، وما كان له من آراء خاصة عارض بها الخليل أو رجح بها مذهبا على مذهب.

وأكبر الظن أنه لم يذكر للخليل رأيا الا لبيان ما خالف الخليل فيه غيره . ولا نستغرب مقالة القائل : «ان سيبويه ألف كتابا من ألف ورقة فى علم الخليل» ، كما لانستغرب أن يقول ثعلب ـ كما يروى ابن النديم عنه ـ : الأصول والمسائل للخليل [٣] .

كان سيبويه ينقل عن الخليل بالواسطة أحيانا ، كما جاء من قوله : «وحدثنى من لا أتهم عن الخليل» [٤] ، وقوله : «ذكر لى بعضهم أن الخليل

---

(٢) الكتاب جـ٢ ص ١٠٩ .
(٣) فهرست ابن النديم ص ٧٦ .
(٤) الكتاب جـ١ ص ١٤١ .

قال» (٥) ، مما يدل على أن الكتاب لم يتم تأليفه كله فى حياة الخليل ، ولو كان قد تمّ فى حياته لما اعتمد على الواسطة فى الرواية عنه لما نعلم من شدة اتصاله بـه .

هذا بالاضافة الى أنه كان أحيانا يذكر اسمه مترحما عليه ، كما جاء من قوله : «وهذا قول الخليل رحمه الله» (٦) ، ومن قوله : «وزعم الخليل رحمه الله» (٧).

يؤيدنا فى زعمنا هذا ما صرّح به الدكتور ابراهيم بيومى مدكور فى ردّه على تعليقه الدكتور عبدالوهاب عزام (٨) ، من أن كتاب سيبويه قد ألف قبيل وفاته سنة ١٧٧ للهجرة ، أى بعد وفاة الخليل بسنتين ، فان أكثر المؤرخين يرون أن وفاة الخليل كانت سنة ١٧٥ للهجرة . فان لم يكن الأمر كما قال الدكتور من أن سيبويه بدأ بالكتاب ، وانتهى منه بعد وفاة الخليل ، فلا أقل من أنه بدأ به فى حياته ، ولم يتمه الا بعد وفاته كما استظهرنا .

أما ما قيل ــ والقائل هو ثعلب ــ من أن أربعين انسانا وسيبويه أحدهم ، تعاونوا على صنع الكتاب (٩) ، ففيه مجال للمناقشة . فقد اعترف فى مقالته هذه «بأن أصول الكتاب ومسائله للخليل» ، وناقل علم الخليل فى النحو الى الدارسين هو تلميذه وصاحبه سيبويه ، كما يستفاد من النقول الكثيرة فى هذا الشأن ، وكما تنص عليه الرواية التى رواها الزبيدى فى طبقاته ، وقدمر بنا ذكرها الآن .

---

(٥) الكتاب جـ١ ص ٤١٢ .
(٦) الكتاب جـ١ ص ٤٨ .
(٧) الكتاب جـ١ ص ٧٩ .
(٨) انظر صفحة ٦ من المحاضرة التى ألقاها الدكتور مدكور فى مؤتمر المجمع ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ . وموضوعها : «منطق أرسطو والنحو العربى».
(٩) فهرست ابن النديم ص ٧٦ .

ونحن الآن فى غنى عن أن نعرض للكتاب بمدح أو تقريظ ، فعند الاولون امره ، والكتاب وان كان مبوبا ومرتبا الى حد ما ــ لم يكن ترتيبه مبنيا على أساس منطقى ، كسائر كتب النحويين المتأخرين ، ولذلك كانت الاستفادة من كتب المتأخرين أيسر من الاستفادة منه ، ومرجع هذا ــ فيما أعتقد ــ أمور :

(١) أن التأليف كان فى بداية نشوئه وفى أولى مراحله ، ولم تتهيأ للمؤلفين اذ ذاك القدرة على التنظيم ودقة التبويب ، والكتاب هو أقدم ماوصل الينا فى النحو ، وقد ألف فى النصف الثانى من المائة الثانية •

(٢) وأن النحاة الأولين كالخليل ويونس وسيبويه لم يعنوا اذ ذاك بالترتيب والتبويب ، وكل ما كانوا يعنون به هو تقعيد القواعد ، واستخراج الأصول ، وتقرير الأحكام المختلفة •

(٣) وأن النحو عند الخليل وطبقته كان عاما يشمل النحو الاصطلاحى ، وما سمّى بعلم الصرف ، وما سمى بعلم الأصوات • ومسائل هذه العلوم الثلاثة متداخلة ، وأصولها متشابكة ، ولم يعن سيبويه ولا غيره بفرزها وارجاع كل مسألة الى الباب الذى هى منه •

وأقوال الخليل فى الكتاب مبثوثة فى جميع أبوابه ، فلا نكاد ننتقل من باب الى آخر حتى نجد للخليل فيه رأيا ، مما يدل على أنه كان قد عرض لجميع أبواب النحو المعروفة ، وأن النحو أصوله وقواعده هو هو الذى قرره الخليل ، وأن الخليل كان الموجّه لسيبويه فى جميع الموضوعات واذا خالفه سيبويه فانما يخالفه فى الجزئيات ، ولم يخالفه فى الأصول الا قليلا جدا • فللخليل كلام فى الاشتغال والنداء والاستثناء ، وله كلام فى المرفوعات والمنصوبات ، وله كلام فى الأفعال المضارعة نصبها وجزمها ورفعها وتوكيدها ، وله كلام فى الحروف الخمسة وعملها وفى الأفعال الناقصة وعملها ، وفيما يشبه الأفعال

المضارعة من أسماء الفاعلين والمفعولين والصفات المشبهة بأسماء الفاعلين ، وفيما ينصرف ومالاينصرف ، وفى أبنية المصادر والجموع والتصغير ، الى غير ذلك من الأبواب التى احتواها الكتاب •

وهو فى أكثر الاحيان مسئول ، وفى بعضها سائل ، واذا أنعمت النظر فى أقواله لم تجده عارضا عليك موضوعا أو شارحا بابا ، وانما وجدته معللا ظاهرة من الظواهر النحوية ، كنصب فعل او جر اسم ، أو معللا تعبيرا ولافتا الى أسلوب ، أو قائسا مسألة على مسألة وتعبيرا على تعبير ، وهو فى كل ذلك موجها أكثر منه ممليا وملقنا •

ولا أظن بى حاجة الى التأكيد بأن الخليل لم يعن بالاملاء والتقين عنايته بفهم المسائل فهما يعتمد على كثير من التذوق والتعقل ، وأنه لم يكن من أولئك الذين يعنون بملء فراغ الأذهان بأكداس من المسائل التى يتناقلها الخلف عن السلف ، دون أن يخضعها لمحاكمة • أليس هو القائل : «كن على مدارسة مافى قلبك أحرص منك على حفظ كتبك» (١٠) •

ولم يعن الخليل بالمسائل الجزئية عنايته بالأصول ، بل لم يعن بها لذاتها ولكن للوصول الى أحكام عامة ، وكان يستعين بالتجربة والتذوق على الوصول الى هذه الأحكام •

واذا أردنا أن نصور نهجه فى دراسته بين المناهج التى حددت فيما بعد فأقرب مايكون الى المنهج الاستقرائى ، وهو ماقصدنا اليه حين زعمنا أنه كان يعتمد فى دراسته على التجربة ، لأن المناهج الدراسية ترجع الى منهجين اثنين :

(١) المنهج الاستنتاجى •

(٢) والمنهج الاستقرائى •

---

(١٠) الكامل للمبرد ص ١٧١ «طبع لايبزج» •

فالمنهج الاستنتاجى : هو العملية التى ينزل فيها الفكر من الحقيقة العامة الى الحقائق الخاصة ، أو الى الحقائق الأقل عموما ، والتى تندرج فى الحقيقة الكبرى ، أو هو العملية التى ينزل فيها الفكر من المبدأ العام الى نتائجه •

والمنهج الاستقرائى : هو العملية التى يمضى فيها الفكر من الوقائع الخاصة ليصل الى القانون العام •

فالفكر فى الحالة الأولى يتبع طريقا هابطة ، وفى الثانية يتبع طريقا صاعدة • ويمكن تصوير هذين الاتجاهين بالسلم المزدوج فنحن نصعد بالاستقراء ونهبط بالاستنتاج •(١١)

فاذا أردنا تطبيق ذلك على أعمال الخليل ، وطريقته فى دراسته فسنجد أنفسنا أمام عمليات استقرائية ، ان لم يكن الاستقراء فيها منهجا واضح الحدود موطد الأركان فانها تحمل فى مطاويها ملامح هذا المنهج •

ويخيل الىّ أن الدراسات اللغوية أكثر ما تعتمد على الاستقراء ، بل لاسبيل الى دراستها واستخراج قواعدها الا عن طريق الاستقراء ، فليست الدراسات اللغوية من القضايا المجردة التى يصل العقل الى أحكامها الكلية قبل استقراء الجزئيات •

وقد سبق أن قلنا فى التفرقة بين القياس المنطقى والقياس النحوى : ان القياس المنطقى انتقال من الكلى الى الجزئى ، وان القياس النحوى انتقال من الجزئى الى الكلىّ ، وليس القياس المنطقى الا الاستنتاج ، والقياس النحوى الا الاستقراء •(١٢)

---

(١١) ص ٢٠ من كتاب Pedagogie Vecue لمؤلفه Charles Charvier (باريس) ١٩٣٨

(١٢) راجع الفقرة الخاصة بـ «منطق أرسطو ونحو الخليل من هذه الرسالة» •

كانت التجربة اذن عماد منهجه في دراســـته ، أو لازمة من لوازمه الفكرية ، أجراها في دراسته الحروف ، وأجراها في دراسته البناء العام للكلمة العربية ، وأجراها في دراسته الاعراب كما سنقف عليه من أمثلة •

كان الخليل يتذوق الكلمات ومواقعها في العبارات ليدرك ماتدل عليه من معان اعرابية ، هي الصور النفسية التي مثلت في نفس العربي ، فأراد الى التعبير عنها • وكان يتذوق الكلمات ليفقه مافي هذه الكلمات من أسرار ، وكان يقلب الجمل على وجوهها التي يحتمل أن يكون العرب قصدوا اليها ، ليقف على المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه الوجوه •

ومن الطبيعي أن تختلف الوجوه اذا اختلف قصد المتكلم • والخليـــل لم يعن بهذه الوجوه المختلفة من أجل التلاعب باللفظ ، واظهار المقدرة عـــلى استخراج الصور اللفظية ، وانما عني بها لأنها قد تصل به الى معان جديدة •

فن ذلك ما ذهب اليه من قولهم : «مررت به المسكين» ، ففي قولهم : «المسكين» وجوه : يرفع وينصب ويجر ، يرفع على اضمار هو ، «كأنه لما قال مررت به قال هو المسكين ، كما يقول مبتدئا المسكين هو » ، وينصب على اضمار فعل فيه معنى الترحّم ، ويجر على اعتباره بدلا من الضمير المجرور (١٣)•

وهذه الوجوه المختلفة قد طرأت على هذه الجملة ، لأن المعـــاني التي قصد اليها المتكلم متعددة ، فاستتبعت هذه المعاني الجديدة تغيرا في الاعراب واختلافا في الحركات •

وقد اصطنع التجربة أداة لتقعيد النحو والوصول الى أحـــكام عـــامة ، لأن عقليته تعنى بالنظر الكلي العام ، كان لاينتهي من قاعدة الا ليواجه قاعدة أخرى ، ولا يفرغ من أصل الا ليبحث في أصل آخر ، أليس هو من الذين

---

(١٣) الكتاب جـ١ ص ٢٥٤ •

يعنون بأحكام العقل ؟ وأحكام العقل ليست جزئية ، لأن نظرة العقل الى الأشياء تعنى بايجاد الروابط العامة التى تنتظم المسائل الجزئية .

وكان الخليل ممن يعتد بهذه الاحكام ، وباستخراج هذه الخصائص العامة ، وكان يحاول اخضاع الأشتات لها ، لكى تصبح الدراسة اللغوية أشبه ماتكون بالدراسة العلمية ، حتى يتمكن الدارس من الاحاطة بالمسائل ، وتكون هذه الاصول أمامه بمنزلة الأعلام تهديه فى طريقه لدراسة هذه الموضوعات .

وقد مر علينا كثير من هذه الأحكام العامة حين عرضنا لدراسة الأصوات، ودراسة البناء العام للكلمة ، وسنعرض أيضا لبعض هذه الأحكام فى دراسة الاعراب .

ولست أزعم أن تلك الأصول التى أثبتّها ، والأصول التى سأثبتها فى هذا الفصل هى كل ما للخليل من آثار فى هذه الدراسات ، ولكنى أحاول بما أثبتّه وأثبته أن أضع نصب عينى القارىء ما يهديه الى تفهم عقلية الخليل .

وتستطيع ارجاع هذه المبادىء التى تجدها فى كتب النحو الى عمل الخليل ، وتستطيع الاطمئنان الى أن الخليل فى النحو كالخليل فى العروض ، وقف على كلام العرب وأساليبهم واستخرج الأصول والقواعد ، وقلما تهيأ للنحاة من بعده أن يزيدوا فيها شيئا يذكر ، «ومن الصعوبة أن تجد واحدا من الباحثين التابعين للمدرسة البصرية من أضاف الى محتويات الكتاب شيئا»(١٤) . ولم أكن لأنسب الى الخليل شيئا ليس له حين قررت هذا الحكم ، بل لم أدّع شيئا لم ألمسه فيما قرأت له من أقوال ، فقد جمعت ماتيسر لى جمعه من أقواله ، من كتاب سيبويه وغيره فراعنى أن كثيرا من النحاة كانوا يلقون الأحكام دون أن ينسبوها أو كثيرا منها الى صاحبها ، وقد يكون لهم فى ذلك بعض العذر ، لأن هذه المبادىء التى أصبحت فى النحو أوليات لاتحتمل

---

(١٤) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة (سيبويه) .

جدلا ولا تقبل مناقشة قد شاعت بين النحويين شيوعا جعلهم لايفكرون فى ارجاعها الى مصادرها •

وكم كان عجبى شديدا حين تصفحت «سر صناعة الاعراب» لابن جنى وقد أعارنيه أستاذى الجليل ابراهيم مصطفى ، وكدت اذ ذاك أفرغ من جمع ما للخليل من أقوال وآراء فى الأصوات ، وماله من أوضاع ومصطلحات، فوجدتنى كأنى استعيد قراءة ما جمعت من جذاذات ، اللهم الا ماكان لابن جنى نفسه ، وما كان للغويين الذين عاشوا فى الفترة التى كانت بينه وبين الخليل •

قرأت ذلك فلم أجده الا ناسبا أقله للخليل ، ومهملا فى أكثره اسم الخليل ، ولست متعديا حدود الصواب اذا ألحقت بابن جنى كثيرا من المؤلفين•

والحق أن النحاة التابعين للمدرسة البصرية كانوا قد دهشوا بأعمال الخليل ، وأعجبوا بوفرة ماجاء فى الكتاب ، وهو ـ فيما أزعم ـ ثمرة من ثمرات الخليل العلمية ، حتى أصبح الكتاب عندهم مثلا أعلى يحتذونه ولا يجرؤون على تخطيه والخروج عليه • وكان من اعجابهم بالكتاب أن كان أبو عثمان المازنى يقول : «من أراد أن يعمل كبيرا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى» (١٥) •

وكان المبرد يقول لمن يريد أن يقرأ الكتاب عليه : «هل ركبت البحر ؟! تعظيما له واستصعابا لما فيه» (١٦) •

وكل ما كان من النحاة أن أقبلوا على الكتاب يشرحونه ، ويكشفون عن دقائقه ويفسرون شواهده ، واجتمع على شرحه شراح كثيرون من علماء المدرسة البصرية ، منهم أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ ، ومنهم المبرد المتوفى سنة ٢٨٤هـ ، ومنهم على بن سليمان الأخفش المتوفى سنة ٣١٥ ،

---

(١٥) أخبار النحويين البصريين لابى سعيد السيرافى ص ٥٠ «طبع بيروت»•
(١٦) أخبار النحويين البصريين ص ٥٠ •

ومنهم غير هؤلاء • (١٧) • وقد ندر أن استقرأ هؤلاء شيئا لم يستقرئه الخليل وسيبويه ، أو استخرجوا أصلا استدركوه على الخليل وسيبويه ، وأكثر ما جاءوا به أنهم أوضحوا منهجهما وشرحوا ما غمض من آرائهما ، ولاحظوا حرصهما على تقعيد القواعد ، واستخراج الأصول ، وعنايتهما بالقياس والفروض فراقهم ذلك ولم يفهموا أغراضهما فاستزادوا من الفلسفة والمنطق اللذين نمت دراستهما في عهودهم ، وبالغوا في الاقتباس منهما حتى باعدوا بين النحو طبيعته ، وكاد النحو بعملهم هذا يكون فرعا من فروع الفلسفة ، فالقاعدة النحوية تكاد تكون من قوة التأثير ـ عندهم ـ كاحدى كليات المنطق•

والحق أن مدرسة الخليل التي كانت تضع الذوق العربي في الأسلوب والتأليف في المقام الأول بدئت بالخليل ، ولم يبرز من علماء اللغة من بعده من استطاع أن ينهج منهجه الا قلة من فقهاء اللغة ، بنوا آثارهم على الأسس التي وضعها الخليل ، ومن أعلام هذه القلة أبو الفتح ابن جني في كتابيه «الخصائص» ، و «سر صناعة الاعراب» •

فاذا بحثت في مسائل النحو وأصوله في كتب المتأخرين ، وأردت ارجاعها الى أصولها ، فمن السهل لتحقيق ذلك أن ترجع الى كتاب سيبويه ، والى عمل الخليل فيه ، فانك واجد فيه ضالتك ، وانك ستطمئن الى أن هذه الأصول العامة التي يرددها هؤلاء النحاة على أنها أوليّات كان الخليل قد قررها ، وتوصل اليها والى كثير من أمثالها •

ومن الأمثلة التي تدل على صحة هذا الزعم ماشاع بين النحاة من أنه :

لا جرّ في الافعال

لأن الجرّ علامة الاضافة ، والأفعال لايضاف اليها ، والعرب من أجل

---

(١٧) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة «سيبويه» •

ذلك جنبوها ـ كما يرى الخليل ـ حتى شبيه الجر ، وهو ما اصطلح عليه النحويون بالكسر ، فلا تجد فى العربية فعلا محركا آخره بالكسرة ، سواء أكانت علامة اعراب أم علامة بناء ، لذلك تراهم اذا اضطرهم التأليف الى كسر أواخرها باتصالها بياء المتكلم جاءوا بنون سماها النحويون نون الوقاية ، لأنها تفصل الفعل من الياء ، وتتحمل هى الكسرة عنه ، كما فى نحو : علمنى وأكرمنى •

وكان الخليل يقول وقد سأله سيبويه عن عدم الاتيان بالنون فى قولهم الضاربى ـ : «هذا اسم ، ويدخله الجر ، وانما قالوا فى الفعل ضربنى ويضربنى كراهية أن يدخله الكسر كما منع الجر» (١٨) •

ولا جزم فى الأسماء

لأن الجزم لايتأتى الا مع أدوات خاصة لاتدخل الا على الأفعال ، لدلالتها على معان خاصة بالأفعال ، (فلم) لنفى وقوع الفعل فى الماضى ، و (لما) لنفى وقوعه مستمرا الى الحال ، ولام الأمر لطلب الفعل فى الحال ، ولا الناهية لترك الفعل فى الحال ، والأسماء ليس لألفاظها دلالة على الزمان • وأما الأدوات الأخرى وهى أدوات الشرط فتأتى لمعان هى للأفعال مما لايحتاج الى بيان •

وقد أشار الخليل الى ذلك حين عرض لالحاق نون الوقاية بقط وعن ولدن بقوله : « وأما قط وعن ولدن فانهن تباعدن من الأسماء ، ولزمهن ما لايدخل الأسماء المتمكنة وهو السكون • وانما يدخل ذلك على الفعل نحو خُذْ و زِنْ » (١٩) •

---

(١٨) الكتاب ج ١ ص ٣٨٦ •
(١٩) المصدر السابق •

المنادى لاتدخله الألف واللام

لأن المنادى اما أن يكون مقصودا به شيء معين ، واما أن يكون مقصودا به واحد من أمّة لابعينه ، فاذا قصد به معيّن كالمفرد المعرفة والنكرة المقصودة منع من الألف واللام ، «لأنك أشرت اليه ، وقصدت قصده ، واكتفيت بهذا عن الألف واللام ، وصار كالأسماء التى هى للاشارة ، نحو هذا وما أشبه ذلك ، وصار معرفة بغير الألف واللام ، لأنك انما قصدت قصد شيء بعينه وصار هذا بدلا فى النداء من الألف واللام ، واستغنى به عنهما كما استغنيت بقولك اضرب عن لتضرب ، وكما صار المجرور بدلا من التنوين ، وكما صارت الكاف فى رأيتك بدلا من رأيت اياك ، وانما يدخلون الألف واللام ليعرفوك شيئا بعينه ، وقد رأيته أو سمعت به ، فاذا قصدوا قصد الشيء بعينه دون غيره ، وعنوه ، ولم يجعلوه واحدا من أمّة ، فقد استغنوا عن الألف واللام . فمن ثمّ لم يدخلوها فى هذا ولا فى النداء» (٢٠) .

وان قصد به واحد من أمّة لابعينه ، كالمضاف الى النكرة غير المقصودة لم تدخله الألف واللام ، لأنه نكرة دائما ، ولم يقصدوا فى ندائه الى أن يكون واحدا بعينه .

المنادى المرفوع معرفة

يعنى أن كل اسم فى النداء مبنى على الضم معرفة نحو يا محمد ويا رجل . وقد علل الخليل ذلك بقوله : «لأنك انما قصدت قصد شيء بعينه ، وصار هذا بدلا فى النداء من الألف واللام ، واستغنى به عنهما» .

أراد أن يقول : انك حين تنادى بيا رجل انما تقصد انسانا معينا

(٢٠) الكتاب جـ١ ص ٣١٠ .

تدعوه اليك ، فيكون هذا القصد مخصصا للمنادى المدعو ، كما تكون (أل) مخصصة لما تدخل عليه • أما اذا ناديت مضافا الى نكرة أو نكرة غير مقصودة فالمناديان هنا نكرتان ، لأن القصد فيهما لم يكن كالقصد اذا ناديت شخصا بعينه •

أما قولك : يا ضاربا رجلا ، وهو الذى يسميه النحويون «شبيها بالمضاف» ، فهو عند الخليل معرفة كقولك يا ضاربُ ، ولكن مابال التنوين ظاهرا فيه ، ولم يظهر فى المفرد المعرفة ، ولافى النكرة المقصودة ؟؟•

يجيب الخليل عن هذا بقوله : «ولكنّ التنوين انما يثبت لأنه وسط الاسم ، و (رجلا) من تمام الاسم ، فصار التنوين بمنزلة حرف قبل آخر الاسم ، ألا ترى أنك لو سميت رجلا «خيرا منك» لقلت : ياخيرا منك ، فألزمته التنوين وهو معرفة ، لأن الراء ليست آخر الاسم ولا منتهاه ، فصار بمنزلة (الذى) اذا قلت : هذا الذى فعل ، فكما أن (خيرا منك) لزمه التنوين ، وهو معرفة ، كذلك لزم (ضاربا) ، لأن الباء ليست منتهى الاسم • وانما يحذف التنوين فى النداء من آخر الاسم • فلما لزمت التنوينة وطال الكلام رجع الى أصله» (٢١) •

وأما قولك : يا عبدالله ، ويا أخا محمد ، فالمنادى فيه معرفة ، ولكن تعريفه لم يكن بالنداء ، وانما هو بالاضافة الى المعرفة • فوجود بعض المناديات المنصوبة معرفة يفسر اكتفاءه بقوله : «كل اسم فى النداء مرفوع معرفة» (٢٢) ولم يقل : وكل اسم فى النداء منصوب نكرة ، ولكنه حين أخرج المنادى المضاف الى معرفة ، وما يسمى شبيها بالمضاف نحو ضاربا رجلا ، تأتّى له أصل

---

(٢١) الكتاب جـ١ ص ٣٢٥ •

(٢٢) الكتاب جـ١ ص ٣١٠ •

صحيح ، فقال : «اذا أردت النكرة فوصفت أو لم تصف فهذه منصوبة» (٢٣) .

فالمناديات المعارف عنده هي : المفرد المعرفة ، والنكرة المقصودة والشبيه بالمضاف ، والمضاف الى معرفة .

ولم يسم الخليل المنادى في قولهم «يا رجلُ» نكرة مقصودة ، كما سماه النحاة من بعد ، لأنه عنده معرفة قصد به قصد شيء بعينه ، كما يقصد بالاسم المعرف بأل ، «لأنهم انما يدخلون الألف واللام ليعرفوك شيئا بعينه قد رأيته وسمعت به ، فاذا قصدوا قصد الشيء بعينه دون غيره ، ولم يجعلوه واحدا من أمة فقد استغنوا عن الألف واللام فمن ثم لم يدخلوها في (هـــذا) ولا في النداء» (٢٤) .

الموصوف بالنكرة لايكون الا نكرة

من أساليب العرب ـ كما التفت اليه الخليل ـ اتباع الصفة للموصوف في التعريف والتنكير ، لأنهم ينزلونهما منزلة الكلمة الواحدة ، كما أن مـن أساليبهم اتباعها له في الرفع والنصب والجر ، فيكون لهما جميعا علامة واحدة، فاذا كان الموصوف نكرة كانت الصفة نكرة ، واذا كان الموصوف معرفة كانت الصفة معرفة أيضا . وكان الخليل يقول : «الموصـــوف بالنـكرة لايـكون الا نكرة» (٢٥) .

المضاف الى النكرة لايكون الا نكرة

لأن الغرض من الاضافة تعريف المضاف بالمضاف اليه اذا كان معرفة ، نحو : هذه بنت الفرات ، فبنت كانت نكرة ، ثم عرفت باضافتها الى الفرات وهو

---

(٢٣) المصدر السابق .
(٢٤) المصدر السابق .
(٢٥) الكتاب جـ١ ص ٣٢٥ .

معرفة. أو تخصيصه اذا كان المضاف اليه نكرة، نحو قولك هذه بنت عربي، تريد أنها ليست بنت فارسي ولا بنت تركي.

قال الخليل: «أما قولك يا أخا رجل فلا يكون الأخ ههنا الا نكرة، لأنه مضاف الى نكرة كما أن الموصوف بالنكرة لايكون الا نكرة»[٢٦].

البدل والمبدل منه لايجتمعان

أي أنه اذا كان شيء في كلمة بدلا من شيء فان البدل والمبدل منه لايجتمعان فيها، وقد أشار الخليل الى هذا الأصل في مواضع كثيرة منها:

(الفعل الذي ترك اظهاره)، وهو الفعل المحذوف وجوبا بحيث لايجوز اظهاره في الكلام، ولا يتكلم به الا على نحو التمثيل، كحذف الفعل في المصادر النائبة عنه، كما في قولهم: جهادا أيّها المؤمنون، وصبرا في مجال الموت، وغير ذلك، لأنهما أصبحا كأنهما بدل من جاهدوا واصبروا. وكما في قولهم: له صوت صوتا حسنا، فان (صوتا) مصدر منصوب بفعل لايجوز اظهاره، لأنه أصبح نائبا عنه، فكأنه صار بدلا من (يصوّت).

وكحذف الفعل وجوبا في باب النداء، لأن (يا) أصبحت بدلا من اللفظ بالفعل، وفي باب التحذير لأن (اياك) وأشباهها أصبحت بدلا من اللفظ باحذر وهكذا.

و (حذف التنوين في حال الاضافة)، لأن المضاف اليه عند الخليل بدل من التنوين، فلا يجتمع التنوين والاضافة في الكلمة الواحدة.

و (حذف الألف واللام في النداء)، لأن (قصد الشيء بعينه) قام مقام الألف واللام فلا يجتمعان في النداء.

---

(٢٦) المصدر السابق.

و (عدم اجتماع لام الأمر وصيغة الأمر) ، لأن (اضرب) وما فيها من دلالة على الطلب بدل من (لتضرب) •

و (عدم اجتماع الكاف واياك فى رأيتك) لأن الكاف فيها بدل من اياك •

و (عدم اجتماع «يا») فى النداء مع الميم المشددة فى (اللهم) ، فلا يقال (يا اللهم) لأن هذه الميم عنده عوض من (يا) •

و (عدم اجتماع الميم والواو فى فم) ، فاذا جىء بالواو فى بعض استعمالاتها (كأفواه) وفاه يفوه فوها ذهبت الميم ، وان لم يجأ بالواو جئت بالميم عوضا عنها ، ولن تجد هذه الكلمة وقد اجتمع فيها الميم والواو •

⊙

ومما يوصلنا الى تفهم منهج الخليل فى دراسته أن نعرض لهذه الطريقة التى كان يصطنعها فى دراسته وهى مبينة على الافتراض ، فلم يزل يفترض مسائل لم يرد منها شىء فى كلام العرب لتطبيق الأصول التى استخرجها عليها ، وهو نوع من الاستقراء ، ولكنه استقراء لصور يستخرجها العقل فى ضوء الأساليب ، وحمل لها فى الحكم على ما ورد من كلامهم •

وكأن الفقهاء من ذوى الرأى والقياس قد نهجوا هذا المنهج أيضا ، وكأن الافتراض لازمة للمنهج العقلى الذى سار عليه أبو حنيفة فى الفقه والخليل فى النحو •

والحق أن كلتا المدرستين اجتهادية تعتمد على الرأى والقياس أكثر مما تعتمد على الرواية والنقل ، بل قد لاتعنى بالمرويات وان صح سندها اذا خالفت شيئا من أصولها المقررة •

وقد لانستطيع الجزم بتأثير احداهما بالأخرى فى هذه الطريقة الافتراضية ، كما لم نستطيع الجزم بتأثر احداهما بالأخرى فى تناول القياس ،

وكنا قد استظهرنا أن القياس في النحو والقياس في الفقه سارا في طريقين متوازيين ، نشآ نشأة ساذجة ثم أخذا يتعقدان بعد تنظيم الدراستين تنظيما علميا •

يؤيد هذا أن مدرسة أبي حنيفة ومدرسة الخليل ـ وكلاهما معنيّ بالعقل وأحكامه ـ كانتا متعاصرتين ، وليس بينهما من التفاوت في الزمن ما يحملنا على القول بتأثر احداهما بالأخرى •

ولعل موقف الفقهاء من الرأي والقياس لايخلو من حرج بالقياس الى موقف النحاة من ذلك ، فاذا كان الفقهاء يتحرجون في الاندفاع نحو أحكام العقل اذا عارضها يقين من الكتاب والسنة فان النحويين أكثر حرية وأقوى اندفاعا نحوها ، ولذلك كان النحاة أكثر جرأة من الفقهاء في اهدار كثير من المسائل التي عارضت أصولهم ، وفي عدّها شاذة لايقاس عليها • وموقفهم من بعض القراء السبعة ، وتغليطهم قراءاته شاهد على ما نقول •

ولم تكتف المدرسة القياسية النحوية بتطبيق منهجها على ما ورد من كلام العرب ، وكأنها أرادت أن تستغل ماتوفر لديها من أسبب الاجتهاد والقياس أوسع استغلال ، فأباحت لنفسها اثارة الفروض ، وراحت تفترض حتى البعيد الوقوع الذي لم يطرأ استعماله على بال العرب •

كان الخليل يبدأ اصحابه بالافتراض أحيانا ، فيسألهم عن مسائل لم يرد شيء منها في كلام العرب ، طالبا اليهم أن يطبقوا ماورد له حكم على مالم يرد له حكم •

وكان مما افترضه أن سألهم يوما «كيف تقولون اذا أردتم أن تلفظوا بالكاف في لك ، والكاف في مالك ، والباء في ضرب؟ فقيل له : نقول : باء كاف ••• فقال لهم : انما جئتم بالاسم ، ولم تلفظوا بالحرف • وقال : أقول : كَهْ و بَهْ • فقالوا لِمَ ألحقت الهاء ؟ فقال : رأيتهم قالوا : عِهْ فألحقوا هاءا

حتى صيروها يستطاع الكلام بها ، لأنه لا يلفظ بحرف ، فان وصلت قلت : كَ و بَ فاعلم يا فتى ، كما قالوا : عِ يا فتى . فهذه طريقة كل حرف كان متحركا» (٢٧) .

وكان سيبويه يسأله أحيانا عن مسائل يفترضها ويطلب اليه ارجاعها الى الأصول المقررة ، فقد سأله عن تحقير (نَصَف) – نعت امرأة – فقال الخليل : تحقيرها نُصَيْف ، وذاك لأنه مذكر وصف به مؤنث (٢٨) . وسأله عن رجل سمّى (أنّ) ، فقال : هذا أنٌّ لا أكسره . وقد مر بنا ما كان يسأله عنه من بناء (فُعْل) من وأيت ، فيمن خفف الهمزة ، وفيمن حققها .

ولم يكتف الخليل بافتراض مسائل جديدة ، ولكنه كان يتتبع وجوه المسألة الواحدة محاولا استخراج جميع الصور المحتملة فى المسألة الواحدة ، وهو نوع من التقصى الذى يلازم العقليين ، فلم يزل يقلب المسائل ظهرا لبطن، ويتقصّى وجوهها المقصودة وغير المقصودة ، حتى يطمئنّ الى أنه لم يبق وجه من وجوهها المحتملة الا وله رأى فيه .

وقد سأله سيبويه عن رجل يسمى دهقان ، فقال : «ان سميته من التدهقن فهو مصروف ، وكذلك شيطان ان أخذته من التشيطن ، والنون عندنا فى مثل هذا من نفس الحرف اذا كان له فعل تثبت فيه النون ، وان جعلت دهقان من الدهق ، وشيطان من شيط لم تصرفه» (٢٩) .

وقد ذهب الخليل الى «أنه لايحسن فى الكلام (ان تأتنى لأفعلنّ) من قبل أن (لأفعلنّ) تجيء مبتدأة ، ألا ترى أن الرجل يقول : لأفعلن كذا وكذا، فلو قلت : ان أتيتنى لأكرمنّك ، وان لم تأتنى لاغمنّك ، جاز ، لأنه فى معنى

---

(٢٧) الكتاب جـ٢ ص ٦١ .

(٢٨) الكتاب جـ٢ ص ١٣٧ .

(٢٩) الكتاب جـ٢ ص ١١ .

لئن أتيتنى لأكرمنّك ، ولئن لم تأتنى لاغمنّك • ولا بد من هذه اللام مضمرة أو مظهرة ، لأنها لليمين ، كأنك قلت : والله لئن أتيتنى لأكرمنّك ، فان قلت لئن تفعل لأفعلن قبح ، لأن (لأفعلن) على أول الكلام وقبح فى الكلام أن تعمل (ان) أو شيء من حروف الجزاء فى الأفعال حتى تجزمه فى اللفظ ، ثم لا يكون لها جواب ينجزم بما قبله ، ألا ترى أنك تقول : آتيك ان أتيتنى ، ولا تقول آتيك ان تأتنى ، الا فى شعر ، لأنك أخّرت ان وما عملت فيه ، ولم تجعل لان جوابا ينجزم بما قبله • فهكذا جرى هذا فى كلامهم» (٣٠) •

ولا أريد أن أترك هذا الكلام قبل أن أؤكد مرة أخرى على تذوق الخليل للغة ، وفقهه للأساليب العربية ، وليس أدل على ذلك من تفريقه بين قولهم : (آتيك ان أتيتنى) ، وقولهم (آتيك ان تأتنى) ، فقد حسّن الأول وقبح الثانى ، وقد علله بأن «انْ وأخواتها» اذا جزمت فى اللفظ قبح أن تترك بدون جواب منجزم بما قبله ، كما فى قولك : آتيك ان تأتنى ، ولم يرد مثله الا فى الشعر • وان لم تجزم فى اللفظ كما فى قولك : آتيك ان أتيتنى حسن الاستغناء عن جواب بعدها منجزم بما قبله •

هذا ما علّل به الحسن والقبح فى التعبيرين ، ولكن يخيل الىّ أن يكون الخليل قد التفت الى أدق من ذلك ، التفت الى الفرق المعنوىّ بين التعبيرين • وخلاصة هذا الفرق فيما أرى :

أن آتيك واجبة ، أى أنها واقعة أو منزلة منزلة الواقعة،فان قال آتيك ان أتيتنى حسن الكلام ، لأن (ان أتيتنى) تدل على الوجوب أيضا ، بالرغم من

(٣٠) الكتاب جـ١ ص ٤٣٦ •

وجود أداة الشرط التى تحمل على الشك فى وقوع الشرط ، وذلك لما فى صيغة الماضى من اشعار بالتحقق ، فهو هنا قد علق واجبا على واجب .

وان قال آتيك ان تأتنى لم يحسن الكلام ، لأن (ان تأتنى) لا يدل على ذلك التحقق المستفاد من لفظ الماضى ، وانما اتيان المخاطب هنا مشكوك فيه ، فاذا قال آتيك ان تأتنى فقد علق واجبا على مشكوك فيه ، منصوص على الشك فى تحققه ووقوعه .

ومهما يكن من شىء فهو ـ كما رأيت ـ لم يكتف ببيان وجه واحد بل راح يعرض للأمثلة التى يحتمل أن تعترض المتكلم فى استعماله ، فيذكر حسنها أو قبحها ، ويعلل جوازها أو عدم جوازها ، ولا تعرض لهذا وأمثاله الا عقلية وقفت على دقائق الأساليب كعقلية الخليل .

(٢)

فكرة العامل فى النحو

رأى الخليل وهو يتذوق الحروف ، ويحدد مخارجها ، ويرقب تألف بعضها مع بعض أن لبعض هذه الحروف انسجاما وائتلافا مع بعض ، وتنافرا مع بعض ، وأن الموسيقى اللفظية لاتتأتى الا اذا كانت الحروف متألفة على نظام خاص • وقد اجمل حدود هذا النظام بألا تكون من مخرج واحد ، أو من مخارج متقاربة ، فثقيل على اللسان أن ينطلق بكلمات مؤلفة من أصوات متماثلة المخارج ، أو متقاربة المخارج ، واذا استساغ العربى أن يأتى بحرفين متعاقبين من مخرج واحد فان ذلك يكون فى الأحياز القادرة على تأدية أعمالها فى سهولة ويسر ، لمرونة عضلها ، ولا يكون ذلك فى عضل الحلق ، لعدم مرونتها ، فحروف الحلق اذن أقل الحروف تمازجا وانسجاما ، ولذلك جاء عنه : «سمعنا كلمة شنعاء فأنكرنا تأليفها» ، يعنى الهعخع ، وجاء عنه : «أن القاف والكاف تأليفهما معقوم» ، وغير ذلك مما يوضح لنا حسّه اللغوى •

فلابد لكى يستقيم الجرس الموسيقى أن تتألف الكلمات من أصوات متباعدة ، وقد أخذ فقهاء اللغة هذه الفكرة عن الخليل ، ولكنّ بعضهم غلا فعدّ تباعد المخارج شرطا فى فصاحة الكلمة •

ويرى المحدثون أن اللغة العربية فى تركيب أحرف كلماتها ، وتآلف أصواتها تصطنع لنفسها أسلوبا خاصا ، وتتخذ نهجا تتميز به ، وخلاصة هذا الاسلوب تنبنى على :

(١) ندرة تلاقى أصوات الحلق •

(٢) وندرة تلاقى الأحرف المتقاربة المخارج والصفات •[١]

وكلاهما مما التفت الخليل اليه •

ورأى الخليل ، وهو يرصد تمازج الحروف ، أن لبعضها تأثيرا فى بعض ، بل تأثيرا فى بناء الكلمة ، كما سبق أن أشرنا اليه ، من أنه ليس من كلامهم بناء ذو أربعة أحرف أو خمسة أحرف خال من أحد حروف الذلاقة الستة ، وهى الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، فلهذه الحروف الستة تأثير فى تخفيف هذه الابنية الثقيلة بكثرة حروفها •

ولاحظ أن بعض الحروف أقوى من بعض [٢] ، وأن للقوى تأثيرا فى فى الضعيف ، ولذلك كانوا يقدمون القوىّ اذا اجتمع بضعيف فى كلمة واحدة ، كما فى مثل : أهل وعهد ووتد وورل •

وقد يؤثر القوى فى الضعيف ، فيزحزحه الى مثل مخرجه ، ليكون عمل اللسان فى الحرفين واحدا ، وليتحقق الانسجام الموسيقى للكلمة ، كقلب السين صادا اذا وقعت بعدها قاف ، نحو صبقت والصويق ، وقد ينقله الى مخرجه حتى يكون الحرفان متماثلين ليكون عمل اللسان فيهما واحدا أيضا ، كما اذا اجتمع واو وياء ، وكانت الأولى منهما ساكنة ، فان الواو تنقلب ياءا تقدمت على الياء نحو (الطىّ) أو تأخرت عنها نحو (الحىّ) •

وكما اذا التقت لام (أل) بأحد الحروف الشمسية ، فان اللام تنقلب الى جنس مايليها من هذه الحروف ، فتقلب تاءا اذا كان بعدها تاء ، وتقلب

---

(١) موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم أنيس ص ٢٤ •

(٢) كنا قد عرضنا لفكرة القوة والضعف بين الحروف ، الفكرة التى صرح بها ابن جنى ، وقد ناقشناها ، وقلنا لانستطيع متابعة القدماء فى وصف بعض الحروف بالقوة ، وبعضها الاخر بالضعف ، وحملنا ذلك على ما لاحظه الخليل من ميل العرب الى الاقتصاد فىالجهد العضلى ، وتحقيق الانسجام الموسيقى •

صادا اذا كان بعدها صاد ، وتقلب طاءا اذا كان بعدها طاء ، وهكذا ، ليكون عمل اللسان فى الحرفين واحدا وليتحقق الانسجام الموسيقى •

ورفع الخليل بهذا ونحوه الستار عن كثير من الظواهر اللغوية المبنية على هذه الأحكام الصوتية ، فادركنا وجود هذه الظاهرة التى سماها الادغام ، وأدركنا لمَ وجد الابدال ، ولمَ وجد الاعلال ، ولمَ وجدت ظواهر أخرى خاضعة لمثل هذه الاعتبارات الصوتية ، كالاتباع والقلب وغيرهما •

وأبعد الخليل فى هذه الملاحظة ، فوجد أن لبعض الحركات تأثيرا فى بعض • ألم تكن الحركات أبعاض حروف ، فالضمة واو قصيرة ، والفتحة الف قصيرة ، والكسرة ياء قصيرة ، فلبعضها تأثير فى بعض ، كما لبعض أصولها تأثير فى بعض ، ومن هنا نفهم حركة الاتباع فى الاعراب ، كما فى قراءة «الحمدِ لله» وكما فى قولهم : «هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ» •

وليس للحركات حرية التآلف كيفما اتفق وضعها وتأليفها ، فانها مفيدة بالموسيقى الكلامية المستخلصة من طبيعة العرب العامة فى كلامهم ، فلم يألف العرب اجتماع أربع حركات متواليات فى كلمة واحدة ، الا اذا كان فى الكلمة حذف كما فى نحو عُلَبِط ، ولذلك سكن آخر الفعل الماضى الثلاثى اذا اتصل به الضمير المرفوع المتحرك ، نحو خَرَجْتُ و ذَهَبْتُ •

وقد تلى الكسرة ضمة ، ويكون ذلك مقبولا مستساغا ، نحو ضُرِبَ وأُخِذَ ولكن الكسرة لاتليها ضمة ، لأنه ليس مقبولا ولا مألوفا ، فلم يكن فى كلامهم نحو ضِرُبَ •

على أن للحركات أثرا لاينكر فى صميم المعانى التى تتضمنها الكلمات ، فمادة (ك ت ب) مثلا لامعنى لها ، بل لايمكن النطق بها دون أن تتدخل فى ذلك حروف المدّ أو أبعاضها ، فاذا حركت هذه الأصوات بالحركات ، أو فصلت بحروف المدّ أمكن النطق بها ، وظهرت دلالتها على معنى ، واذا خولف

بين الحركات تغيّر المعنى تبعا لتغيّر الحركات ، فكَتَبَ مثلا بثلاث فتحات ، غير كُتِبَ بضمة فكسرة ففتحة ، وغير كَتْب بفتحة فسكون فحركة أخرى .

وبعد أن لاحظ وجود هذا التفاعل بين الحروف والحركات أخذ يبحث عنه فى الكلمات حين يتألف بعضها مع بعض ، ولم يكن ليدرس الحروف الا على أنها مقدمة طبيعية لدراسة الكلمات ، أو لدراسة تأليف الكلام منها .

فرأى وهو يرصد تأليف الكلمات أن لبعضها تأثيرا فى بعض أيضا بحسب ما لها من معنى ، (فالى) مثلا لها تأثير فيما بعدها اذا أُلّفت كما تؤلف فى نحو «سرت الى المدينة» . و (لم) لها تأثير فيما تدخل عليه ، نحو (لم يسافرْ ولم يكتبْ) ، وكسر لها تأثير فى القلم فى نحو كسر محمد القلم .

ولاحظ وهو يقلب هذه التعبيرات أن حركة (القلم) تتغير اذا تغيّرت حركات الفعل ، فاذا قيل (كُسِرَ القلمُ) تغيرت حركة الميم من فتح الى ضمّ ، ثم لاحظ أن هذا التغير انما يصيب أواخر الكلمات ، فقرر أن الاعراب انما يظهر فى أواخرها .

وفطن أن كثيرا من الأبنية اذا ألفت ، وتعرضت لمثل ما تعرض له غيرها لم تتغير ، بل بقيت على حالها قبل التأليف .

وتتبع الكلمات راصدا استعمالاتها المختلفة ، ومراقبا ما يطرأ عليها من تغيّر ، فأدرك أن بعض الكلمات يلزم حالة واحدة ، وبعضها يتغيّر بتغيّر التراكيب . وكان الأول هو المبنى ، والثانى هو المعرب ، لاعرابه عن المعانى المختلفة التى يتعرض لها فى التأليف .

وانفتح المجال أمامه لدراسة جديدة ، ليس موضوعها الصوت ومدرجته ، ولا الكلمة وبناءها ، وميزانها ، وما يعرض لها من تغيير فى أصول بنائها ، وانما موضوعها تغيّر أواخرها بحسب مواقعها من الكلام ... هذه الدراسة الجديدة هى الاعراب أو النحو بمعناه الخاص .

وعماد هذه الدراسة هو البحث عن هذه الوجوه المختلفة والمؤثرات التى دعت الى هذا التغيّر الذى طرأ على أواخر جانب كبير من الكلمات ، أو نقول ان عماد هذه الدراسة ـ فى تقدير الدارسين اليوم على الأقل ـ هو البحث عن العوامل فى النحو • ومن أجل أن عماد هذه الدراسة هو البحث عن المؤثرات كان الاندفاع نحو فكرة العامل ، ووضع العامل فى مقدمة الاعتبارات ، أو فى مقدمة الأسس التى انبنت عليها هذه الدراسة •

وأكبر الظن أن الذى استظهرناه من الخطوات التى سار عليها الخليل هو الثغرة التى نفذ منها الخليل الى قضية العامل فى النحو ، ففكرة العامل جاءته ـ فى أغلب الظن ـ من ملاحظته ذلك التفاعل بين الحروف والحركات والكلمات ، مما جعله يطمئن الى أن هذه الظواهر اللغوية سواء أكان منها ما يتصل بالبناء أم ما يتصل بحركات أواخر الكلمات ، ترجع الى هذا التأثير الكامن فى طبيعة الحروف والكلمات •

وعلى هذا فلا ينبغى للدارس أن يتساءل عن هذا الاندفاع نحو فكرة العامل ، أو يستفسر عن الدافع الذى دفع الخليل الى البحث فيه وآثاره • كذلك لاينبغى أن نتوجه باللوم الى الخليل ، لأنه لم يجعل المتكلم هو المرجع الأول فى هذه التفاعلات الصوتية والعمليات الكلامية ، كما كان ذلك عند ابن جنى فى الخصائص ، والرضىّ فى شرح الكافية ، وابن مضاء القرطبى فى الرد على النحاة ، وأستاذنا فى احياء النحو ، أو لأنه وقف عند هذا الحدّ ، ودفع الدارسين الى هذه المشكلة ـ مشكلة العامل ـ التى أحالت النحو الى علم نظرىّ ، بينما هو بطبيعته ، أو بما ينبغى أن يكون عليه ـ بعيد عن ان يكون كذلك •

لاينبغى أن يلام الخليل على ذلك فليس من ذنبه هو أن يستغل النحاة المتأخرون الفلسفة الى أبعد حدود الاستغلال ، ويفتحوا السبيل لها لغزو

المباحث النحوية ، وليس من ذنبه هو ألا يفهموا قصده ، أو يعجزوا عن أن ينهجوا فى دراسة اللغة والنحو نهجه .

لم يتهيأ للنحو أمثال الخليل ، فقد أصبح أكثر دارسيه من الأعاجم الذين شعروا بالحاجة الى دراسته لتصحيح كلامهم ، وصون ألسنتهم من اللحْن ، وأخذوا يدرسونه على أنه مجموعة من الأصول والقواعد ، أضفوا عليها العموم الكامل ، وقاسوها بمقاييس عقلية بحتة ، ولو أنصفوا لرأوا أن النحو علم التأليف ، والتأليف لايقاس بمقاييس فلسفية بحتة ، لأنه يرجع الى اعتبارات بيئية طبيعية ، والى عادات اجتماعية وظواهر نفسية ، والى اعتبارات أخرى تتعلق بطبيعة الجماعة التى ينسب اليها هذا التأليف .

وهذا هو الذى يهيب بالدارسين أن يدعوا الى دراسة النحو من أوله ، وأن يتبع الدارسون تلك الخطوات التى خطاها النحاة الأولون ، فلم يعد النحو الآن وبعد أن غزت الفلسفة فصوله وأبوابه أداة لفهم النصوص الواردة فى الكتاب ، وفى الشعر العربى ، ووسيلة له ، كما ينبغى أن يكون ، بل أصبح مجموعة من المسائل المفلسفة التى افترضها الفلاسفة النحاة ، وأصبح أداة لفهم أمثلة وفروض وضعها هؤلاء الدارسون الفلاسفة ، وفرق بعيد بين الغاية التى هدف اليها النحاة الأولون ، والنتيجة التى انتهى اليها النحاة المتأخرون ، أو بين النحو الذى رسمت حدوده فى القرن الثانى ، والنحو الذى سار عليه النحاة فى القرون المتأخرة .

صحيح أن الخليل كان يهدف الى تنظيم هذه الدراسة ، والى ادخالها فى جملة الدراسات العلمية ذوات القواعد والأصول العامة ، فان لم تكنها تماما فأشبه ما تكون بها ، كما تدل عليه أقواله التى كان يرسلها على أنها أحكام عامة وقوانين عامة ، كقوله : «ليس فى الدنيا حرف تلحقه الاضافة الا كان

متحركا مكسورا» ، وكقوله : الموصوف بالنكرة نكرة والمضاف الى النكرة نكرة ، ونحو ذلك •

وصحيح أنه كان يعنى بتلك الأصول ، وينسب المسائل التى لاتنطبق عليها هذه الأصول الى الشذوذ ، الا أنه لم يتنكر للطبيعة اللغوية ، ولم يتغافل عنها ، فلو تتبعت كلامه لوجدته واضعا ذلك نصب عينيه ، لم يقرر شيئا الا فى ضوئه ، ولم يستخرج أصلا الا وهو يتصل بسبب منه • وفى اللغة من الظواهر العامة ما يصلح لأن تكون أصولا عامة أو شبه عامة ، وهذه الظواهر اللغوية العامة هى التى كان الخليل ينشد الوصول اليها ، ويعنى بتفسيرها •

ويظهر ذلك من قياسات الخليل وتعليلاته • فمن رأى الخليل أنه ليس من كلامهم أن تلتقى همزتان فتحققا ، لأنهم يستثقلون اجتماع الهمزتين ، ومذهبه فى ذلك أنه اذا التقت همزتان ، كل واحدة منهما فى كلمة ، حققت الأولى وخففت الآخرة ، نحو قوله تعالى : فقد جاء اشراطها • وقد سأله سيبويه عن ترجيحه تخفيف الثانية ، مع أن أبا عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة كان يقرؤها بتخفيف الأولى ، وتحقيق الآخرة ، فقال : «انى رأيتهم حين أرادوا احدى الهمزتين اللتين تلتقيان فى كلمة واحدة أبدلوا الآخرة ، وذلك جاء وآدم» (٣) •

فهو هنا قاس اجتماع الهمزتين ، كل واحدة منهما فى كلمة ، على اجتماعهما فى كلمة واحدة • وقياسه هذا صحيح يستند الى سليقة أغلب العرب فى كلامهم ، فى معاملتهم الهمزة الثانية اذا اجتمعت همزتان فى كلمة واحدة ، لأن الملاك فيه هو اجتماع الهمزتين ، واستثقال العرب اياهما ، فالثقل الحاصل من الهمزتين هو هو سواء أكانتا فى كلمتين أم فى كلمة واحدة •

---

(٣) الكتاب جـ٢ ص ١٦٧ •

وليس أدل على ما نريد تقريره من أن الخليل فى قياسه وتعليلاته صادر عن ادراكه الطبيعة اللغوية ، وأنه لم يكن ليتحكم فى هذه الطبيعة ، أو يحاول اخضاعها لأصوله .... مما جاء فى الاقتراح ، مما رواه السيوطى عن بعض شيوخه من «أن الخليل بن أحمد سئل عن العلل التى يعتل بها فى النحو ، فقيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : ان العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامهم ، وقامت فى عقولها علله ، وان لم ينقل ذلك عنها ، وعللت أنا بما عندى أنه علّة لما عللته منه ، فان أكن أصبت العلة فهو الذى التمست ، وان يكن هناك علة غير ما ذكرت فالذى ذكرته محتمل أن يكون علّة . ومثَلى فى ذلك مَثَل حكيم دخل دارا محكمة البناء ، عجيبة النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق ، والبراهين الواضحة ، والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل الداخل على شىء منها ، قال : انما فعل هذا هكذا ، لعلة وسبب كذا ، لعلة سنحت له ، وخطرت ، محتملة أن تكون علة ذلك ، فجائز أن يكون الحكيم البانى للدار فعل ذلك للعلة التى ذكرها هذا الذى دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، الا أن ماذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة كذلك ، فان سنحت لغيرى علة لما علمته من النحو هى أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها » (٤) .

ولست أقصد الى أن أجنب الخليل التأثر بالفلسفة الكلامية والمنهج الكلامى ، لأن الخليل كان من أصحاب الكلام ، وله أقوال جاءت على لسان تلميذه فيها ظلال للفلسفة ، ولكنى بصدد الزعم بأن الخليل التفت الى فكرة العامل فى أثناء تذوقه الحروف ، ورصده الكلمات فى ثنايا الجمل ، أما تسمية المؤثر عاملا والمؤثر فيه معمولا ، وأمثال هذه من الأوضاع والمصطلحات فليس

(٤) الاقتراح للسيوطى ص ٥٧ ، ٥٨ «طبع الهند» .

بعيدا أن يكون من آثار الفلسفة الكلامية ، أو من الأوضاع التى عرفت عند المتكلمين .

ولم يتقمص العامل النحوى صفات العلة الا بعد أن طغى المنهج الفلسفى على الدراسات ، وراق الدارسين ، وذلك فى أكبر الظن بعد شيوع الترجمة واقبال الدارسين على الفلسفة وفروعها المختلفة .

راقهم المنهج الفلسفى أو اضطروا اليه ، لأنه كان المنهج المألوف والطريقة المتبعة لدى المفكرين والدارسين ، فتأثروا به تأثرا كبيرا يدل عليه كلامهم فى عوامل النحو ، فلم ينظروا الى العامل وعمله كما كان الخليل ينظر اليـــه ، فنظرة الخليل اليه كانت فى ضوء تذوقه الحروف ومراقبته الكلمات فى ثنايا التأليف ، وملاحظته التفاعلات اللغوية بين الأصوات والكلمات . أما الآخرون فكانت نظرتهم اليه فى ضوء التفكير الفلسفى المجرد ، فأصبح عندهم مـــن المعمول بمنزلة العلة من المعلول . أخذوه من كلام المتكلمين فى العلة والمعلول والسبب والمسبب ، وأصبح العامل فى النحو كالعلة فى الكلام ، وخصائصه هنا هى خصائصها هناك ، فاذا لم يجز عقلا أن تجتمع علتان على معمول واحد، واذا تنازعتاه فهو لاحداهما ، لم يجز عقلا أيضا أن يجتمع عاملان على معمـــول واحد ، واذا اجتمعا وتنازعا معمولا واحدا فهو لأحدهما فقط ، كما قال ابن مالك :

ان عاملان اقتضيا فى اسم عمل   قبلُ فللو احد منهما العمل

ومن هنا نشأ فى النحو باب يسمونه باب التنازع ، وهو مبنى على اجتماع عاملين يتنازعان معمولا واحدا ، كقولهم : «أكرمنى وأكرمت زيدا» ، فههنـــا عاملان ، وهما «أكرمنى وأكرمت» ، وقد تنازعا معمولا واحدا هـــو (زيد) ، أحدهما يقتضى رفعه ، وهو الأول ، والثانى يقتضى نصبه ، وهو الثـــانى ،

ولا يجوز أن يكون معمولا لهما جميعا ، فيكون مرفوعا ومنصوبا فى آن واحد، لأن الضدين لايجتمعان ، فلابد أن يختص به أحد العامين .

وقد اتفق النحاة على أن هذا المعمول المتنازع انما هو لأحدهما ، ولا يجوز أن يكون لهما جميعا ، لما فى ذلك من استحالة . واختلفوا فى الحاقه بأحد العاملين ، فالكوفيون يرجحون اعمال الأول مع تجويزهم اعمال الثانى ، والبصريون يرجحون اعمال الثانى مع تجويزهم اعمال الأول ، ولكل من الفريقين وجهة نظر . فالكوفيون يلحقونه بالأول ، لسبقه ، والبصريون يلحقونه بالثانى ، لقربه .

الا الفراء ، فانه أجاز أن يكون العاملان يشتركان فى المعمول اذا اتفقا فى نوع الاقتضاء ، كأنْ يقتضى كلاهما الرفع مثلا ، وجوّز أن يكون الاسم الواحد فاعلا للفعلين ، ولكنّ جمهور النحاة من البصريين والكوفيين لم يرتضوا رأى الفراء ، «لأن اجتماع المؤثرين التامّين على أثر واحد مدلول على فساده فى الأصول» (٥) ، لأنهم كانوا يجرون العوامل النحوية مجرى العلل الحقيقية ، ونسوا ما بين الطبيعة الفلسفية والطبيعة النحوية من فروق والاختلافات .

أما الخليل فلا أعلم له رأيا فى هذا ، اللهم الا ماذكره سيبويه فى الباب الذى عقده لهذه المسألة ، وهو «باب الفاعلَيْن والمفعولَيْن اللذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذى يفعل به ، وما كان نحو ذلك ، وهو قولك : ضربت وضربنى زيد ، وضربنى وضربت زيدا» (٦) ، لم ينقل فيه عن الخليل شيئا . وقد عرض سيبويه للمسألة كما عرض لها غيره ، الا أنه عرض لها فى ضوء الأمثلة المختلفة فى استعمالاتهم ، كما فعل فى قياسه هذا المثال على

---

(٥) شرح الرضى على الكافية جـ١ ص ٧٩ .

(٦) الكتاب جـ١ ص ٣٧ .

قولهم : «خشنت بصدره وصدر زيد» ، من حمل (صدر زيد) على الباء لقربها منه ، وترك اعتبار النصب الذى يقتضيه الفعل لعلم المخاطب ، وحمل حذف المعمول من الفعل الأول على حذفه فى أمثلة كثيرة ، جاءت فى الكتاب وفى الشعر العربى كثيرا ، كقوله تعالى «والذاكرين الله كثيرا ، والذاكرات ، والحافظين فروجهم والحافظات» ، وكقول العربى :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

وكقول الآخر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله　　فانى وقيارا بها لغريب

وأنت تلحظ ما فى كلام سيبويه ، وقياسه قولهم «ضربنى وضربت زيدا» على أمثلة كثيرة مشابهة وردت فى الكتاب والشعر العربى الصحيح ، من حرص على تأييد قياسه باستعمالات عربية صحيحة ، ومن محافظة على روح الأسلوب العربى فى هذه المسألة التى خلصت عند المتأخرين عنه للتفكير الفلسفى المحض .



والحق أن الدراسة النحوية فى عهدها الأول ، أو فى عهد الخليل ، وان نالها شىء من التأثر بالفلسفة الكلامية ، كانت صبغتها الغالبة عليها لغوية ، ولم تتجرد للفلسفة لتطغى عليها الا بعد حين .

ويرجع هذا الى أن الدراسة الطاغية فى ذلك العهد هى دراسة القرآن واللغة والادب . أما الفلسفات فلم يكن منها الا بوادر ومقدمات ، لم تستطع التغلب على روح الدراسة ، وعلى مافى الحركة الأدبية من قوة .

الخاتمة

ظهر مما تقدم أن النحو كان فى بادىء الأمر وليد التفكير فى القرآن ، والعمل على صيانته من الأخطار ، التى كانت تهدده بسبب اختلاط العرب بالأجانب فى أمصار العراق • ثم استغله الأجانب ، فأقبلوا عليه ، واستفادوا منه ، لأنه كان يحقق لهم حاجتهم لحياة مستقرة فى ظل دولة عربية مسلمة•

ورأينا كيف تشعبت الدراسة القرآنية ، وكيف انتهى العلماء الى أن يتناولوا الجانب اللغوى من القرآن ، وكيف تطورت دراسة الجانب اللغوى من النقط الذى اصطنعه أبو الأسود الى بحث فى التأليف بحثا يتناول الكلمة ، من حيث أصولها ، ومن حيث بناؤها ، ومن حيث اعرابها •

وكان الباحثون فى النحو من النحاة القدماء هم المعنيين بالقرآن ، وكان هؤلاء يدرسونه على أنه أداة لتصحيح لغة القرآن ، حتى جاء الخليل ، فانفصلت الدراسة النحوية عن الدراسة القرآنية ، وأخذ يعنى بالنحو لذاته ، وكان فى الوقت نفسه يحقق ماكان يرمى اليه المعنيون بدراسة القرآن ، أو بتعبير آخر ، أصبح تصحيح القراءات غرضا من أغراضه •

وقام هو أيضا بأعمال قرآنية كانت متممة لما قام به العلماء الذين عنوا بدراسة القرآن ، ولكنه لم ير رأيهم فى ربط دراسة اللغة والنحو بدراسة القرآن ، ولذلك كان له من الحرية مالم يكن لمن سبقه •

واذا كان الدارسون فى عهده أحرارا ومحافظين ، فقد كان هو زعيم الأحرار من اللغويين ، وكان اخضاعه هذه الدراسة للرأى والاجتهاد ، ولقوانين لغوية عامة ، ومعالجتها كما يعالج العالم الطبيعى موضوعه ، تحديا

للمحدثين والقراء ، وخروجا على المنهج الذى ساروا عليه ، وترخصا فيما اعتدّ به هؤلاء من أخبار الآحاد ، ووضع الرواية فوق كل اعتبار .

كان الخليل طرازا جديدا من الدارسين ، ألمّ بما عرف حوله من ثقافات لابد أن يلمّ بها رجل مثقف ، ألم بالموسيقى لا للمتعة واللذاذة ، فلم يعرف عنه أنه كان يختلف الى مجالس اللهو ، أو يستمع الى الغناء ، بل لاستخدامها فى فهم دقائق اللغة التى كان يرى أنها مجموعة من الأصوات الموسيقية . وألمّ بالكلام ، فأفاد من منهجه الذى كان أمينا على تطبيقه ، وتعميمه فى الدراسة اللغوية وآب من كل ذلك بنتائج عظيمة جدا ، اذا قيست بالنتائج التى وعاها تاريخ العربية فى القرنين الأولين .

وبأعمال الخليل ، وسلوكه هذا المسلك الجديد قامت فى البيئة البصرية مدرسة لغوية نحوية جديدة ، من أغراضها تقعيد القواعد واستخراج الأصول ، ومن أدواتها التى استعانت بها على تلك الأغراض ، القياس والتجربة ، فلم تعد اللغة والنحو مجموعات من المرويات يتناقلها الخلف عن السلف ، أو أشتاتا من المسائل لاينتظمها رابط عام ، بل عادت مجموعة من الأصول العامة ، كل أصل منها يضم اليه جملة من المسائل والجزئيات التى تشترك فى الخصائص والصفات .

كانت هذه المدرسة تستقرىء وتجرب ، وتربط بين المسائل المتفرقة بمفاهيم عامة مستخلصة منها ، وتقيس بعضها على بعض ، ومالم يرد له نصّ على ماورد له نصّ ، حتى تصل الى أحكام عامة ، وأصول شاملة .

أما التجربة فقد وجدنا أثرها فى دراسة الخليل للحروف والكلمات والجمل ، وعرفنا كيف كان يخضع الحروف لتجاربه ومحاكماته ، وكيف استطاع أن يحدد عدد أصولها ، ويقف على أحكام أوائلها وأواخرها ، وأساليب العرب فى الابتداء بها والانتهاء منها ، واستطاع أن يتذوق دلالتها على

معانيها ، وأن يحسّ بالصلة بين الألفاظ والمعانى ، وأن يقف على كثير من أسرارها ، ويفقه كثيرا من ظواهرها •

وأبعد فى استقرائها حتى استطاع أن يحصر القوالب التى صيغت فيها ، أو الأوزان التى بنيت عليها ، وكان ينهج فى دراسته هذه نهجا قويما ، بنيت قواعده على تفقه فى اللغة ، وادراك للطبيعة اللغوية العامة •

وأما القياس فكان الخليل يعده أصلا من أصول النحو ، كما كان الفقهاء من أهل الرأى والاجتهاد يعدونه أصلا من أصول الفقه ، وكان الخليل لايستغنى عنه كلما عرض لمسألة ، أو درس موضوعا ، ولكن قياسه فى أكثر المواضع ملاحظ فيه طبيعة الأساليب العربية ، وطريقة العرب العامة فى صوغ قوالب الألفاظ ، وبناء الجمل ، فلم يكن قياسه عقليا بحتا ، كأنه كان يدرك فى أعماق نفسه أن طبيعة اللغة تختلف عن طبيعة العلوم ، فلا تنطبق القاعدة النحوية على مسائلها انطباق القاعدة العقلية على جزئياتها •

ومن هنا كان قياس الخليل لايخلو من كونه لغويا ، لأنه اذا استعان بالقياس فانما يستعين به ضمن حدود اللغة ، بحيث لايفرض جديدا على الأصول المستنبطة من الطبيعة اللغوية •

وهو اذا قاس أو علل فانما يقيس أو يعلل فى هدى ما أحسّ به من خصائص ، وما أدركه من دقائق وأسرار ، وقد رأيتَ معى كيف قاس «كَهْ و بَهْ» اذا لفظ بالكاف والباء من (مالك وضرب) ، فى الحاق هاء السكت بهما فى الوقف ، وتركها فى الوصل ــ على قول العرب (عِهْ) فى الوقف ، و (عِ ياقتى) فى الوصل •

ورأيت كيف أنه لم يستعمل (فو) اذا سمّى به استعمال (ذو) وغيرها من الكلمات الثنائية بتشديد الحرف الثانى ، لأن العرب كما كان يقول ، قد كفته أمر هذا ، لأنها كانت تقول فيه اذا أفردته : (فم) ، فهو مهما يبالغ فى

اصطناع القياس لم يجز لنفسه أن يخرج عن النطاق المرسوم للغة العرب .

يؤيد هذا ما رواه الأصمعى عنه . قال الأصمعى : «قال لى الخليل : أنشدنا رجل : «ترافع العز بنا فارفنععا» . فقلت هذا لايكون . فقال : وكيف جاز للعجاج أن يقول : (تقاعس العز بنا فاقعنسسا) » .(١)

وكان مقتضى القياس أن يصحح قوله (فارفنععا) ، لو كان الخليل من الذين يغالون بالقياس حتى يخرج بهم عن الحدود المرسومة ، ولكن قياس الخليل لم يكن بهذا الاتساع الذى قد يخرج به عن حدود ما تذوقه العرب وألفوه كما ظن المنشد .

ولعل مارواه الأصمعى عن الخليل هو الذى دفع الأستاذ أحمد أمين الى أن يضع الخليل فى فريق المحافظين من الدارسين الذين كانوا يلتزمون ما ورد فى اللغة ، ولا يخرجون عنه بحال من الأحوال ، لأنه أنكر بناء افعنلل من رفع ، وأبى قياسها على (اقعنسس) فى قول العجاج المذكور (٢) .

وفات الأستاذ أن الخليل لم يكن من أصحاب القياس الذين يبنون أحكامهم على مقاييس عقلية بحتة ، فالخليل لم يعترض عليه لأنه قاس صيغة على صيغة ، كيف وعلمه فى النحو مبنى على القياس ، بل اعترض عليه لأن قياسه فى نظره باطل ، لأنه لم يراع فيه الطبيعة اللغوية ، وهو يرى أن حروف الحلق أقل الحروف اجتماعا وتآلفا ، لعدم مرونة عضله ، فكيف اذن لو كرر حرف منها على غير سبيل الادغام ، كما فعل المنشد فى (ارفنععا) ؟؟ لاشك أن الخليل قد شعر بالثقل الذى كان العربىّ ينفر منه ، ولا يبنى كلامه على شىء

---

(١) الخصائص لابن جنى جـ١ ص ٣٦٦ .

(٢) محاضرة الاستاذ عن (مدرسة القياس) ، فى مجمع فؤاد للغة العربية ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ص ٣ .

منه ، كما شعر بالثقل في كلمة «الهعخع» ، ووصفها بأنها كلمة شنعاء ، وأنكر تأليفها .

وكان أبو الفتح ابن جني قد التفت الى هذا ، فكان يقول ـ بعد أن عرض لرواية الأصمعي هذه ـ : «ان قيل فقد منع الخليل لما أنشد «ترافع العز بنا فارفنععا» ، قياسا على قول العجاج «تقاعس العز بنا فاقعنسسا» فدل على امتناع القياس في مثل هذه الأبنية . فالجواب أنه انما أنكر ذلك ، لأنه فيما لامه حرف حلقي ، والعرب لم تبن هذا المثال مما لامه حرف حلقي ، خصوصا وحرف الحلق فيه متكرر ، وذلك مستنكر عندهم مستثقل»(٣) .

ومهما يكن من شيء فلا يصح اغفال الخليل في معرض الكلام على القياس والقياسيين ، كما فعل الأستاذ ، فاذا كان أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني من أعلام هذه المدرسة ، فأعلام هذه المدرسة كانوا مسبوقين بمدرسة الخليل ، واذا أرّخ القياس ومدرسته بوصفه أصلا دراسيا فينبغي ـ فيما أرى ـ أن يؤرّخ بالخليل ومدرسته .

وقياس الخليل مبني على التشابه بين المقيس والمقيس عليه ، سواء أكان التشابه من جهة اللفظ أم من جهة الاعراب ، فهو تارة يقيس لفظا على لفظ ، وتارة يقيس اعرابا على اعراب ، وتارة يقيس أصلا على أصل ، لاشتراكهما في الغاية والغرض ، الى غير ذلك من المسائل التي تشترك في بعض المزايا والخصائص .

فمن الأول : ما رأيناه من قياس (كَهْ و بَهْ) ، و (كَ و بَ فاعلم يا فتى) ، على (عِهْ و عِ يا فتى) ، ووجه القياس في هذا ما وجده من تشابه لفظيّ ، لأن كلا منهما على حرف واحد ، وهذا ما لم يألفه العرب ، أو هو

---

(٣) الخصائص لابن جني جـ١ ص ٣٦٦ .

ما استثقلوه ، لأنهم كانوا يستروحون الى مدّ آخر الكلمة فى الوقف .

وما ذهب اليه من الحاق الهمزة بأبْ وأى وأد ، اذا أريد التلفظ بباء (اضرب) ، وياء (غلامى) ، ودال (قد) السواكن ، قياسا على الحاق العرب اياها بالكلمات المبدوءة بحرف ساكن ، نحو قولهم : ابن واسم ، فقد ألحقت بهما ألف الوصل ، للتوصل الى النطق بالساكن . (٤)

ومن الثانى : قياس عمل اسم الفاعل فى المضاف الى مافيه الألف واللام على عمل الصفة المشبهة باسم الفاعل المضافة الى مافيه الألف واللام . قال الخليل : «وينبغى فى قياس من قال : الضارب الرجل ، أن يقول الضارب أخى الرجل ، كما يقول الحسن الأخ والحسن وجه الأخ»(٥) .

وقياس الجزم فى (أكن) فى قوله تعالى : فأصّدّق وأكنْ ، على جر (سابق) فى قول زهير :

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

فقد لاحظ أن فى كلّ منهما عطفا على مالم يشركه فى أعرابه لفظا ، ولكنه بناه على التوهم ، فجزم الفعل فى الآية ، على توهم أن ماقبله يجىء مجزوما ، وجر (سابق) فى البيت على توهم أن ما قبله قد دخله حرف الجر الذى يكثر دخوله على خبر ليس .

ومن الثالث : قياس تنكير المضاف الى نكرة على تنكير الموصوف بالنكرة، لاشتراكهما فى غرض واحد ، وهو أن كلا من الاضافة والصفة انما يقصد به الى تعريف المضاف والموصوف ، أو تخصيصهما ، فلما اشتركا فى القصد حمل أحدهما على الآخر ، فقد قال : « وأما قولك يا أخا رجل ، فلا يكون

---

(٤) الكتاب جـ٢ ص ٩٩ .

(٥) الكتاب جـ١ ص ٩٩ .

الأخ ههنا الا نكرة ، لأنه مضاف الى نكرة ، كما أن الموصوف بالنكرة لايكون الا نكرة » (٦) .

ومع ذلك ربما كان في قياسه شيء من التحكم لايستند الى أساس واضح، أو على الأقل لم أستطع تبيّن أسبابه ، كقياسه الحروف الخمسة وهي ان وأخواتها على كان وأخواتها في عمل الرفع والنصب . وكقياسه (ان) على (أرى) في اعمالها وفي الغاء عملها ، كما مرّ من قوله : «انما لاتعمل فيما بعدها ، كما أن (أرى) اذا كانت لغوا لم تعمل ، فجعلوا هذه نظيرها من الفعل ، كما أن نظير (ان) من الفعل مايعمل» (٧) .

فلِمَ قيست ان وأخواتها على كان وأخواتها ، ولم تقس على غيرها ؟ وما هو القدر الجامع بينهما؟

ولِمَ قيست (ان) في العمل ، والغاء العمل على (ارى) ، عاملة وغير عاملة ؟ وما هو الوجه الذي انبنى عليه هذا القياس؟

ذلك مالم يقع لي تعليله ، ولم أعثر على تفسيره .

ولعل هذا أن يرجع الى ما أشرنا اليه مرارا من أن طبيعة الدراسة النحوية تختلف عن طبائع الدراسات العلمية النظرية ، لأن النحو دراسة للتأليف ، وتأليف الكلام يستند الى اعتبارات كثيرة ، بيئية واجتماعية ونفسية، والى اعتبارات أخرى منتزعة من طبيعة الجماعة .

وهناك نوع آخر من القياس كان الخليل يصطنعه ، ولكنه ليس كهذا القياس الذي مرت الاشارة اليه ، وهو قياس يعتمد على التأويل والتفسير ، وهو التأوّل .

---

(٦) الكتاب جـ١ ص ٣٢٥ .
(٧) الكتاب جـ١ ص ٢٨٣ .

وللتأول فى النحو ميدان واسع يجرى فى كل كل أصل من أصوله . ويخضع النحويون له كل ما يعترضهم فى تطبيق القواعد التى استخرجوها على المسائل التى يرون أنها تندرج فيها ، أو يحاولون ادراجها فيها .

وكأن التأول أداة لم يجدوا مفرا منها ، اقتضاها جنوحهم الى تقعيد اللغة والنحو ، وتطبيق المنهج العلمى عليهما ، وطبيعتهما تأبى أن تخضع للأصول العلمية ، فلابد من وجود الشواذ ، ولابد من ظهور مسائل لاتنطبق عليها القواعد التى استخرجوها ، فاضطروا الى أن يتأولوها .

والخليل على رأس أولئك اللغويين النحويين الذين يعنون بالقواعد ، فراح يشق لهم طريق التأول ، ليدخلوا فى أصولهم المقررة ما خالفها فى الظاهر من مسائل ، معتمدين على تفسيرها تفسيرا ينتهى بها الى الاندراج فيما استنبطوا من قواعد .

وفى الكتاب أمثلة كثيرة جدا استعمل فيها هذا القياس الذى يعتمد على التأويل والتفسير ، أعنى التأول ، وفى جميعها يظهر الخليل وكأنه أدرك أن هذه الصور اللفظية التى اصطنع فيها التأول أمثلة لصور نفسية ، ترك الاستعمال فيها أثره ، فحذف بعض أجزائها ، وغير شيئا من قوالبها وهيئاتها ، فبعدت عن الصور العامة المستقرة فى نفوس المتكلمين التى كانت هذه الصور اللفظية طبقا لها .

فمن هذه الأمثلة : ما جاء فى باب التعجب فى توجيه قولهم : ما أحسن عبدالله فقد لاحظ فيه من التعجب ماهو مفهوم ، ولكن الجملة لاتجرى على ظاهر الأصول المستقرة ، ففيها فعل ليس له فاعل ، والاسم الموجود لايصلح أن يكون فاعلا ، لأنه منصوب ، فأخذ يتأولها تأولا جعلها تندرج تحت أصوله ، (فما) عنده مبتدأ بمعنى شيء ، وفى (أحسن) ضمير يعود على (ما) هو الفاعل ،

وعبدالله مفعول به • وكان يقول : «انه بمنزلة قولك شيء أحسن عبـــدالله ، ودخله معنى التعجب» (٨) •

ومن الأمثلة : ما جاء في توجيه الجمل التى ينتصب فيها الفعل المضارع بعد فاء السببية ، أو بعد واو المعية ، في سياق نفي أو طلب ، نحو قولهـم : لاتكسل فتفشل ، فتفشل منصوبة بأن المضمرة بعد الفاء ، وأن وما بعـدها في تأويل المفرد ، فماذا يكون محل هذا المفرد من الاعراب •؟

هنا يستعين الخليل بالتأول ، فيذهب الى أن هذا المفرد معطوف على اسم متصيد من الكلام السابق ، كأنّه قيل : لايكن منك كسل ففشل •

وكقوله تعالى : «وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا ، أو مـــن وراء حجاب ، أو يرسل رسولا» • فقد سأله سيبويه عنه ، فقـــال : «ان النصب محمول على (أن) سوى هذه التى قبلها ، ولو كانت هذه الكلمة على (أن) هذه لم يكن للكلام وجه ، ولكنه لما قال الا وحيا في معنى الا أن يوحى ، وكان (أو يرسل) فعلا لايجرى على (الا) فاجرى على (أن) هذه • كأنه قال : الا أن يوحى أو يرسل ، لأنه لو قال الا وحيا والا أن يرسل كان حسنا ، وكان (أن يرسل) بمنزلة الارسال ، فحملوه على (أن) ، اذ لم يجز أن يقولوا : أو الا يرسل ، فكأنه قال الا وحيا أو أن يرسل» (٩) •

ومن الأمثلة التى اصطنع فيها التأوّل : هذه المسائل التى حمل اعرابها على التوهم ، فمما جرّ على التوهم قول زهير :

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

---

(٨) الكتاب جـ١ ص ٣٧ •
(٩) الكتاب جـ١ ص ٤٢٨ •

فكان يقول : «انما جرّوا هذا ، لأن الأول قد يدخله الباء ، فجاءوا الثانى ، وكأنهم قد أثبتوا فى الأول الباء» (١٠) .

وقولهم : هذا جُحر ضب خرب ، وهو مايدخل عند النحويين فى باب الاتباع . وكان الخليل يقول فى تأويله : «الوجه الرفع ، وهو أكثر كلام العرب وأفصحهم ، وهو القياس ، لأن الخَرِب نعت الجحر والجحر رفع ، ولكن بعض العرب يجره ، وليس بنعت للضب ولكنه نعت للذى أضيف الى الضب ، فجروه لأنه نكرة ، ولأنه فى موضع يقع فيه نعت الضب ، ولأنه صار هو والضب بمنزلة اسم واحد ، ألا ترى أنك تقول هذا حبّ رمّان ، فاذا كان لك قلت: هذا حب رمّانى ، فأضفت الرمان اليك ، وليس لك الرمان ، انما لك الحبّ» . ثم قال : «لايقولون الا هذان جحرا ضب خربان ، من قبل أن الضب واحد ، والجحر جحران ، وانما يغلطون اذا كان الآخر بعدّة الأول ، وكان مذكرا مثله أو مؤنثا» . وقال : «هذه جِحَرة ضِباب خربة ، لأن الضباب مؤنثة ولأن الجِحَرَة مؤنثة ، والعدّة واحدة ، فغلطوا» (١١) .

ومما جزم على التوهم : قوله تعالى : «فأصّدّق وأكن من الصالحين» . وسأله سيبويه عنها ، فحملها الخليل على قول زهير ، وقال : «لما كان الفعل الذى قبله قد يكون جزما ، ولا فاء فيه تكلموا بالثانى ، وكأنهم قد جزموا قبله ، فعلى هذا توهموا هذا» (١٢) .

ومن الأمثلة أيضا : ما جاء من قولهم : وراءك أوسع لك ، وانتهوا خيرا لكم ، ولا تتكلم خيرا لك ، مما ينتصب فى سياق أمر أو نهى . فقد أوّله الخليل بقوله : «كأنك تحمله على ذلك المعنى ، كأنك قلت انته ، وادخل فيما

---

(١٠) الكتاب جـ١ ص ٤٥٢ .

(١١) الكتاب جـ١ ص ٢١٧ .

(١٢) الكتاب جـ١ ص ٤٥٢ .

هو خير لك ، فنصبته لأنك قد عرفت أنك اذا قلت له : انته ، أنك تحمله على معنى آخر ، فلذلك انتصب» (١٣) •

وظاهرة التأول مثبوتة في مواضع كثيرة مما نقله سيبويه عنه ، متمثلة في أكثر الأحيان في قوله : «كأنك قلت كذا وكذا» ، أو «كأنه قال كذا وكذا» ، أو «كأنك تحمله على كذا وكذا» ، أو غير ذلك من التعبيرات التي يقصد بها الى تأويل محذوف ، أو تأويل معنى بجملته ، تضمنته عبارة أو جملة •

فالخليل اذن كان متمثلا لهذه الأصول المستقرة في نفوس المتكلمين ، وكان معنيًّا باستنباط القواعد العامة ، لتكون على مثال تلك الأصول ، ولذلك اصطنع القياس الظاهر والتأول في نطاق واسع ، واستعان على تكميل غرضه بالفروض التي عرضنا لها من قبل •

على أن الكوفيين كانوا قد تأثروا بالخليل ، بوجه خاص ، حينما اتصل الكسائي بالخليل وعلمه اتصالا مباشرا بتلمذته له ، وحينما اتصل الفراء بآرائه بقراءة الكتاب ، واستيعاب مافيه ، فكانوا يعنون بالأقيسة أيضا ، ولكنهم توسعوا في القياس فأخذوا يعتدون بالمثل الواحد يقيسون عليه ، لعلمهم أنه يمثل بيئة لغوية لايصح اغفالها •

أما الخليل ومن ورائه نحاة البصرة فكان يرمي من افتراض الفروض ، والأقيسة الى اخضاع الجزئيات لأصوله العامة التي كان يرى أنها صور مطابقة للأصول النفسية العامة •

كان هذا عمله في النحو ، وهو عمل رائع حقا اذا قيس بأعمال من سبقه ، أو باعمال من تأخر عنه ، ويكفي أن تقرأ الكتاب لتعرف أي مجهود بذله هذا الدارس الفذّ ، وأي عمق اتسمت به دراسته وملاحظاته •

---

(١٣) الكتاب ، جـ١ ص ١٤٣ •

أما الأصوات اللغوية فيكفيه أنه كان أول دارس فى العربية تناولها بالدرس والبحث ، وبالرغم من أن اليونان والهنود سبقوه الى هذه الدراسة ، لم يكن مقلدا ولا اكتفى بالحد الذى وصلوا اليه ، فقد أضاف الى هذه الدراسة مالابد منه ، لتكون دراسة مثمرة ، وكانت أصالته فى خوض هذا الميدان الجديد تتمثل فيما انتهى اليه من بحث العلاقات بين الحروف فى تألفها وانسجامها ، ومراقبة استعمالاتها ، والنص على ما يأتلف منها مع أخواته وما لا يأتلف ، حتى انتهى الى نتائج جديدة فتحت للدراسة اللغوية آفاقا جديدة أيضا ، لايسع الدارس الا أن ينحنى اجلالا لهذه العبقرية ، التى أضافت الى ما تمخضت عنه الانسانية من أعمال جليلة ، أعمالا جليلة أخرى .

وكان من هذه الأعمال الجليلة ظهور أول كتاب جامع لمفردات اللغة العربية وهو كتاب العين ، الذى كان أساسا لكل ما ألف فى اللغة من بعده من معجمات ، وكان قد بناه على دراسة الحروف ، وترتيبها ترتيبا جديدا ، ولما كانت العين أول الحروف عنده سمى كتابه العظيم باسمها ، لأن الفصل الأول منه يتناول المفردات التى تبدأ بالعين أو تتضمنها ، مما سبقت الاشارة اليه .

وأما العروض فهو بعض الأعمال الرائعة التى كان الخليل فيها مبدعا ، وكان فيها خلاقا ، فهو الذى استقرأ أشعار العرب ، وهو الذى توصل الى معرفة بحورها ، وهو الذى درس هذه البحور ، ووصل الى ما تتألف منه من تفعيلات ، والى ما تتألف التفعيلات منه من أسباب وأوتاد ، وهو الذى اهتدى الى البحور الستة عشر كلها ، ثم هو الذى فكر فى دوائر العروض الست .

وليس صحيحا ما قيل من أن الأخفش سعيد بن مسعدة الذى لم يكن أنبه تلاميذه ، كان قد استدرك عليه البحر السادس عشر ، فقد أشرنا الى أنه كان قد نظم عليه شعرا مما أوردنا الأمثلة عليه فى فصل سابق .

ولا يسع الدارس الذى يستمع بعضهم يقول :

علم الخليل رحمة الله عليه سببه ميل الورى لسيبويه

وهو يعنى العروض ، الا أن يبتسم اشفاقا على من يرى هذا الرأى ، فلم يكن الخليل بحاسد لسيبويه وهو تلميذه الذى أحله منه محل الصديق ، ونشأه كما ينشئ الوالد ولده ، ولقى سيبويه منه مالم يلقه من أحد ، ولذلك لزمه حيا ، ووفى له ميتا ، وحفظ آراءه وأقواله فى كتاب كان قد أملّه عليه ، أو أملّ أكثره عليه جملة وتفصيلا .

وشأن سيبويه لم يبلغ الدرجة التى وصل اليها فى حياة الخليل ، فلا يعرف التاريخ فى زمن الخليل دارسا يضعه الى جانبه ، فكيف اذن يحسد الخليل تلميذه ، ويظل يفكر فى الخطوة بمثل شهرته حتى ينتهى الى وضع العروض كما يقال !؟

هذه الأعمال التى عرضت لها فى الفصول السابقة هى أهم الأعمال التى تناولها الخليل بالدرس ، والتى تيسّر لى الحصول عليها من بين أقواله وآرائه .

وقد حاولت أن أرسم لمنهجه فى دراسة اللغة والنحو صورة تامة واضحة ، فحال دون ذلك ما أحاط بهذه الغاية من عقبات ، وما اكتنف شخصيته من غموض . فعناصر شخصيته اللازمة لرسم هذه الصورة لم تتوفر لى كاملة ، فقد نشأ فى فترة لم يكتب لها أن تشهد حياة التدوين والتأليف ، أو حياة التنظيم العلمى كما كان من بعد .

ولم أعثر فيما استطعت الوقوف عليه من مصادر على عرض كامل لحياة الخليل ، وأعماله العلمية ، عرض يتسنى لى منه دراسته دراسة وافية ... وكل ما وقفت عليه أخبار متفرقة تتحدث عن الخليل بعد أن نضج ، وتصدر مجالس التدريس فى حلقات البصرة التى حفل بها مسجدها الجامع . وليس

فى هذه الأخبار المتفرقة مايفى برسم صورة واضحة مكتملة •

وظلت الكتب التى تعنى بالطبقات تردد هذه الأخبار ، وتتناقلها ، كأن العصر الذى نشأ فيه هذا الرجل الذى أحدث فى حياة الأمة الاسلامية العقلية ثورة عنيفة ، وانقلابا فكريا هائلا ، كان مغمض العينين عن مثل هذه الشخصية النادرة •

ومن يدرى ؟! فلعل السر فى أن يسكت عنه حتى معاصروه هو هـذا المستوى العقلى الذى هبط عنه معاصروه هبوطا لم يمكنهم الوقوف على أسرار عقله وحل رموزها •

وأكبر الظن أن المؤرخين كانوا فى موقف لايقل عن موقفنا منه حَيْرة وحرمانا مما يعين على دراسته دراسة وافية ، فقد أحاط الغموض بشخصيته وبأعماله العلمية ، وبَعُد ما بيننا وبينه ، فصعب المطّلب فى آثاره كلهـا ، ولم يتيسر الحصول على آرائه وأقواله جميعا •

ولست أخفى ما عانيت من أجـل استجلاء آثاره والاحـاطة بأقواله وآرائه ، حتى أخرجتها على هذا النحو ، فقد جار الزمن عليها ، فمحا كثيرا من الخطوط ، وعبث بكثير من الظلال •

وأنا ـ مع اعترافى بأن الصورة التى رسمتها للخليل تحتاج الى كثـير من الخطوط والظلال ـ أرجو أن تكون قد حملت معها الخطوط الرئيسة التى تعتمد عليها كل صورة ، وتضمنت الملامح الأساسية التى تنم على شخصيته العلمية •

الجمـاعات

الاعـــلام

حرف الالف :

حرف الباء :

حرف التاء :

حرف الثاء :

حرف الجيم :

حرف الحاء :

حرف اللام :

حرف الميم :

حرف النون :

حرف الواو :

حرف الهاء :

حرف الياء :

فهرس الامكنة والبقاع

حرف الشين :

حرف الصاد :

حرف الطاء :

حرف العين :

حرف الفاء :

حرف القاف :

حرف الكاف :

حرف الميم :

حرف النون :

حرف الواو :

حرف الهاء :

حرف الياء :

الكتب الواردة فى المتن

حرف الالف :

حرف الباء :

حرف الثاء :

حرف الجيم :

حرف الخاء :

حرف الدال :

حرف الراء :

حرف السين :

حرف الشين :

حرف الصاد :

حرف الضاد :

حرف العين :

حرف الفاء :

حرف القاف :

حرف الكاف :

حرف اللام :

حرف الميم :

ثبت تفصيلى لمواد البحث